الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

ما هذه الأربعين؟

- هي اثنان وأربعون حديثًا، أصل تأليفها أنه قد روى بعض أهل العلم حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من حفظ على أمتي أربعين حديثًا من أمر دينها حشره الله جلَّ وعلَا في زمرة الفقهاء العلماء» ، وفي بعض الروايات قيل له: «ادخل من أي أبواب الجنة شئت» ، إلى غير ذلك، هذا الحديث وإن كان يجمع أهل العلم على ضعفه، إلا أن أصله من جهة جمع السنة، والعناية بها، والاهتمام بها ظاهرٌ، ولذلك تتابع كثيرٌ من أهل العلم على هذا المعنى.
- منهم من جعلها في مختصرٍ في باب من الأبواب كالجهاد أو غيره، ومنهم من جعلها متنوعةً وخُص هذه الأربعون بأنها جمعت أصول الأحاديث، وكان فيها من مهمات الأحاديث التي يحتاج إليها الناس ما جعل لها الخصوصية والاشتهار.
- فإذا تكلم الناس عن الأربعين، فأول ما يتبادر إلى أذهانهم، أربعين الإمام النووي، وهذا من رحمة الله جلَّ وعلَا، **ولعل ذلك يرجع إلى أمرين،**
  - ✓ **الأول:** أن هذه الأربعين اختصت من سائر ما أُلف على منوالها، أنها جمعت من أصول الأحاديث التي يحتاج إليها الناس ما لا يكاد يجتمع في مثل هذه المختصرات أو الرسائل التي جمعت بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
  - ✓ **الثاني:** لعل ذلك أنه كان من بركة إخلاص ذلك الإمام، ولأجل هذا مع قِصر عمره رحمه الله تعالى الإمام النووي، إلا أن الله جلَّ وعلَا جعل له من البركة في انتشار كتبه وبقائها، وعود الناس عليها، ما لا تكاد تجده لغيره أو يقاربه أحدٌ سواه.
- مع أن هذه الأربعين من حيث الأصل أنها أول الأمر أن الإمام ابن الصلاح ألف ستةً وعشرين حديثًا أو جمعها يعني مما عليها مدار الأحاديث ومهمات الأحكام، ونحو ذلك، فقام الإمام النووي فجمع إليها ستة عشر حديثًا، فصار مجموعها اثنان وأربعون حديثًا، هي الأربعين النووية، ثم جاء ابن رجب الحنبلي رحمه

الله تعالى، فزاد عليها ثمانية أحاديث، وضمنها إياها، ثم شرحها في كتابٍ جامعٍ ماتعٍ لطيفٍ مفيدٍ، وهو جامع العلوم والحكم.

ولذلك من أراد أن يرجع إلى شرحٍ من شروح الأربعين النووية فلن يجد أنفع له من هذا الشرح المبارك، مع ما ضم إليه من هذه الأحاديث الثمانية.

مؤلف الأربعين النووية.

- مؤلفها وهو الإمام شرف الدين يحيى بن حسن بن حسين النووي، أبو زكريا ، ولد سنة ستمائةٍ وواحدٍ وثلاثين تقريبًا، وتوفي سنة ستمائة وست وسبعين، يعني عاش خمس وأربعين سنةً، وبعضهم يقول ثلاثة وأربعين سنةً، ومع ذلك ألف هذه المؤلفات العظيمة.
- الإمام النووي رحمه الله تعالى يقول عن نفسه: أنه لما بلغ سن الثامنة عشر وهو قد أقبل على العلم، يقول: جاء في نفسي أن أتعلم علوم الطب، يقول فجمعت كتبها، وجمعت آلتها، وبدأت في ذلك، يقول: فاسود قلبي وأظلمت نفسي، ووجدت في ذلك من الجفاء والضعف والتعب ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، يقول: فرجعت إلى ما كنت، وأقبلت على علوم الشريعة وتركت علوم الطب، وهنا لا نريد أن نقلل من هذه العلوم الدنيوية، فللناس فيها مصالح كثيرةٌ، لكن لما كان هذا الإمام بداية أمره أنه اشتغل بالعلوم الشرعية، فليس الانتقال منها إلى مثل هذه العلوم إلا الانتقال من الأعلى إلى الأدنى، فلما أراد الله جلَّ وعلَا له الخير أراد أن يرجع إلى ما كان وأن يعود إلى ما بدأ من دراسة علوم الشريعة والتفقه فيها.

الحديث الأول.

{بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد، فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين والمشاهدين وجميع المسلمين}

{قال المؤلف رحمه الله:

الحديث الأول:

عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَرَ إلَيْهِ».

رَوَاهُ إمَامَا الْمُحَدِّثِينَ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ إسْمَاعِيل بن إبْرَاهِيم بن الْمُغِيرَة بن بَرْدِزبَه الْبُخَارِيُّ الْجُعْفِيُّ، وَأَبُو الْحُسَيْنِ مُسْلِمٌ بنُ الْحَجَّاج بن مُسْلِم الْقُشَيْرِيُّ النَّيْسَابُورِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي صَحِيحَيْهِمَا اللذَينِ هُمَا أَصَحُّ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ.}

- قال أمير المؤمنين، هو أمير المؤمنين، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفي ولي الخلافة بعده أبو بكر، كان يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما مات أبو بكر، وانتقلت الخلافة إلى عمر، كان الأمر دائرًا بين أن يقال خليفة خليفة رسول الله، وفي ذلك شيءٌ من الطول، أو يقال أمير المؤمنين، فانتشر ذلك اللقب وعرف به.

- **وأبو حفص** هذه كنيةٌ شهر بها عمر رضي الله تعالى عنه، يقول أهل العلم: وإن لم يكن له ابنٌ اسمه حفص، كما أن أبا بكر يعني أيضًا اشتهر بها ولم يكن له ابنٌ اسمه بكر، لكنها مما عرفت عنه وحفظت منه.
- وهذا الحديث الذي ذكره الإمام النووي رحمه الله تعالى، رواه البخاري ومسلم وهو من الأحاديث التي وإن كان كما يذكر أهل الحديث أن إسنادها في أوله غرابةٌ، إلا أنه اشتهر اشتهارًا كثيرًا ، فهو عن عمر، ورواه عن عمر علقمة بن وقاص، وعن علقمة بن وقاص، محمد بن إبراهيم التيمي، وعنه يحي بن سعيد الأنصاري، وعنه خلقٌ كثيرٌ، وجعل الله جلَّ وعلَا بذلك الحديث من البركة والاشتهار والانتشار في معانيه، من المعاني العظيمة.
- لقد علم أهل العلم والأئمة عِظم هذا الحديث من أول وهلةٍ، ولذلك كانوا يُصدِّرون به كتبهم ، الإمام البخاري رحمه الله تعالى في أول حديثٍ له ذكره، حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»، حديث عمر هذا.
- قال بعض أهل العلم: إنه ينبغي أن يصدر هذا الحديث في كل كتابٍ من كتب أهل العلم، وليس ذلك عليه بكثيرٍ، وذلك لتعلق هذا الحديث بكل أعمال العباد، وما يَلقون به الله سبحانه وتعالى.
- ولذلك مما ذكر في أهمية هذا الحديث أن **الإمام أحمد** رحمه الله تعالى قال: إن هذا الحديث أحد الثلاثة الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، «**إنما الأعمال بالنيات**» ، «**من عمل عملًا ليس عليها أمرنا فهو ردٌّ**» ، و حديث النعمان بن بشير «**الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ**»، وكلها من أحاديث هذه الأربعين.
- ويقول **الإمام الشافعي** رحمه الله تعالى: إن هذا الحديث يدخل في سبعين بابًا من أبواب الفقه، ولعل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أنه أراد بالسبعين بابًا التكثير كما هو مشهورٌ عند العرب، أنهم يكنون عن الشيء الكثير بالسبعة، ومضاعفاتها، وإلا فإنه لا يكاد تكون مسألةٌ من مسائل العلم، أو من مسائل الشرع إلا ويتعلق بها أمر النية والإخلاص لله سبحانه وتعالى.
- هذا الحديث حديثٌ عظيمٌ، يتعلق بأهم المهمات، وهو إخلاص العبادة لله جلَّ وعلَا، وقصد الله سبحانه وتعالى، والتوجه إليه، وأن يكون هذا القلب صافيًا، خالصًا لا شائبة فيه، ولا تعلُّق فيه لأحدٍ إلا الله سبحانه وتعالى، فيما يعمل، وفيما يذر، وفيما يأتي، وفيما يتعبد، وفي كل شيءٍ يفعله حتى ما يفعله من الأمور المباحات، أو الأمور الدنيوية، فإنه ينوي به وجه الله سبحانه وتعالى.
- إذا أردنا أن نعرف عظم هذا الحديث فنرى أن كثيرًا من دلالات القرآن قد جاءت في معناه، وفي الدلالة عليه،
  - ✓ فإن الله جلَّ وعلَا في كتابه يقول: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: 5].
  - ✓ والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ**﴾ [هود: 15]،
  - ✓ وفي الآية الأخرى: ﴿**وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**﴾ [الإسراء: 19]،
  - ✓ فسواءً جاءت بلفظ الإرادة أو الابتغاء، ﴿**إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى**﴾ [الليل: 20].

  فهذه كلها تدل على هذا المعنى، وهو حسن القصد، والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى.
- هذه اللفظة «**إنما الأعمال بالنيات**» ، يحسن بنا أن نقف عندها،، إنما دالةٌ على الحصر ، الأعمال ذكرها في هذا الحديث لا يقصد بها أعمال الجوارح فقط، بل يقصد بها ما يقابل التروك، سواءً كانت من عمل

الجوارح أو كانت من قول اللسان، أو كانت من قول القلب وعمله، فالرجاء والتوكل والخوف داخلٌ في دلالة هذا الحديث أو هذه الجملة «إنما الأعمال بالنيات» وما يكون من لفظ الإنسان وذكره لله جلَّ وعلَا، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر.

وكذلك أعماله من صلاةٍ أو صدقةٍ أو صيامٍ أو غيرها، فإنما الأعمال الأعمال شاملةٌ لذلك.

- «إنما الأعمال بالنيات» النية هي قصد الله سبحانه وتعالى بالعمل والعبادة والتوجه إليه دون من سواه، ولأجل ذلك يقول أهل العلم: بأن محلها القلب، ولا أحد يطلع عليها إلا الله سبحانه وتعالى.
- قوله: «إنما الأعمال» يعني قبولها عند الله جلَّ وعلَا ومجيئها صحيحةً، واستحقاق الثواب عليها «بالنيات» فالباء للسببية، يعني سببها النية، فمن كانت له نيةٌ طيبةٌ، فمن كانت له نيةٌ صحيحةٌ، فمن كان له قصدٌ خالصٌ، فإنه يكون ثوابه إلى الله جلَّ وعلَا وأجره من الله سبحانه وتعالى، ويكتب له عند الله ثوابه، ويثبت أجره، وعلى الله جلَّ وعلَا جزاؤه.
- «إنما لكل امرئٍ ما نوى» عندما نجلس في هذا المجلس ، وكلنا نعمل عملًا واحدًا، وهو مجلس علمٍ نتذاكر المسائل ونتعلم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن هل كلنا على حدٍّ سواء، من قرأ هذه الجملة، فإنه يعرف الفرق، «وإنما لكل امرئٍ ما نوى»، ليس كلنا على قدرٍ واحدٍ من النية.

فمن كانت له نيةٌ خالصةٌ لا يلتفت إلى شيءٍ من الدنيا ولا حطامها، ولا ثناء الناس، ولا مدحهم، فهو أتم ما يكون إخلاصًا وأعظم ما يكون أجرًا، ومن كان دون ذلك فهو دون ذلك، ومن فوَّت هذا فات عليه أجر الدنيا وأجر الآخرة عند الله سبحانه وتعالى ولم يلحقه إلا البلاء والنكال والوبال من الله سبحانه وتعالى.

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 15، 16]، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من طلب علمًا مما يُبتغى به وجه الله، لا يريد به إلا عرض الدنيا» ، يعني شيئًا من مُتعها، «لم يجد عرف الجنة» ، يعني هذا وعيدٌ شديدٌ، حتى إن هذا العامل لا يجد ريح الجنة، لما فوَّت من الإخلاص، لما فوَّت من حسن القصد، لما فات ما ينعقد في القلب من إرادة الله سبحانه وتعالى.

ولذلك كانت هذه الجملة جملةً عظيمةً ينبغي لنا ألا نفوِّت الوقوف عندها وأن تكون سببًا لاستنقاذ أعمالنا، واستنقاذ قلوبنا، وإصلاح نفوسنا، والتوجه إلى الله جلَّ وعلَا ربنا، وألا يتزين للعبد شيءٌ من الدنيا البتة، وألا يفرح بشيءٍ منها، فإن كل ذلك عرضٌ زائلٌ، وكل ذلك شيءٌ فائتٌ، ولا يبقى للإنسان إلا ما قدم.

وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كان هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله»، ظاهر هذه الجملة أنها تكرارٌ، وأن الثانية مثل الأولى، وعند أهل العربية أن الجملة إذا تكررت، فلا يكون شرط الفعل مثل شرط الجزاء، بل يختلفان، ولذلك يقول أهل العلم في التقدير: هذه الجملة حتى يتضح معناها: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله قصدًا وإخلاصًا فهجرته إلى الله ورسوله ثوابًا وأجرًا.

فعند ذلك يتبين لك المعنى، من كان قصده الله فثوابه على الله، من كان قصده الدار الآخرة، فإن الله جلَّ وعلَا لا يضيع أجره، وأن الله سبحانه وتعالى لا يفوت ثوابه، وإن الله سبحانه وتعالى يحقق مقصوده، ويبلغه سبحانه وتعالى الدرجة والغاية والأجر والثواب.

- قال: «ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»، تأملوا الفرق، بين من كان ثوابه عند الله، ومن كان ثوابه متعٌ من متع الدنيا، كسرة خبزٍ، لقمة عيشٍ، شهوةٌ تذهب وتفنى، شيءٌ من ثناء الناس، شيءٌ من الوجاهة، إلى غير ذلك، مهما بلغت، مهما كثرت، مهما عظمت، فإنها لا شيء، وإنها تتلاشى، ولا تساوي شيئًا بإزاء من كان أجره عند الله، ومن كان ثوابه لله، ومن كان قصده الله -سبحانه وتعالى.

من كان قصده الله، ومن كانت رغبته إلى الله، ومن كان هجرته إلى الله، ومن كان عمله إلى الله -سبحانه وتعالى-، هل يستوي هو ومن كان عمله في أمور الدنيا عند فلانٍ وعند الآخر وعند الثالث؟ بينهما كما بين المخلوق والخالق ، فلأجل ذلك كان هذا أعظم ما يكون للعبد في إرادة وجه الله -سبحانه وتعالى- والتوجه إليه.

- أن محل النية القلب، ومع ذلك فإنها أصعب ما تكون على العبد: لكثرت تقلب القلب، وتغير النفس، فإن العوارض كثيرةٌ، والعوائق متكررةٌ، وما يصرف الإنسان عن الله -سبحانه وتعالى- لا يبرح في يومٍ ولا في ليلةٍ، من النفس الأمارة بالسوء ومن الشيطان ومن غير ذلك، ولذلك جاء عن سفيان أنه قال: ما عالجت شيئًا أكثر من نيتي، ويقول البعض: تعلموا النية كما تتعلمون العمل، يعني كيف تتعلم الوضوء والصلاة والطهارة، أيضًا النية وإن كانت شيئًا ينعقد في القلب إلا أنه لكثرة التقلب والتغير يحتاج الإنسان إلى معالجةٍ.
- العبد مطالبٌ بأن يكون مخلصًا لله -جلَّ وعلَا- في كل أموره، والنية تتقلب في كل حالٍ من أحواله، والشيطان يتربص به، والنفس أمارةٌ بالسوء، والعبد ضعيفٌ في ذلك كله، إلا من عصمه الله -تعالى- وسلمه، فلأجل ذلك كان من الأمور التي ينبغي أن تُحفظ وأن تُعلم، أنه لابد أن يتعلم العبد كيف يحسن النية، وكيف يصلحها، وكيف يقصد وجه الله -سبحانه وتعالى-، ولأجل هذا يمكن القول أننا ما أسهل أن نحفظ هذا الحديث، وأن نردده، وأن يكون من الأحاديث المشهورة لدينا، لكن ما أقل من يكون مراعيًا له في كل أحواله وأموره، وكل أعماله وأقواله، وكل تقلبات أيامه ولياليه.

حقيقة النية ومباحث أهل العلم فيها.

- العبد يجب عليه إخلاص القصد لله -جلَّ وعلَا-. ولأهل العلم في مبحث النية، أن النية لها تعلقاتٌ، وتعلقها عند أهل العلم منه ما هو مبحثٌ من مباحث أهل الإيمان والاعتقاد، ومنها من مباحث أهل الفقه والفروع والمسائل الفرعية، فالأول يسميه الفقهاء الإضافة إلى الله، وهو الذي يشتهر عندنا بإخلاص القصد لله -سبحانه وتعالى-، فهذا مبحثه عند أهل الاعتقاد، فيقولون: يجب على العبد أن يخلص العبادة لله -سبحانه وتعالى- ولا تصح عبادةٌ إلا بقصد بوجه الله -سبحانه وتعالى-، ولذلك قال الله -تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]، ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم: يقول الله -تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»، هذا هو الأمر الأول الذي يُعنى به أهل الاعتقاد.
- أما الفقهاء إذا ذكروا النية فيتعلق بذلك **مبحثان:**

الأول: قصد العبادة، يعني أن تتميز العبادة عن العادة، على سبيل المثال: ربما يدخل الإنسان مغتسله فيغتسل، فيكون في هذا إما متبردًا أو متنظفًا أو مغتسلًا من جنابةٍ أو مغتسلٍ لجمعةٍ، ما الفرق بين الأخيرين والأولين إلا بما انعقد في قلب العبد من النية، فمتى ينتقل من كونه عادةً أو شيئًا من أمور الدنيا إلى أن يكون عبادةً، حينما يكون للعبد إخلاصٌ لله -جلَّ وعلَا-، وقصدٌ لوجه الله -سبحانه وتعالى-، فإذًا هذا تمييز العادة من العبادة ، لا يفرق بين العادة وبين العبادة إلا النية.

الثاني: تمييز العبادات بعضها عن بعضٍ، أو ما يسمى عند الفقهاء بالتعيين، يعني على سبيل المثال لو أن شخصًا يصلي ركعتي الفجر -سنة الفجر- ثم يصلي صلاة الفجر -الفرض- ما الفرق بينهما؟ كيف نعرف أن هذه ركعتا الفجر التي هي نافلتها، وهذه فرضها إلا بالنية، وقل مثل ذلك في أعمالٍ كثيرةٍ، لا تتمايز إلا بالنية.

ما حكم من قصد غير الله -جلَّ وعلَا-، ؟.

- تبين لنا في ما ذكرناه أن الإخلاص واجبٌ، وأنه به يصح الإيمان، وبه تقبل الأعمال، وهو مناط الأجر والثواب عند الله -سبحانه وتعالى-. لدلالة ظاهر هذا الحديث، وما ذكرناه لكم من أنه أصلٌ أصيلٌ، وركنٌ ركينٌ عند العلماء، لا يستغنى عنه في عبادةٍ من العبادات.
- إذا انتفى الإخلاص لله -جلَّ وعلَا-، فإن العمل يكون شركًا بالله -سبحانه وتعالى-. ولذلك من عمل عملًا من العبادات يتقرب بها إلى غير الله -جلَّ وعلَا-، فإنه مشركٌ بالله -سبحانه وتعالى-، من سجد لغير الله، من عبد غير الله، من صلى أو نحر لا يقصد وجه الله -جلَّ وعلَا- ويقصد غيره، فذلك مشركٌ بالله -سبحانه وتعالى-، ومن عمل عملًا من الأعمال التي يستحقها الله -سبحانه وتعالى- مثل الصلاة والصيام كذلك، لذلك جاء عند أحمد أنه من صلى لغير الله فقد أشرك، ومن صام لغير الله فقد أشرك. فإذن لا يصح العمل إلا أن يكون خالصًا لله -سبحانه وتعالى-. ولأجل ذلك قال الله -جلَّ وعلَا- في وصف المنافقين: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142]، فأعمالهم في الظاهر أنها يُتوجه بها إلى الله، وحقيقتها أنهم لا يريدون بذلك إلا شيئًا من أمور الدنيا، والأمان على أنفسهم، وهم مناكفون مضادون محادون لله -جلَّ وعلَا-، ولرسوله -صلى الله عليه وسلم.

حالات التغير التى تطرأ على النية.

قد يقع بعض المسلمين في أن تنحرف نيته وقصده من الله -جلَّ وعلَا- إلى شيءٍ من الدنيا وحطامها، ولأجل ذلك أهل العلم يفصلون ذلك على أحوالٍ:

- **الحال الأولى:** يقولون: من قصد بعمله الدنيا، لأي سببٍ من الأسباب ابتداءً، كمن مثلًا ظن أنه لا يحصل هذه الوظيفة إلا بأن يُظهر التمسك بهذا العمل، أو الاستقامة على هذا الأمر، فلم يعمله إلا لأجل تحصيل تلك الوظيفة، فنقول أيضًا: هذا العمل حابطٌ، وأن العمل غير صحيحٍ، وليس مقبولًا، لما ذكرنا من قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى» ، وأيضًا لما جاء في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

- **الحال الثانية:** من ابتدأ العمل لله، لكن انقلبت نيته لغير الله -جلَّ وعلَا-، واستقام على ذلك، يعني على انحرافه وضلاله، فقلب عمله، بدل أن يكون لله، أن يكون لغير الله، وبدل أن يطلب بذلك رضا الله، يطلب بذلك شيئًا من الدنيا وحطامها، فمثل ذلك أيضًا عمله حابطٌ، وهو غير مقبولٍ ولا نافعٍ.
- **الحال الثالثة:** وهو من ابتدأ عملًا يريد به وجه الله -جلَّ وعلَا-، ثم يعرض له الرياء، ويعرض له إرادة وجه غير الله -سبحانه وتعالى-، فيقول أهل العلم:

١) إن كان ذلك عارضًا ثم يزول، يجاهده، فإنه عمله خالصٌ، ومأجورٌ على إخلاصه، ومأجورٌ على مجاهدته، ولا يضره ذلك.

٢) وأما أن يكون ابتدأ العمل لله، لكن لما عرض له الرياء، استقر مع العمل، هو لم يلتفت إلى غير الله، لكن زاد في العمل، أو حسن في العمل، لأنه يرى الناس ينظرون إليه، أو رأى الناس يمدحونه، كان يتصدق في الحرم، فلما رمق الناس وهم ينظرون إليه، زاد قليلًا، فهنا يقول أهل العلم: إنه أصل العمل لله -جلَّ وعلَا-، ولم تتغير في ذلك النية، وإنما وقع انصرافٌ فيما زاد، فيكون مأجورًا على إخلاصه، ويذهب عليه ما ركن إليه في زيادته، فيكون في ذلك العمل فيه شيءٌ صالحٌ، وعملٌ غير صالحٍ.

- الإنسان أحيانًا إذا عمل العمل وانتهى منه، يُثنى عليه فيفرح بذلك، يقول أهل العلم: بالنسبة لهذه المسألة، أنها لا تعلق لها بالإخلاص؛ لأنها بعد انتهاء العمل والفراغ منه، فلا تضره بذلك، بل كما جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم: **«تلك عاجل بشرى المؤمن»** ولذلك قال الله -سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾ [يونس: 58]، فالفرح بنعمة الله وفضله وتحقيقه الإيمان به ونحو ذلك من أعظم ما يحصل به الفرح، وهو الفرح الحقيقي، الذي يرجو الإنسان بره عند الله -سبحانه وتعالى.

بعض الأعمال جاء ترتيب أجرٍ دنيويٍّ عليها، فكيف يكون إخلاص الإنسان فيها؟

- تمام الإخلاص أن يكون انبعاث الإنسان حتى في هذه الأعمال، وإرادة ما عند الله -جلَّ وعلَا- من الثواب الأخروي، وعدم الالتفات إلى الثواب الدنيوي، لكن لو أنه قصد الثواب الدنيوي مع إخلاصه لله -جلَّ وعلَا- فإن ذلك صحيحٌ لا يضره، كمثل من يصل رحمه، لورود الحديث، ويقصد ما عند الله -جلَّ وعلَا- من ثوابٍ، ولما رتب عليه أيضًا من ثواب الدنيا **«من أراد أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أجله فليصل رحمه»**، وكذلك الغنيمة في الجهاد مطلوبةٌ، وأُذين الله -جلَّ وعلَا- بها، وجعل لها قسمة بين المؤمنين، فمن طلبها لا يكون في ذلك ذهاب إخلاصه، لكن لا شك أن من قصد الثواب الأخروي بدون النظر إلى ثواب الدنيا أكثر إخلاصًا، ولذلك جاء في الحديث الذي رواه البخاري: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **«من أخذ الغنيمة فقد تعجل ثلثي أجره»**، فيفوت عليه من الأجر، لكنه ليس بمعارضٍ للإخلاص، ولا ممانعٍ منه.

أخذ الأجرة على بعض أعمال القُرَب.

- أعمال القُرَب منها ما لا تدخله النيابات كالصلاة والصيام في الفرض، هذا لا إشكال فيه، أن كل واحدٍ يصلي عن نفسه ويصوم عن نفسه، لكن مثل صيام النذر، مثل بعض أيضًا الحج، أيضًا تعليم القرآن ونحوه، تعليم العلوم الشرعية، هل يجوز أخذ الأجرة عليها؟ اختلف في هذا أهل العلم.

- ✓ الحنابلة -رحمهم الله تعالى- يرون أنه لا يجوز، وأن ذلك معارضٌ للنية، لحديث أبي هريرة: «**أول من تسعر بهم النار ثلاثةٌ**» ، فذكر منهم قارئ القرآن، لا يقرأ القرآن إلا ليقال قارئٌ، فقد قيل، فيؤمر به في النار، ثم المنفق الذي يريد ثناء الدنيا، وأيضًا المجاهد الذي يجاهد لأجل الشجاعة، استدلوا بهذا الحديث وما في معناه على أنه لا يجوز أخذ الأجرة على ذلك،
- ✓ وخالف في هذا الشافعية والمالكية، وقالوا: إن ذلك جائزٌ، وقد جاء ما يدل عليه: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله**»، ودلالاتٌ وأحاديث أيضًا أخرى، فالأمر في ذلك مقاربٌ، وعلى كل حالٍ، خاصةً مع تأخر الأزمان، وحاجة الناس إلى الأجرة، فكثيرٌ من الأعمال لا تستقيم إلا بذلك، ويمكن القول من أن أخذ الأجرة لا ينافي أصل الإخلاص، وإن كان يُفوّت تمام الأجر.

من المسائل التي يذكرها أهل العلم

- أن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في النيات، ولذلك ربما ينوي الإنسان العمل ويكتب له أجره ولم يعمله، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «**إذا مرض العبد أو سافر، كُتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**» كما في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه، وفي الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: 100]، وهو لم يصل، ومع ذلك كُتب له أجر ذلك.
- أن المباحات إذا نوى بها الإنسان الثواب عند الله -جلَّ وعلَا- فإنها تدخل في ما يثاب عليه، ولذلك يقول **ابن القيم** -رحمه الله تعالى: إن خواص المقربين، من جعل المباحات له طاعاتٍ وقرباتٍ، فليس عنده مباحٌ يستوي طرفاه، بل هي أعمالٌ راجحةٌ، يعني من قصد مثلًا النوم الاستعانة على قيام الليل، فإنه يثاب على ذلك، ومن نوى مثلًا في عمل الدنيا أن يكفي أهله من الدخول في الحرام، أو بعض الأمور المحرمة، أو نحو ذلك، فهو مأجورٌ على هذا، ومن نوى بإنفاقه على أهله ما عند الله -سبحانه وتعالى-، فإنه مثابٌ على ذلك، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة، ولذلك ينبغي للإنسان أن يكون مستحضرًا لهذا المعنى، ومن فتح الله عليه هذا الباب، فإنه لا يكاد يكون إلا في عمل طاعةٍ، في ليله ونهاره، إن كان في صلاةٍ فهو في طاعةٍ، وإن كان في صيامٍ فهو في طاعةٍ، وإن كان في قراءة قرآنٍ فهو طاعةٌ، وإن كان في نومٍ فهو في طاعةٍ، وإن كان في سمرٍ مع أهله، يريد أن يبسطهم ونحو ذلك، فهو في طاعةٍ، فأجل ذلك ينبغي للإنسان أن يكون مستحضرًا لهذه النية.
- وإذا تأمل الإنسان أنه إذا كان في طاعةٍ، فمعنى ذلك أن خروجه له أجرٌ، وأن تعبه فيه أجرٌ، وأن ما يلحقه من عرقٍ فهو في أجرٍ، وما يكون عليه من نصبٍ فهو في أجرٍ ، وهكذا، فتأمل كم لله -جلَّ وعلَا- عليك من نعمةٍ، حينما تستحضر هذه النية، وحينما يصلح لك القصد، وحينما تتوجه إلى الله -جلَّ وعلَا- في مثل تلك الأعمال.
- مثل ما قلنا في المباحات، أيضًا في التروك، الأشياء التي تُترك، لا تدخل في الأعمال، مثل مثلًا ترك النجاسات، مخالطة النجاسات، وغش الناس، وظلم الناس، هذه ليست داخلةً في الأعمال، فلا تدخل في النيات، لكن من كانت له نيةٌ في ترك هذه الأمور، فإنه يثاب على ذلك، وإنه يكون له به أجرٌ عند الله -سبحانه وتعالى-؛ لأنه تركها ابتغاء مرضات الله -سبحانه وتعالى.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



الحديث الثاني.

{الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد..

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين والمشاهدين وجميع المسلمين.

قال الإمام النووي رحمه الله: الحديث الثاني:

عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَيْضًا قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ. حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم. فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إنْ اسْتَطَعْت إلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْت. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْت. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ. قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ. قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ. ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْت مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟. قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.}



كيف روى ابن عمر رضي الله عنه هذا الحديث عن عمر رضي الله عنه؟.

- يذكر أن يحيى بن يعمر وحميد الحميري لما كانا بالبصرة، ووقع فيها ما وقع في أول فتنةٍ، وأول بدعةٍ حصلت، وهي بدعة القدر، وتكلم معبد الجهني، فانطلقا حاجّيْن يطلبان الحج، ويطلبان العلم والسؤال عن تلكم الحال التي عم بها البلاء وظهرت بها الفتنة، فأول ورودهما المدينة لقيا ابن عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه، فكان

منهما أن ذكرا له ما نزل بهما من أحاديث القدر، وما جرى فيها، وكلام معبد، والفتنة التي حصلت بذلك، فقال: أخبروه أنه بريءٌ منه، وذكر ما جرى له رضي الله تعالى عنه وأرضاه، ثم أورد هذا الحديث.

- هذا الحديث بالمناسبة، هو أول حديثٍ أورده مسلمٌ في صحيحه، كما أن حديث عمر هو أول حديث أورده البخاري في صحيحه، فكان رحمه الله تعالى أن أورد هذين الحديثين اللذين هما من أعظم الأحاديث، بما استهلهما هذان الإمامان، الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما، وهما حديث عمر في النية، وحديث ما جرى من تعليم الدين، وما فيه من الإسلام والإيمان والإحسان.
- ومما يدل على ذلك أن أهل العلم قالوا في هذا الحديث إنه: أم السنة، كما أنه يقال للفاتحة أم القرآن، ولذلك جاء عند مالك أنه قال: ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها، لعظم ما اشتملت عليه، ولأنه كما قال أهل العلم إنها اشتملت على معاني القرآن كله، فكذلك هذا الحديث، يكاد يجمع معاني السنة كلها.
وذلك أنه اشتمل على أمور الإسلام، والأحكام الظاهرة، وأمور الإيمان، والأمور الباطنة، وتعلق بالإحسان، وأتى فيه أخبار الساعة واليوم الآخر، وجاء فيه أيضًا ما يتعلق بالآداب والأخلاق، فكان جماعًا لأحاديثَ كثيرةٍ، ولمعانٍ جليلةٍ، وأيضًا ذكر بعض أهل العلم أنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.
- هذا الحديث وسؤالٌ بين جبريل عليه السلام ورسولنا صلوات ربي وسلامه عليه.
ففيه إشارةٌ إلى ماذا؟ إلى أن علوم الشريعة من أعظم ما ينبعث لها المرء، وأعظم ما يتصدى لها الإنسان، وأن من تصدى لها فقد تصدى لخيرٍ كثيرٍ، وارتفعت منزلته عند الله جلَّ وعلَا، وقد تقدم الحديث أو الإشارة إلى حديث: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».
- ولأجل ذلك لم ينبعث جبريل عليه السلام للكلام في بعض أمور المعاملات، أو الدنيا، أو ما يقوم به قوام الناس في معاشهم أو اقتصادهم أو اجتماعاتهم أو غيرها، وإنما انبعث لما يتعلق بتحقيق توحيد الله جلَّ وعلَا، والإيمان به.

  وكان ذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو أزكى البشرية، وبين جبريل الذي هو أرفع الملائكة عند الله سبحانه وتعالى، وهذا فيه دلالةٌ إلى عظيم هذه المعاني التي اشتمل عليها هذا الحديث، حتى تصدى له أفضل الرسولين.
- ولأجل ذلك ينبغي لنا أن نعلم عظم قدر توحيد الله والإيمان به، وأن يكون هو أُس حياتنا، وأصل أيامنا، وقوام جميع أمورنا.
- ثم في هذا إشارةٌ لطيفةٌ ، وذلك أننا سمعنا في أول الحديث، أنه لما جاء جبريل عليه السلام في صورة ذلك الرجل الذي لا يعرف عند الصحابة، فليس من أهل المدينة، ولا يظهر عليه أثر السفر، فقال حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، يعني إلى ركبتي النبي صلى الله عليه وسلم، ووضع كفيه على فخذيه، بعضهم يقول على فخذي النبي صلى الله عليه وسلم، بعضهم يقول على فخذيه يعني جبريل عليه السلام.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنه مع عظم درجتهم، وعظيم منزلتهم، وفائق ما خصهم الله جلَّ وعلَا به من الخصائص، إلا أنه لما كان المنزلة منزلة علمٍ وتعلمٍ وتعليمٍ، فإنهم كانوا أعظم ما يكون عليه من الهيئة، وأتم ما يكون فيه من السمت، والهدوء والسكينة والطمأنينة والوقار، الذي فيه تعظيمٌ للعلم، وتعظيم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيم لما فيه من توحيد الله والإيمان به.

- ولذلك حفظنا قول الله جلَّ وعلَا: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: 5]، وهو القرآن، لا يحمله إلا ذوو القلوب القويمة السليمة التي تقدره حق قدره، وتنزله حق منزلته، لا تلعب به، ولا تسخر، ولا تتلقاه كما تتلقى أحاديثها أو أمور دنياها، أو شيئًا مما تسلي به أوقاتها وتضيع به أيامها وحياتها.
- فهذا مما ينبغي لنا أن نعلمه، وذلك أن كثيرًا من طلبة العلم أو أن بعض طلبة العلم ربما إذا اجتمع له شيءٌ، أو وُسم ببعض الأوصاف سواءً الأوصاف الأكاديمية، أو العلمية، أو الحفظ، أو شيءٌ من البروز في العلوم الشرعية، رأى أنه كبيرٌ على العلم، فلذلك إذا رأى أناسًا يتلقون العلم، فربما لا يلقي لهم بالًا، أو أنه إذا جلس إليهم أيضًا ربما لا يكون على هيئة وسمت أهل العلم، ومع ذلك تأمل ما جاء في هذا الحديث، رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل اللذيْن لهما من المنزلة ما لهما، ومع ذلك كان تعلمهما وتعليمهما ومحاورتهما وسؤال بعضهما لبعضٍ والإجابة على ذلك كانت على أتم هيئةٍ وأحسن حالٍ.
- فهذا مما ينبغي لنا أن نستحضره، وأن يكون الإنسان معظمًا للعلم، عارفًا لقدره، عارفًا لمنزلته، ولأجل ذلك فإنا نقول: **من حصل علوم الشريعة، فإنه قد حصل كل شيءٍ ولو فاتته الدنيا برمتها، ومن فات عليه علوم الشريعة فقد فات عليه كل شيءٍ، مهما اجتمع له من الدنيا ومتعها.**
- أعلى وأعظم ما في الشريعة هو العلم بتوحيد الله، ولذلك كان هو به الإسلام وبه الإيمان، والإحسان، ولا يتأتى للإنسان الإسلام إلا به ، ولأجل ذلك تصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل، وهو الذي أيضًا حفلت به آيات كتاب الله جلَّ وعلَا، من ابتدائه إلى نهايته، وكان أعظم ما في كتاب الله سورة الإخلاص مع قصرها، فهي تعدل ثلث القرآن، لما اشتملت عليه من توحيد الله جلَّ وعلَا.
- ولذلك يقول أهل العلم وممن صدر بذلك كلامه ابن أبي العز الجنفي في شرحه للطحاوية قال: فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وليس شيءٌ أشرف من العلم بالله، والعلم بأسمائه، والعلم بصفاته.
- ولأجل ذلك ينبغي لنا أن يكون عندنا من الاستعداد لهذه العلوم، وإقامتها، والقيام لها، ما كان عليه سلفنا وما جاء فيه حديثنا، من فعل رسولنا صلوات ربي وسلامه عليه، وفعل جبريل معه، حين كان يدارسه ويسأله ويطلب إخباره عن الإسلام والإيمان والإحسان .
- لما قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، وفي هذا إشارةٌ إلى أن نداء الشخص باسمه لا بأس في ذلك، حتى ولو كان رفيع الشأن، فإن بعض الناس إذا خُلِّي من الألقاب، أو العبارات التي فيها استهلالٌ بالمدح والثناء، فإنه يجد في ذلك غضاضةً، وربما لا يلقي للسائل بابًا أو مجالًا، وهذا مما لا ينبغي، ولذلك جبريل مع ما خصه الله جلَّ وعلَا من كمال العمل والفعل، وما كان لنبينا صلى الله عليه وسلم من المنزلة، قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام.

؟ ما معنى وما حقيقة الإسلام؟

- التعبير هنا بالإسلام يتوجه إلى الأعمال الظاهرة كما جاء في بيان النبي صلى الله عليه وسلم، لما قال: أن تشهد، لكن أصل الإسلام هو في اللغة هو الخضوع والانقياد، إذا أسلم الإنسان وجهه، يعني انقاد وخضع.
- **وفي الاصطلاح أو في الشرع:** فإنه الاستسلام لله بالتوحيد، يسلم الإنسان بالتوحيد لله، يخلص قلبه فلا يتعلق إلا بالله، ولا يتوجه إلا إلى الله، ولا يطلب إلا الله جلَّ وعلَا، وليس له خالقٌ ولا رازقٌ ولا معطٍ ولا مانعٌ إلا الله سبحانه وتعالى.

فهو الاستسلام له بالتوحيد، والانقياد به بالطاعة، فلابد أن يكون منقادًا لله جلَّ وعلَا، مطيعًا له، مستقيمًا على أمره، مستجيبًا لرسوله منتهيًا عن نواهيه، مبتعدًا عن زواجره، وقالوا في تمام هذا التعريف: والبراءة من الشرك وأهله.

ما علاقة الشرك وأهله بالإسلام؟.

- لأنه كما يقول أهل العلم: وبضدها تتبين الأشياء، فلا يتحقق للإنسان إسلامٌ واستسلامٌ وتوحيدٌ، إلا بالبعد عن الإشراك والشرك بالله جلَّ وعلَا.
- والشيء الصحيح واحدٌ، فلذلك كانت الإشارة إليه قصيرةٌ، وما يضاده كثيرٌ فاحتيج إلى أشياءٍ واسعةٍ للتنبيه عليه، والتحذير منه، فلأجل ذلك كان هذا كذلك، البراءة من الشرك وأهله، لأن بعض الناس يظن أن البراءة من أهل الشرك، يعني أنه المقاطعة التامة بأي حالٍ من الأحوال، وليس هذا مرادًا في الشرع، وإنما المراد بالبراءة من أهل الشرك يعني في شركهم، أو في إشراكهم، أما إذا اقتضت الأمور المقاربة إليهم بوجهٍ من الوجوه الصحيحة فإن الشرع لا يمانع من ذلك.
- وجاء في الشرع من اعتبار الحق له والقيام به ما تعرفونه، فإن أسماء لما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أمي تأتي وهي راغبةٌ، يعني في البر وهي مشركةٌ، أفأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك» ، والله جلَّ وعلَا يقول: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ [لقمان: 15]، يعني بالمعروف والقيام بحقهم، ولأجل ذلك لم يكن الشرع ليمنع من الإحسان إليهم، والقيام بحقوقهم، ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [الممتحنة: 8]، والنبي صلى الله عليه وسلم جاور اليهود، وأجاب دعوتهم، وبايعهم، وأحسن إليهم، وعاد مريضهم كما في قصة ذلك الصبي، إلى غير ذلك من المعاملات.

أما ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قوله: أن تشهد فإنه بين حقيقة الإسلام بأركانه.

ما الإيمان؟ .

- قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لابد أن نعلم شيئًا، وهو أن الدين هو شاملٌ للإسلام والإيمان والإحسان، ولذلك قال: «جاءكم يعلمكم دينكم».

الإسلام يطلق بالمعنى العام فيشمل الإيمان تبعًا، ويدخل فيه أيضًا الإحسان، يعني أن يطلق الإسلام في بعض الأحوال مرادفًا للفظ الدين.

كما أن الإيمان أيضًا يطلق بهذا المعنى، يعني بالمعنى العام فيدخل فيه الإسلام، هذا من جهة العموم.

ولذلك تقرر عند أهل العلم أن هذا اللفظ في الشرع له إطلاقان:

١) إطلاقٌ باعتبار العموم،

٢) وإطلاقٌ باعتبار الخصوص،

فإذا جئنا إلى الخصوص، فإنه في الشرع في الأصل أن الإسلام للأمور الظاهرة، والإيمان يتعلق بالأمور الباطنة ، وهذا يظهر من خلال أمرين:

١) ما جاء في أن الإسلام علانيةً، والإيمان في القلب، أو في السر، كما جاء في بعض الآثار،

٢) من خلال ما ذكره المؤلف -رحمه الله تعالى- في إيراده لهذا الحديث العظيم، لما قال: سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- «ما الإسلام؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة،

وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا» ، هذه الأشياء الخمسة ظاهرةً أو باطنةً؟ هي ظاهرةٌ، ولها تعلقٌ بالباطن.

- الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرههذه تعلقاتها بالباطن، فمن جهة المعنى الخاص، فالإيمان يتعلق بالباطن، والإسلام بالظاهر.

هل بينهما تداخلٌ؟

- نقول: ولا شك، مما ينبغي أن يُعلم أنه لا يتصور الإسلام أنه ظاهرٌ فحسب، بل لا يكون الإسلام إسلامًا إلا بهذه الأمور الظاهرة، وهو مستندٌ إلى الباطن، وإلا كان من يقول في الظاهر بدون باطنٍ كالمنافقأليس كذلك؟

من أين يمكن أن نقول إن له تعلقًا بالباطن؟

- من حيث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله»

ما حقيقة هذه الشهادة؟

- الشهادة ضد الغيب ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: 73]، فالغيب هو ما استقر في القلب، والشاهد يشهد بما قد غاب في قلبه، فإذن أصل هذه الشهادة شيءٌ استقر في القلب، ولأنه لا يتصور أن يشهد الإنسان شهادة إلا بما يستيقنه ويتيقنه، ولا يكون يقينًا إلا أن يكون مستقرًا في قلبه، فهذا كيف أن الإسلام متعلقه أو له أصلٌ في الباطن لا ينفك عنه، وهذا مأخوذٌ من الشهادة، وكل هذه الأعمال لا تصح إلا بنيةٍ، ومتعلَّق النية هو القلب، هذا من جهةٍ،
- من جهةٍ ثانيةٍ فإن الإيمان الذي جاء في هذا الحديث من أنه متعلقٌ بالاعتقاد والباطن ، أيضًا جاء في بعض الأحاديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل ما الإيمان؟ أو في حديث مسلم: «آمركم بالإيمان بالله، قال وهو أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة» ، ففسر الإيمان هناك بالإسلام، مما يدل أن الإيمان تعلقه بالأعمال الظاهرة حاصلٌ لا ينفك عنه في الشرع.
- ثم أيضًا جاء في حديث شعب الإيمان لما قال : «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبةً، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان» ، إماطة الأذى من الطريق شيءٌ باطنٌ أو ظاهرٌ؟ ظاهرٌ، فعُلم بذلك أن الإيمان أصله اعتقادٌ، وله تعلقٌ بالظاهر، فلأجل هذا لا يُتصور أن يكون الإنسان قائمًا بالأركان الظاهرة، التي جاءت في الإسلام، بدون أن يكون له اعتقادٌ صحيحٌ، وإيمانٌ باطنٌ، كما أنه لا يُتصور أن يكون للإنسان إيمانٌ بدون أن يكون له أثرٌ على عمله، واستقامةٌ على أفعاله.
- ولذلك يقول أهل العلم: أن اسم الإيمان والإسلام هما من الأسماء التي إذا افترقا اجتمعا ، يعني إذا ذكر أحدهما في موضعٍ، ولم يذكر الآخر، فإنه يشمل الاثنين، يشمل الظاهر والباطن، وإذا اجتمعا اختص كل منهما بمعنى، فيكون الإسلام للظاهر، والإيمان للأمور الباطنة.

الإيمان ما حقيقته؟

- الإيمان في الأصل هو التصديق والإذعان، ولذلك قال: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: 17]، يعني بمصدقٍ، لكنه تصديقٌ فيه شيءٌ من القبول والإذعان، وليس مطلق التصديق كما نص على ذلك جماعة من أهل العلم.

- **أما في المعنى الشرعي:** اعتقاد الجنان، وقول اللسان، وعمل الجوارح ، ولأجل ذلك ترى أنه أيضًا في تعريفه قولٌ، والقول هو إلى الأعمال باعتبار العموم ألصق، وكذلك عمل الجوارح.

مسألةٌ مهمةٌ.

- وهي أن أهل السنة والجماعة لا يتحقق للعبد إيمانٌ حتى يجمع بين هذه الأمور، بين اعتقادٍ حاصلٍ في القلب، وقولٍ حاصلٍ باللسان، وعملٍ بالجوارح، فإذا اختل واحدٌ منها، فإنه يختل إيمانه. فلأجل هذا ما نقول بقول المرجئة، أنه من اعتقد وقال كفاه ذلك، وكان مؤمنًا كامل الإيمان، وتقدم أو شُمل أقاويل السلف في ذلك، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال في حديث عتمان الطويل، في القصة المشهورة: **«فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»** ، وما جاء من حديث: **«أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»** ، ماذا قال السلف في هذا؟ يقول لما سئل الحسن عن أن لا إله إلا الله تدخل الجنة وتنجي من النار، قال: "أما إن لها حقوقًا وواجباتٍ، من أدى حقها دخل الجنة، ونجا من النار"، والزهري لما روى الحديث **«فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»** ، قال -تأمل قوله: ولقد شُرِّعت بعد ذلك شرائع، وفُرضت بعد ذلك فرائض، فلا يغتر بذلك مغترٌّ، يعني أن يقول لا إله إلا الله، ويظن أنه يحرم على النار، بل لابد من العمل، وهذا نصٌّ من السلف على ذلك، وقول وهب بن منبه مشهور في هذا، لما قال: لا إله إلا الله مفتاح الجنة، ولكل مفتاحٍ أسنانٌ، ويقصد بالأسنان العمل، والقيام به، فأهل السنة إذن يدخلون العمل في مسمى الإيمان، وعلى ذلك تتابع السلف الصالح، وهو قول الصحابة فمن بعدهم، إن لم يخالف في ذلك إلا أهل الإرجاء، فضلوا بذلك ضلالًا، وتركوا ما جاء في دلالات النصوص والأحاديث، وما تتابع عليه أهل العلم، وفي هذا أيضًا مخالفةٌ للخوارج، فإن الخوارج الذين يجعلون العمل سببًا للتكفير، فيكفرون من أوبق موبقةً أو فعل كبيرةً، فمع كوننا جعلنا العمل من الإيمان، إلا أنه جنسه من الإيمان، لا أن الموحد يكفر بأي عملٍ من الأعمال، أو بأي كبيرةٍ من الكبائر، بل المقصود هو الجنس، لأن من ترك جنس العمل فلم يعمل بشيءٍ من ذلك، فهذا هو الذي أخل بهذا الركن، أما من كان يعمل، فإنه لا يحكم عليه بأنه كافرٌ خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين ضلوا بذلك ضلالًا مبينًا، وإنما أهل السنة والجماعة يكفرون بالعمل إذا دل الدليل على أنَّ تركه كفرٌ، لكن فرقٌ كبيرٌ بين مذهب أهل السنة والجماعة وبين الخوارج والمعتزلة، فإن أولئك يجعلون الكبيرة مخرجةً من الملة، أو منزلةً بين منزلتين، ومآلها إلى الكفر لأنه يجعلونه في النار خالدًا مخلدًا، أما أهل السنة والجماعة فإن من أتى بجنس العمل وأتى ببعض الأعمال لكنه أخل ببعضها، لا يمكن أن نقول إنه أخل بإيمانه، لكن من لم يعمل قط شيئًا من الخير، فإنه لم يكمل الإيمان ولم يدخل فيه ولم يحقق هذا الركن.
- قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال: **«ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر»**.

قال: أن تؤمن بالله

- كل واحدٍ من هذه الأركان، الحديث فيه طويلٌ، لكن حسب الإنسان أن يعلم أن أعظم ما يتعلمه هو هذه المسائل، والإيمان بالله إذا قيل الإيمان بالله، فإنه يشمل أعظم حق الله -جلَّ وعلَا- وهو توحيده، توحيد الربوبية، بأن الله -جلَّ وعلَا- هو الخالق الرازق المدبر، فإنا نقول الحمد لله رب العالمين، فإن الله هو الذي ربانا بنعمه، وأوجدنا بقدرته، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54] فالإيمان بتوحيد الله

بأفعاله، وأن الخلق خلق الله، والقدرة قدرة الله، والعلم علم الله، علمٌ تامٌ، لا تغيب عليه غائبةٌ، ولا تذهب عليه فائتةٌ سبحانه من ربٍّ عظيمٍ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

- والثاني توحيد الألوهية، وهو أن يتوجه العباد، أو يفردوا الله بالعبادة، فلا يتوجهوا إلى أحدٍ سواه، فهو لما كان الخالق، فهو المستحق للعبادة، ولما كان هو القادر، فهو المستحق للإخلاص، ولما كان غيره ليس بخالقٍ، ولا برازقٍ، وهو ضعيفٌ مخلوقٌ، فأنى يتوجه إليه ويُدعى من دون الله -سبحانه وتعالى-، ولأجل ذلك كان من أعظم ما جاء في نقض آلهة المشركين أنهم لا يخلقون شيئًا، وهم يُخلقون، كما قال الله -جلَّ وعلَا-، فكان ذلك فيه إبانةٌ عن ضعف آلهتهم، وأنه لا يتوجه إليها، ولم يستطيعوا الجواب، وحاروا في الكلام على ذلك، وإلا لو قدروا لفعلوا، وهم أعظم محادةً لله، ولرسول الله -صلى الله عليه وسلم.
- والإيمان بأسماء الله -جلَّ وعلَا- وصفاته، وهذا من أعظم ما يقربه الإيمان، ويُعظَّم به الله -جلَّ وعلَا-، ويتوجه الإنسان إلى خالقه، إذا علم أن الله عليمٌ، خالقٌ، رازقٌ، أن الله مدبرٌ، وله الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وهو اللطيف، الخبير، الرحيم، الرحمن، فكل ذلك مما يزيد العبد، هذه أسماء الله، مشتملةٌ على صفاته، وهذه الصفات تليق بالله -جلَّ وعلَا-، لا يقاس بخلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] نثبتها كما أثبتها الله -جلَّ وعلَا- في كتابه، وجاءت على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم-، عارفين بمعناها، ولا نقول من أن علم الله أو أن رحمة الله كرحمة المخلوقين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، بدون تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ، ولا تمثيلٍ.

أن تؤمن بالله وملائكته.

- الإيمان بملائكة الله هذا جاءت به دلالة الكتاب، وجاءت به دلالة السنة ، فكان الإيمان به من الإيمان بالكتاب والسنة، فلا يسع المسلم إلا الإيمان به، والإيمان به على سبيل الإجمال من حيث ما جاء في كتاب الله وفي سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وما وصل إليك من تفاصيل، كما جاء مثلًا «اللهم رب جبريل وميكال وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض» ، هذه أسماء ملائكة من ملائكة الله، فمن علم ذلك وجب عليه أن يؤمن بذلك، وأن الملائكة خُلقت من نورٍ، وأن من أوصافهم، أنهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، إلى غير ذلك مما جاء في كتاب الله، فكل ما جاء من أوصافٍ، وكل ما دلت عليه النصوص من حالهم، فإن أهل الإيمان يؤمنون بالله، ويؤمنون بملائكة الله، لا يستنكفون، ولا يحرفون، ولا يعترضون؛ لأنهم لم يستوعبوا ذلك، أو خرج عن نفوسهم، أو أنها خيالاتٌ، أو أنها النفوس الطيبة، أو نحو ذلك كما يقول أهل الضلال والمعتزلة وغيرهم من التحريف في ذلك.

أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه.

- الإيمان بالكتب، كتب الله -جلَّ وعلَا- جاء بيانها، أعظمها كتاب الله وهو القرآن، وأيضًا التوراة، والإنجيل، وصحف إبراهيم، وصحف موسى، فكل ذلك مما يؤمن العبد به، على سبيل الإجمال،
- ويؤمن من أن هذا الكتاب مهيمنٌ عليها، ناسخٌ لها، وأنه مشتملٌ على ما فيها من الخيرات والمصالح ، وأن الله -جلَّ وعلَا- تكفل بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، وفي هذا يعلم العباد أيضًا عظيم فضل الله على الخلق، من أنه أنزل لهم الكتب، وبعث لهم الرسل.

أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله،

- والإيمان برسل الله -جلَّ وعلَا- الذين أرسلهم إلى الخلق، يدعونهم ويهدونهم، ويبينون لهم الحق، ويبصرونهم بالهدى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]،
- وأن جميع الأنبياء والرسل دينهم واحدٌ، وشرائعهم شتى، ولذلك قال الله -جلَّ وعلَا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: 105]، مع أن نوحًا أول المرسلين، فيقول أهل العلم: فكأنه من كذب نوحًا، فكأنما كذب الرسل كلهم؛ لأن التكذيب لواحدٍ تكذيبٌ للجميع، لوحدة ما جاءوا به من توحيد الله، وإن اختلفت شرائعهم ورسالاتهم، من خصوصٍ أو عمومٍ، وجاءت رسالة نبينا -صلى الله عليه وسلم- إلى الناس كافةً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: 28]، فهذا من الإيمان برسل الله، وثم الأنبياء والرسل، نؤمن بهم أيضًا على سبيل الإجمال، فهذا من أعظم ما يدين المرء به، ويعتقده، ويربط على ذلك قلبه، ويلقى الله -جلَّ وعلَا- به.

أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر،

- الإيمان باليوم الآخر من أعظم منازل الإيمان وأركانه، وهو مشتملٌ على كل ما يتعلق بما بعد الموت، من أحوال القبر والبرزخ، وأحوال البعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وما فيهما مما ذكره الله -جلَّ وعلَا- في كتابه، أو جاء عن رسوله -صلوات ربه وسلامه عليه-، فما كان يكون من قيام الناس، ومن طول قيامهم، وكيفية حشرهم، وما يكون ذلك من تطاير الصحف، وما يكون من حال أهل اليمين، وأهل الشمال، وما يكون فيه من وزن الأعمال، وما يكون فيه من الحوض، والورود عليه، وما يكون فيه من الصراط، وتخطف أهل النار، وما يجوز به أهل الإيمان، وطريقة ذلك، فمنهم المسرع، ومنهم دونه، إلى غير ذلك، وأحوالهم بعد أن يجوزوا الصراط، والوقوف عند القنطرة، وما يكون من تهذيب قلوبهم، وإذهاب ما في نفوسهم، حتى يدخلوا جنة الله -جلَّ وعلَا-، ويفوزوا برضوانه، ويبقى المجرمون في عذابه ونكاله، نسأل الله السلامة والعافية. وما يحصل أيضًا لأهل الإيمان من الكمال بعد ذلك، بلذة الرؤية إلى وجهه الكريم، كما قال الله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]، فالحسنى هي الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم.
- فكل ذلك من الإيمان باليوم الآخر، وهو الذي جاء في كتاب الله، وفي سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فكان أهل الإيمان يؤمنون بذلك إجمالًا وتفصيلًا لمن زاد علمه بتفاصيلها.

والإيمان بالقدر خيره وشره،

- الإيمان بالقدر هو الإيمان بالمراتب الأربعة،
  1) وهو علم الله -جلَّ وعلَا-،
  2) وكتابته لكل ما يكون، بأن الله كتب كل ما يكون إلى يوم القيامة،
  3) والمشيئة
  4) والخلق،
- فالعباد وما عملوا، خلقهم الله، وخلق أفعالهم، هذه المنازل الأربعة، التي بها يكون درجات الإيمان بالقدر.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

تابع الحديث الثانى.

مسائل الإيمان بالقدر خيره وشره.

ذكرنا أن الإيمان بالقدر أربع مراتب، وأنه لا يصح للعبد إيمانٌ بالقدر حتى يكون مستحضرًا لتلك المراتب الأربعة.

- **الأول:** العلم ، أن الله علم ما العباد عاملون إلى أبد الآباد، علم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، علمه كاملٌ سبحانه وتعالى.
- **الثاني:** كتابته، وأن الله كتب ذلك، «إن الله أول ما خلق القلم، فقال له اكتب، فكتب ما هو كائنٌ إلى قيام الساعة».
- **الثالث:** المشيئة وهو العلم بأن كل شيءٍ بمشيئة الله، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]، فكل ما في هذه الأكوان، لا يحصل إلا بمشيئة الله جلَّ وعلَا.
- **الرابع:** الخلق، يعني أن الله خلق أفعال العباد، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: 16].

إذا استيقن العبد بها حصل له الإيمان بالقدر، فلقائلٍ أن يقول: إنه تنبعث في النفس بعض إشكالاتٍ، وترد فيها بعض الاعتراضات، وربما تتجاوز النفس إلى أن يلفظ الإنسان بها، ويسأل عنها، خاصةً في محيط هذا الفضاء الذي كثر فيه المتقولة بالباطل، **فعندنا مسائل يجب التنبيه عليها.**

- **المسألة الأولى:** أن يعلم العباد أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا، لأن كثيرًا يقول كيف الله كتب ما العباد عاملون ثم هو يحاسبهم ويجازيهم، أليس كذلك؟ فنقول لا يظلم ربنا أحدًا، فمهما وردت عليك من هذه الوساوس والواردات فلابد أن تحجها بذلك ولا يظلم ربك أحدًا.

وأننا مربوبون لله، مخلوقون لله، فأي شيءٍ عمله الله جلَّ وعلَا بنا فليس بظالمٍ لنا، لكن الله سبحانه وتعالى من عظيم لطفه، وعظيم رحمته، أنه كتب على نفسه الرحمة، وأنه لا يظلم أحدًا، **«إني حرمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا»** كما في الحديث القدسي.

- **المسألة الثانية:** أنه ينبغي للإنسان أن يعلم أن مثل هذه الإيرادات ليست بصحيحةٍ، لأنه من تكلم بها سواءً من الجبرية والجهمية فإنما مبدأهم، أو القدرية في مقابل ذلك، فبعضهم يقولون العبد مجبرٌ لأن الله يخلق فعله، وبعضهم يقول أن الله لا يعلمه، ليصلوا إلى أن الله لم يظلم، ونحن نقول: الله عالمٌ والله لا يظلم والله جلَّ وعلَا قد جعل للعباد مشيئةً.

وذلك أن العبد يعرف أن له مشيئةً، فيمكن له الآن أن يقوم إلى صلاةٍ، ويمكن أن يقوم إلى معصيةٍ، ولا يحول بينه وبين ذاك إلا إرادته، أليس كذلك؟، إذا أردتم زيادة إيضاح لذلك، **فلا وضوحه بأسهل ما يكون من المثال:**

- **المثال الأول:** الوالد الذي له أولادٌ، كبر هؤلاء الأولاد، فأعطى كل واحدٍ سيارةً، وجعل له بعض المال، وقال: هذه سيارتك وهذا مالك، احرص على الذهاب إلى ما ينفعك، إلى جامعتك، إلى ما فيه صلاح دينك ودنياك، وإياك أن تذهب إلى أماكن الخنا والفسوق والفجور،ثم قال: وإن ذهبتَ أعذبك أو أحاسبك أو أعاقبك.

وربما يكون الوالد يعرف أن هذا الولد فيه مع ضعف خلق الإنسان، أن فيه ميلًا إلى بعض الأشياء، فإذا بعد ذلك حاسب الأولاد على ما فعلوا من خيرٍ أو شرٍّ، هل يكون ظالمًا لهم، هل يكون هو الذي حملهم على ذلك حين أعطاهم السيارة أو أعطاهم المال، لا، لأن الله جلَّ وعلَا لما أعطانا وخلقنا وقدرنا بيَّن لنا الصواب من الخطأ، وأشار إلينا بذلك، وجعل لنا من الكتب والرسل الذين يهدوننا إلى الحق.

فلا يمكن أن نقول من أن الوالد ظالمٌ، والله جلَّ وعلَا أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

- **المثال الثاني:** الأستاذ الذي يدرس طلابًا، يجعل لهم في نهاية الدراسة اختبارًا، في الغالب أن الأستاذ يعرف الطالب المجد الذي ينجح وربما لو كتب ذلك لعرف أن هذا ينجح وأن هذا لا ينجح، أليس كذلك؟، لكنه يقيم ذلك حجةً عليهم، حتى يعرفوا أن هذا مستحقٌّ للنجاح، ولله المثل الأعلى، فكذلك الله جلَّ وعلَا عالمٌ بعباده، وإنما جعل هذه الدنيا اختبارًا لهم، ليظهر أثر علمه في أن هذا مستقيمٌ، وهذا غير مستقيمٍ.

فهذا من الأمثلة اليسيرة التي تُبين بطلان ما نحا إليه الجبرية من أن العبد مجبرٌ، أو ما ذهب إليه القدرية من اتهام الله من أنه لا يعلم أو أنه لا يخلق فعل العبد ولا يقدره عليه سبحانه وتعالى.

- فنحن مؤمنون بهذه المراتب، وأنها جاءت في كتاب الله، وأن العبد له اختيارًا، ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [التكوير: 28، 29]، فكل ذلك بمشيئة الله، والله جلَّ وعلَا جعل للعبد مشيئةً واختيارًا، فليس فيه إجبارٌ ولا ظلمٌ تعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

- وأظن أن هذا فيه إجابةٌ لسؤال بعض الإخوة الذين ربما تنقدح عليهم هذه الأسئلة، وفي ختام الكلام على القدر، لأننا لا نريد التوسع فيه، يقول: مما ورد في الآثار أن القدر سر الله في الأرض فلا تبحث فيه، فلا ينبغي زيادة البحث والتكلف والتعمق فيه، لأن ذلك يفضي إلى شيءٍ من مداخل الشيطان، بالشكوك والريب، والحيرة وتلقُّف ما قد يضل الإنسان ويفسد عليه دينه.

- هذا ما يتعلق بالإيمان بالقدر، وهي من مسائل الإيمان، وهي أول بدعةٍ حصلت في صدر الإسلام، فينبغي الانتباه لها، والحذر منها، والحذر ممن يسوقون لها، أو يريدون بعض ما يوردونه من الشبه التي ينحرف بها ضعيف الإيمان، وقليل الثقة بالله، والتوكل عليه، وحسن النظر فيما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من الدلائل والبراهين التي تهتدي إلى الحق وتدل عليه.



ثم قال بعد ذلك في الحديث: قال صدقت، قال: فأخبرني عن الإسلام.

- وهنا مسألةٌ لطيفةٌ وهم يقولون: كيف يسأله ثم يصدقه، الغالب أن السائل جاهلٌ، فالجاهل لا يمكن أن يعرف أن ما قاله صِدقٌ أو لا، فهذا فيه إشارةٌ وإلماحةٌ إلى أن جبريل إنما أتى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: «يعلمكم أمور دينكم».
- وفيه أيضًا إشارةٌ إلى معنى لطيفٍ وهو أنه ينبغي للسائل حال سؤاله أن يستشرف الجواب، ويتطلع إليه، ويفرح به، ويكون منه من إرداف جوابٍ مناسبٍ للحال، فجبريل لما كان عالمًا قال: صدقت، وإرادة أيضًا إلى التدقيق والتحقيق أن ما قاله هو ما جاء به الله، وما أرسل به رسوله، وما أنزل به كتابه، وما بعث به نبيه صلوات ربي وسلامه عليه.

ثم قال: فأخبرني عن الإحسان.

- الإحسان من المنازل العظيمة التي جاء ذكرها في هذا الحديث، ولا يرقى إليها إلا من وفقه الله تعالى، فإن الإحسان المقصود هنا، ليس هو ما يحصل به القدر المجزئ في العمل الذي يصح به العمل، فإن ذلك مشترطٌ أصلًا، لكنه هنا مقصودٌ درجةٍ عاليةٍ ينتظم فيها من أراد الله له الخير، ومن أراد لنفسه الجد في العبادة، والإقبال على الله جلَّ وعلَا، وحسن التعبد له، والتنسك بين يديه.
- ولذلك لما قال أخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك».
المقصود هنا بالرؤية ليس هو رؤية ذات الله جلَّ وعلَا، فذلك مما انحرف فيه بعض الصوفية وغيرهم، وليس هذا هو المقصود، ولكن المقصود هنا بالرؤية، هو المشاهدة، يعني استشعار مراقبة الله لعبده، فهذه المنزلة الأولى من منزلة الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن من يستشعر أنه يراه الله جلَّ وعلَا، ويحيط به، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، هذه منزلة المراقبة، أن يستشعر أن الله يراه في كل أحواله، ومطلعٌ على سريرته، ومعه في خلوته وفي جلوته، وفي ليله وفي نهاره، فإنه لا يمكن أن يتجرأ على معصيةٍ، أو أن يبادر إلى سيئةٍ، ويخاف ويقصر عن ذلك، ولا يمكنه أن يتباطأ عن طاعةٍ، أو يُقصِّر في واجبٍ.
فهو دائم المراقبة لله جلَّ وعلَا، فيحمله ذلك على القيام بحق الله، والإسراع إلى أمر الله، هذه منزلة المراقبة.
- المنزلة الأخرى وهي منزلة: فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، وهو العلم أو شهود رؤية العبد لربه، وهو شهودٌ لاستحضار عظمته، واستحضار آلائه، واستحضار نعمه، واستحضار فضله، واستحضار عظيم انتقامه، وشديد عقابه، فإن العبد إذا استشعر ذلك فإنه أسرع وأنشط ما يكون إلى الطاعات والقربات، وصالح الأعمال، أليس كذلك؟!
- هل من يعبد الله وهو غافلٌ عن هذه المعاني، كمن يستشعر في كل أحواله ما يكون من علمه بآلاء الله، ورحمته بعباده، وأنه مع عباده المتقين، ومع المحسنين، ومع الصالحين، فإن هذا أرجى إلى أن يكون معه حال الرجاء والإقبال على الله، والفرح بنعمة الله، والثقة بالله، فالمراقبة تفضي بالعبد إلى الخوف، ثم تأتي هذه المنزلة وهي شهود المنزلة آلاء الله جلَّ وعلَا، وصفاته، واستحضارها، فتلك تزيد من رجائه، فيكون دائرًا بين الخوف والرجاء، فيكون أتم في العمل، وأحسن في القصد، وأقوَم في الإقبال على الله سبحانه وتعالى.

قال: فأخبرني عن الساعة.

- الساعة من المعلوم أنها مما غُيِّبت عن الخلق ، ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، بعض الناس يظن أن هذا إشارةٌ إلى أن جبريل يعلمها، وليس كذلك، بل كأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنا وأنت في عدم العلم بها سواءٌ، أو في الجهل بها سواءٌ. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ يعني فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: 66]، ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: 15]، جاء في بعضها: قال حتى نفسي، يعني الإشارة إلى أنه لا أحد يعلم الساعة كما في أول سورة طه.

ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها.

- من رحمة الله أنه لما خبأ الساعة وموعد حصولها، إلا أنه جعل لها علاماتٍ، وهذه العلامات منها صغرى ومنها وسطى، وكبرى، وبعضهم يقول الصغرى والكبرى، وهي علاماتٌ كثيرةٌ، دلت عليها دلالات السنن الصحيحة، لكن ذكر فيها ما ليس منها،ولذلك المؤلفون فيها والمتكلمون عنها ربما أتوا بما دلت عليه دلائل الكتاب والسنة، وربما زادوا في ذلك بعض ما تلقفوه من الإسرائيليات أو من الأخبار التي فيها شيءٌ من النظر.
- ومن أوسع ما كتب في هذا من المتأخرين الشيخ حمود التويجري في كتابه أشراط الساعة في ثلاثة مجلداتٍ.

لما قال عن أمارتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها»

- الربة يعني سيدتها، كيف تلد الأمة سيدتها؟، لأهل العلم في ذلك تفاسير،
- ✓ منهم من يقول إنه يصل بالناس من العقوق حتى أن البنت تعامل أمها كما تعامل السيدة أمتها من الجفاء وشدة الإعمال والاستخدام ونحو ذلك، وذلك ربما كان معنًى بعيدًا،
- ✓ لكن بعضهم يقول: أن تلد الأمة ربتها، يعني أن تكون البنت سيدةً لأمها، وذلك بأن السيد يطأ الأمة فتلد هذه البنت أو هذا الابن فهو إذا مات والده كان مالكًا لأمه، فلأجل ذلك تعتق عليه كما هو متقررٌ عند الفقهاء، فلأجل ذلك قالوا: أن تلد الأمة ربتها.
- ✓ وربما قيل في معناها: أن تلد الأمة ربتها، يعني أن البنت تشترى فتعتق ثم يجلب رقيقًا فتشتري البنت أمها من حيث لا تشعر، فتستخدمها ولا تشعر بها.

«وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»،

- يعني الرعاة الذين ربما نزل نصيبهم أو قل حظهم، ومع ذلك آل بهم الأمر إلى التكثر من الدنيا والتفاخر بها، وإذا دخل أولئك مع قلة ما كانوا عليه من الحال فإن ذلك مؤذن بفساد الزمان، وفساد الحال، وتنكُّس الأمور، وحصول أنواع من الشرور التي يكون بسببها بلاءٌ كثيرٌ.
- والمطاولة في البنيان والتكثر بها، لاشك أنه مؤذنٌ بخطرٍ، ولذلك جاء في الحديث الذي في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل شيءٍ يؤجر عليه ابن آدم إلا ما يضعه في هذا التراب» ، يعني في بناء البيوت، قال أهل العلم: والمقصود من ذلك ما كان من البناء الزائد عن الحاجة، لأن أغلب الناس يبنون ما لا يحتاجون إليه. وهذا ظاهرٌ في حال الناس اليوم من التوسع في البنيان، والتكاثر بها، والتطاول فيها.

قال: «ثم انطلق، فَلَبِث مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟. قَلَتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

- هنا نذكر أنه في أول الحديث استغربوا هذا الرجل، ومع ذلك لم يستعجلوا في السؤال عنه، وهذا ينبغي لطالب العلم أن يكون متأنيًا فإن العلم لا يأتي بالاستعجال.
- فالنبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم أن جبريل كان قد أتاهم ليعلمهم أمور دينهم،

وقولهم: الله ورسوله أعلم.

- يعني إسناد العلم إلى الله ظاهرٌ، لكن إسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أهل العلم: هذا مقيدٌ بحال حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون المسألة من المسائل الشرعية، وأما المسائل الغيبية فإنها أيضًا مما يختص الله جلَّ وعلَا بعملها، ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: 65].

الحديث الثالث.

{الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد..

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين والمشاهدين وجميع المسلمين.

قال النووي رحمه الله: الحديث الثالث:

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بني الإسلام على خمسٍ، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» رواه البخاري ومسلم.}

- يقول أهل العلم: إن المؤلف رحمه الله في إيراده لهذا الحديث أراد الإشارة إلى أهمية هذه الخصال الخمس، أو المباني الخمس، والتأكيد عليها، وعظيم ما يتعلق بالعلم بها بالنسبة للمسلم، فلأجل ذلك قال: «بني الإسلام على خمسٍ»، ولأجل ذلك أهل العلم علقوا على هذا الحديث تعليقاتٍ كثيرةً، فابن رجب -رحمه الله تعالى- يقول: والمقصود تمثيل الإسلام ببنيانٍ، وهذه الركائز الخمس بدعائمه، فهي كالدعائم له، والمقيمة له، والآتي بها كالمقيم لهذا البنيان والداعم له. والنووي -رحمه الله تعالى- الذي هو جامع هذه الأربعين في شرحه في مسلم، يقول: إنه أصلٌ عظيمٌ في معرفة الدين، وبيان ما يتعلق به، ولأهل العلم في ذلك كلامٌ كثيرٌ، ولأجل هذا جاء في بعض الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما سأله ذلك الرجل: دلني على عملٍ يدخلني الله به الجنة، وينجيني به من النار، ماذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم؟ قال هذه الركائز الخمس، قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج بيت الله الحرام»، والحديث في الصحيح.

وقوله: بني،

- يعني أنه من المباني والدعائم كما سمعنا في قول ابن رجب -رحمه الله تعالى-، وينبغي أن يُعلم في هذا ألا ينتقل الذهن بالكلية إلى أن البناء بناءٌ حسيٌّ، يعني وأن هذا كالأعمدة، ثم ينتقل الإنسان ويرتب عليها ترتيباتٍ أخرى، فإذا سقط العمود سقط البناء، فبناءً على ذلك يحصل أحيانًا بعض الخلل، لا، هذا هو تقريبٌ لأهمية هذه الأمور وعظمها، وإلا لو جئنا من جهة التفصيل، فإنه ليس بالضرورة أن كل هذه الخصال الخمس، أو هذه المباني الخمس أن بتفويتها تفويتٌ للدين، أو انتقالٌ منه، فمن لم يصم رمضان في قول عامة أهل العلم، أو أكثر

أهل العلم، لا يقولون من أنه يخرج الإسلام، وكذلك الزكاة، وكذلك الحج، فهذا أصله إلى أن يعلم أن قولهم أركان الإسلام أو نحوه، إنما هي من اجتهادات أهل العلم في تقريب العلم، وبيان أهمية هذه الأمور.

- ثم بعد ذلك ليس بالضرورة أن تكون هذه الأركان على حدٍ سواء، ولأجل ذلك عند أهل العلم بالإجماع أنه ليس في صلاتك غيرها ولا يساويها ما دونها، أليس كذلك؟، لا الزكاة، ولا الصيام، ولا الحج، لأجل هذا محمدٌ بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة، ذكر كلامًا عظيمًا، يليق بكل واحد منا أن يرجع إليه في بيان أهمية الصلاة على ما سواها، لما قال من أنه ليست عبادةً اشترط لها الطهارة كما اشترط لهذه، وأنه ليس ثم عبادةٌ تجب في الحضر والسفر، وتجب في كل حالٍ، ولا تسقط بمرضٍ، ولا تسقط ما بقي للإنسان عقلٌ، وتوجَب لها الجماعة، وتعلق بها كثيرٌ من الأحكام لم يتعلق بغيرها.

يقول: «بني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله».

الشهادة كما يقول أهل العلم: **هي تتضمن ثلاثة معانٍ.**

أولًا: أن الشهادة لابد أن يكون منطلقها يقينٌ واعتقادٌ. فلا يمكن أن يقول واحدٌ أشهد أن لا إله إلا الله، ويقوله بلسانه دون قلبه، لما ذكرنا لكم، أنه عالم الغيب والشهادة، الشهادة تقابل الغيب، فأصلها إظهار ما استقر مما غاب، مما ينعقد في القلوب، ولما كانت القلوب لا يعلمها إلا الله، فالمسلم يحتاج إلى أن يظهر إسلامه، ليُعلم ما استقر في قلبه واستيقن به، هذا معنى الشهادة من جهة أنها تحتمل معنى الاستيقان والاعتقاد.

ثانياً: لابد فيها من القول؛ لأن الشهادة إخبارٌ، والإخبار لا يكون إلا بالقول.

ثالثاً: وفيها إعلام الغير، يعني لابد أن يظهر ذلك؛ لأن الشهادة شهادةٌ عند القاضي، شهادةٌ عند الآخرين ونحوه.

ولذلك من قال: لا إله إلا الله، ولم يعتقد قلبه، لم ينفعه ذلك، ومن اعتقد ولم يقل فإنه لا يدخل في دين الإسلام، حتى يكون معتقدًا وأن يقول ذلك.

قال: «شهادة أن لا إله إلا الله».

- لا إله إلا الله، هذه مفتاح الجنة، وهذه قوام الدين، وقوام الدنيا، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، ليس في الوجود كلمةٌ أعظم منها، ولا أجل منها، ولا أرفع للعبد في دنياه وفي أخراه من أن يقولها، لأجلها قامت الدنيا والآخرة، ولأجلها خُلقت الجنة والنار، ولأجلها تقدم المجاهدون حتى استبيحت دماؤهم، وذهبت أنفسهم لتحقيق لا إله إلا الله.

لا إله إلا الله لها معنًى، ما معناها؟

- لا إله، هذا يتبين بإعرابها، لا نافيةٌ للجنس، إلهَ يعني اسمها مبنيٌّ، أين خبر لا النافية للجنس؟ هذا محذوفٌ، والتقدير له في قول المحققين من أهل العلم حق، لا إله حقٌّ، لأنه يوجد مألوهاتٌ ومعبوداتٌ من دون الله -جلَّ وعلَا-. لكنها كلها باطلةٌ، فلا إله حقٌّ أو بحقٍّ؛ لأن الباء تصحب خبر لا كثيرًا، لا إله بحقٍّ إلا الله، والله -جلَّ وعلَا- في أصح إعراباتها أنها بدلٌ من الضمير المستتر في الخبر، حقٌّ هو أي الله، حقٌّ هو إلا الله -سبحانه وتعالى.
- وهي مشتملةٌ على ركنين، النفي، والإثبات، نفي العبودية عن ما سوى الله، وإثباتها لله، ولذلك تجد أكثر آيات القرآن على هذا ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36] نفيٌ وإثباتٌ ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، يعني إياك لما تقدمت عند أهل

البلاغة تدل على الحصر، حصر العبودية لله، ونفيها عمن سوى الله، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، هذا أيضًا دالٌّ على هذا، كله يدل على أنها فيها نفيٌ وإثباتٌ، ويقولون: تقدم النفي حتى يخلو القلب، وتخلو النفس من عبادةٍ من سوى الله، فتكون التخلية ثم التحلية، فيعبد الله -سبحانه وتعالى-. فتتحقق العبودية والتوحيد لله -جلَّ وعلَا-، لا ينصرف القلب إلى أحدٍ سواه، ولا يشاركه غيره؛ لأن الله -جلَّ وعلَا- كما في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»، فلا يصح تحقيق هذه الكلمة إلا بصفاء القلب وتصفيته وتنقيته، حتى يتوجه إلى الله -جلَّ وعلَا.

؟ ما مفهوم ومنطوق لا إله إلا الله.هل منطوقها إثبات العبودية لله؟ ومفهومها نفي العبودية عمن سوى الله؟

أصح ما يقال في هذا، قولان:

- ✓ إما أن يقال إن منطوق هذه الكلمة الأمران جميعًا. وهو نفي العبودية عمن سوى الله، وإثبات العبودية لله -جلَّ وعلَا-، فتنفى عمن سوى الله، وتثبت لله، لأنها جاءت بالاستثناء.
- ✓ وبعضهم يقول، وهذا أكثر الأصول، وعليه أهل التحقيق، إن المنطوق هو نفي العبودية عمن سوى الله، والمفهوم هو إثبات العبودية لله. لقائلٍ أن يقول: لماذا؟ قالوا: لأن المشكلة، أو الإشكال ليس عند الناس في إثبات العبودية لله، هذه كل يثبتها، لكن هو نفي العبودية عمن سوى الله، الذي جرى عليه المشركون، وجرى عليه عباد الأوثان، وغيرهم ممن ضل عن سبيل الله -جلَّ وعلَا-، ولأجل ذلك قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: 5]، وإلا هم يثبتون العبادة لله، لكن يجعلون معه غيره، وفي قصة عمران: كم إلهًا تعبد؟ قال: سبعةً، ستةٌ في الأرض، وواحدٌ في السماء، قال: فمن لضرائك؟ قال: الذي في السماء. فهم يثبتون لكن، فجاءت لا إله إلا الله لنفي عبودية من سوى الله، وإثبات ما كانوا يحفظون من العبودية لله -جلَّ وعلَا.

«شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله»،

- وهذا من شرف نبينا -صلى الله عليه وسلم-، أنه جعل الشهادة له بالوحدانية، يقرن بها الشهادة لنبينا بالرسالة، وهي منزلةٌ عليةٌ رفيعةٌ، وأن محمدًا رسول الله، والشهادة بأن محمدًا رسول الله كما يقول أهل العلم: تقتضي تصديقه، مادام أنه رسول الله، فلابد أن نصدقه فيما أخبر، سواءً كان ذلك فيمن قبلنا، أو فيما يأتي فيما نستقبل من أمرنا، أو كان ذلك من المغيبات في الآخرة، وطاعته فيما أمر، ولأجل ذلك جاء الأمر بطاعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في كتاب الله في أكثر من ثلاثين آيةً، واجتناب ما عنه نهى وزجر، واجتناب نواهيه ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: 54] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: 59].
- يقول أهل العلم: والشهادتان متضمنةٌ لشرطي قبول العمل، الإخلاص في شهادة أن لا إله إلا الله، والمتابعة في شهادة أن محمدًا رسول الله، فمن أراد تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، لابد أن يكون في جميع أعماله مخلصًا متابعًا؛ لأنه بالإخلاص يحقق لا إله إلا الله، وبالمتابعة يحقق أن محمدًا رسول الله، أو الشهادة بأن محمدًا رسول الله.

قال: «وإقام الصلاة»،

- وإقام الصلاة هذا هو الركن الثاني من أركان الإسلام، ومبانيه العظام، وليس شيءٌ أعظم بعد الشهادتين من الصلاة، وأشرنا قبل قليلٍ إلى أهميتها وعظمها، وهنا قال: «وإقام الصلاة» ، ولم يقل: فعل الصلاة، أو أداء الصلاة، قال أهل العلم: لأن المقصود من ذلك ليس هو مجرد فعلها؛ لأن الله توعد الفاعلين لها، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: 4، 5]، لكن المقصود إقامتها إقامةً صحيحةً، بأركانها، وشروطها، وواجباتها، ومستحباتها.
- ولم تكن شعيرةٌ من الشعائر مثل الصلاة، ولذلك جاء عند بعض أهل العلم أن تارك الصلاة تهاونًا كافرٌ بالله -جلَّ وعلَا-، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول : «بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة» ، «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» ، وجاء عن بعض أصحاب رسول الله، ما كانوا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفرٌ إلا الصلاة، وهذا هو قول الحنابلة، أو مذهب أحمد، وقال به بعض السلف، خلافًا لجمهور العلماء، والكلام في مثل هذه المسألة، تكفير تارك الصلاة من المسائل التي وقع فيها خلاف ، فليس من جنس ما فعله الخوارج الذين يكفرون بمطلق الذنوب، أو بأي الذنوب، وأيضًا ليس كقول المرجئة، الذين لا يدخلون الأعمال، لكن مبنى هذا الخلاف هو ما جاء في الأدلة، في إطلاق الكفر، هل هو الكفر الأكبر، أو الكفر الأصغر كما يقول الجمهور، وإذا قلنا من أنه كفرٌ بالله -جلَّ وعلَا- فإن تعلق ذلك إنما هو بالباطن، أما الظاهر يعني بأن يُجرى على تارك الصلاة أحكام الكفر، فليس هذا بحاصلٍ حتى يدعوه الإمام أو نائبه كما ينص على ذلك الحنابلة، للذين يقولون بالكفر، لماذا؟ لأن هو يمكن أن يكون يصلي من حيث لا يشعر الناس، يمكن أن يصلي له شبهةٌ في الترك ونحوه، فلذلك إجراء أحكام الكفر عليه بالدعاء إلى الإمام أو نائبه، وهنا مسألةٌ أيضًا، حتى إذا قلنا بهذا، بعض الإخوة الذين يسمعوننا ربما يكونون في بعض البلاد التي على مذهب مالك، أو على مذهب الشافعي، أو على مذهب أبي حنيفة، ولا يرون كفر تارك الصلاة، وهو ربما يرى أو سمع من يثق به بأنه كافرٌ، فلا يعني ذلك أن تجري أحكام الكفر على من ترك الصلاة في بلدك، من جهتين، أول شيءٍ حتى عند الحنابلة لابد من دعاء الإمام وإقامة الحجة، وكون ذلك عند القاضي حتى تجرى عليه أحكام الكفر، ولأنه قد تكون له شبهةٌ، وأما الصلاة التي يكفر بها ونحو ذلك له تفاصيل كثيرةٌ، ومن جهةٍ ثانيةٍ أيضًا أن هذا التارك في تلك البلدان له شبهةٌ من جهة أنه على مذهبٍ لا يرى أن تركها كفرٌ، والقول في ذلك له اعتبارٌ، فلا يمكن أن يكون ذلك مسوّغًا لك بإجراء أحكام الكفر وآثار الكفر على هذا، ولأجل هذا يحصل في بعض البلدان من اللغط بسبب ذلك كثيرٌ، فينبغي التنبه له، وألا يستعجل المرء إلى ذلك، فيكون بسبب ذلك الشر والبلاء الكثير.
- هذا ما يتعلق بمسألة تكفير تارك الصلاة، والجمهور الذين قالوا بأنه لا يكفر مع ذلك يجتمعون مع الحنابلة مع أنه يُقتل، لكنه يقتل حدًا لكونه تاركًا للصلاة، لما جاء في الأحاديث «نهيتُ عن قتل المصلين» وما في معناه.
- والصلاة لها أهميةٌ، وينبغي للعبد أن يتعلم أحكامها، ومما ينبغي التنبيه عليه أن بعض الناس مع أهمية الصلاة، ومع كونه يصلي كل يومٍ، ومع أنها أعظم الأعمال، تجد أنه لا يعرف أبسط أحكامها، أو حتى إذا تعلم بعض مسائلها، فإنه لا يمرن نفسه على أن يأتي بها، ولذلك تجد أن بعض الناس، الصلاة التي يصليها التي تعلمها في الأولى الابتدائية، فبعضها يأتي على وجهٍ صحيحٍ، وبعضها لا.
- لو نظرنا إلى مثل هذا، كم صلاةٍ تصليها في اليوم؟ كم صلاةٍ تصليها في الأسبوع؟ كم صلاةٍ تصليها في الشهر؟ كم صلاةٍ تصليها في السنة؟ كم صلاةٍ تصليها في حياتك؟ فلو كان عندك نقصٌ واحدٌ، فكم سيكون عندك من النقص في حياتك كلها؟ والعكس بالعكس، من كان يحسن صلاته ويقيمها، فإذا افترضنا أنه يقيمها وكل صلاةٍ

له على أتم حالٍ وأكمله، كم سيكون له من الأجر والثواب عند الله -جلَّ وعلَا؟ فينبغي التنبه لذلك والحرص عليه.



قال: «وإيتاء الزكاة»،

- الزكاة قرينة الصلاة، ولذا جاءت معها في مواطن كثيرةٍ من كتاب الله -جلَّ وعلَا-. ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ [الأنبياء: 73]، ويقول أهل العلم: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، أصلها قلبيٌّ، والنطق تبعٌ لذلك، والصلاة عبادةٌ بدنيةٌ، وإيتاء الزكاة ماليةٌ، والحج عبادةٌ مشتركةٌ بين المال والبدن، والصيام عبادةٌ بدنيةٌ، ولذلك أخَّرها، لأنها جاء ذكر نوع جنسها في الصلاة، بعضهم يقول هذا، على كل حالٍ إيتاء الزكاة إذن هو من العبادات العظيمة، والشعائر الكبيرة، وجاء في بيان عظمها، وأنها من مباني الإسلام، هذا الحديث، وأحاديث كثيرةٌ، ثم جاء أيضًا في التنبيه على عظم من تخلف عن أدائها، ولذلك جاء في الحديث الذي في الصحيح: «من لم يؤد زكاته، فإنه يحمى عليه يوم القيامة في نار جهنم فتكوى بها جبينه وجنبه وظهره» ، في وعيد تارك بذل الزكاة لمن كان له مالٌ، وفي الحديث الآخر: «إذا كان يوم القيامة مُثِّلَ له ماله بشجاعٍ أقرع» ، يعني مثل الحية أو الثعبان، «فتأخذ بلهزمتيه، فتقول: أنا مالك، أنا كنزك» ، يعني يعذبه الله -جلَّ وعلَا- بهذا المال الذي لم يؤد زكاته.
- والزكاة واجبةٌ على العبد إذا استكملت شروطها، من ملك النِّصاب، ومُضيّ الحول، والحرية، وتمام الملك على ما يذكره العلماء من تفاصيل المسائل المتعلقة بذلك ، وأموال الزكاة معلومةٌ، الأثمان، الذهب والفضة، وعروض التجارة، مما يعد للبيع والشراء، سواءً أعدها الآن أو في ما يستقبل بعد مدةٍ، المهم أنه جعله متربصًا للإتجار وزيادة الأثمان، أيضًا الخارج من الأرض، وما يتعلق بزكاة بهيمة الأنعام.
- يجب على كل مسلمٍ أن يتعلم من دينه ما يليق به، إذا كان مثلًا من أهل تجارة الذهب والفضة فعليه أن يتعلم أحكامها، أو عنده عروض تجارةٍ، إذا كان من أهل الزروع والثمار أن يتعلم الأحكام المتعلقة بذلك، ومثل ذلك إذا كان من الرعاة وأهل الإبل أو الغنم والبقر، فعليه أن يتعلم ما يليق به من الأحكام.
- وكما قلنا إن إيتاء الزكاة في مشهور قول أهل العلم أنه لا يكفر تاركها؛ لأنه قال في عذاب تارك الصلاة، لما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يعذب، قال: «ثم يرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار» ، فقال أهل العلم: فهذا دليلٌ على أنه باقٍ على إسلامه؛ لأن الكافر لا يؤول إلى الجنة بحالٍ من الأحوال، فأخذ من هذا أن تارك الزكاة لا يكفر، لكنه تاركٌ لشعيرةٍ وشريعةٍ عظيمةٍ، كما تقدم أنها من مباني الإسلام، والقول بعدم كفر تارك الزكاة هو قول عامة أو أكثر أهل العلم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



الحديث الرابع.

{الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن والاه.

اللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين، والمشاهدين، وجميع المسلمين.

قال النووي رحمه الله: الحديث الرابع: عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-. قال: حدثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفةً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلماتٍ: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أم سعيدٌ. فوالله الذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيسق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»، رواه البخاري ومسلم}.

- هذا الحديث، وهو حديث عبد الله بن مسعود حديثٌ عظيمٌ، رضي الله تعالى عن عبد الله وأرضاه، هو ممن أسلم قديمًا، وكان سبب إسلامه، لما كان راعيًا، وجاء إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وطلبه أن يحلب لهم، فقال: إنه مؤتمنٌ عليه، طلب منه أن يأتي بما لم تلد أولًا، ثم لما مسح عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- در لبنها، فحلب منها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم سقى وشرب، ثم مسح عليها فعادت كما كانت، فكان ذلك سبب إسلام عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.
- وهذا الحديث يشتمل على مهماتٍ من المسائل، تتعلق بمسائل الإيمان، منها الإيمان بالغيب، والإيمان بالقدر، والإيمان بالملائكة، ووظائفهم، وإرسال الله -جلَّ وعلَا- لهم، وما يقومون به من الأعمال والوظائف، وفيها الإيمان باليوم الآخر، وفيها الإيمان بعلم الله الثابت وبكتابته، وأيضًا خلقه للخلائق، وتكوينه للعباد، أيضًا ما يكون من أحوال الجنة والنار واليوم الآخر.

- في هذا الحديث إشارةً إلى مسألةٍ عجيبةٍ، ولأجلها ذكر أن عبد الله بن مسعود قال وهو الصادق المصدوق، وهي كلمةٌ عظيمةٌ تدل على أصلٍ كبيرٍ في تسليم الصحابة وانقيادهم، وقبولهم ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، سواءً كان في ذلك ما استوعبته قلوبهم وقرب من نفوسهم، وكان مما يألفونه في حياتهم، أو كان ذلك مما لا يمكن تصوره عندهم، ومع ذلك فإنهم يؤمنون ويصدقون، ولذلك لما كان ذكره لأحوال الجنين وتنقلاته في رحم الأم، حيث لا يدري بذلك من هو مثلهم، ولم يكونوا يألفون مثل ذلك العلم، ومع ذلك أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم- قال وهو الصادق المصدوق، هو صادقٌ فيما أخبر به، حتى لو أعيا عقولنا أن تدرك ذلك، أو أن تحيط به، أو أن تعرفه، أو أن يكون له أصلٌ في علومهم أو ما تلقوه من آبائهم، أو غير ذلك مما ألفوه.
- أيضًا في هذا إشارةٌ إلى معجزةٍ من معجزات النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأي شيءٍ أعظم من أن يخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بتفاصيل ما يكون في رحم المرأة، في جوفها، في بطنها، من تحركات الجنين وتنقلاته، وتحولاته، كل ذلك مما لا يدرك بمجرد النظر ولا بالرؤية ولا غير ذلك، لأنه خافٍ وهو في جوف المرأة ، ومع ذلك لما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتلقى خبر السماء، ويأتيه الأمر من الله -جلَّ وعلَا- ويوحى إليه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 4] كان إخباره دقيقًا وذكره في ذلك تفصيلًا على وجهٍ، لما تجدد من أمور الطب والآلات والمخترعات ونحو ذلك، لم تكد تزد على ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم.

قد جاء نحو من ذلك في كثيرٍ من آيات الله -جلَّ وعلَا- في كتابه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، ففي هذا من أعظم معجزات النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك إذا تحدثت إلى بعض الكفرة وغيرهم مما لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذكرت أنه أخبر بنحوٍ من ذلك على نحو ما جاء بالطب، فإن هذا من أعظم ما يكون استجلابًا لهم، وإيذانًا بتغير نظرهم، وزيادة تأملهم في هذا الدين، وما جاء في تفصيلاتهم وأحكامه، وما جاء من مسائله ودلالاته التي هي فيها صلاح العباد في الحال وفي المعاد.

- ينبغي لطالب العلم وللخطيب أن يستهل الحديث بما يناسبه، فلما كان ذلك الحديث من أمور الخير والتي يند عن الأذهان معرفتها، وسهولة تلقيها والاستسلام لها، فإن عبد الله بن مسعود قدم بهذه المقدمة، قال: وهو الصادق المصدوق، حتى تذعن لذلك القلوب وتتلقاه بدون ما شكٍّ ولا حيرةٍ ولا ريبٍ ولا تغيرٍ.

قال: «إن أحدكم يجمع خلقه»

- وهذا فيه إشارةٌ إلى أن يكون من أنه الخلق مبدؤه ما يقذفه الرجل في رحم المرأة، وما ينتج عن ذلك بعده من تنقلاتٍ وأطوارٍ للحمل والجنين،

ثم قال: «خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفةً»،

- وهذا يعني نطفةً التي هي نطفة المني، ولذلك يقولون إنها لا تتغير في هذه الأربعين في الغالب، وتبقى كما كانت، ثم بعد الأربعين تتحول إلى دمٍ متجمدٍ، وهو العلقة، ثم بعد الأربعين تكون مضغةً.
- ثم بعد ذلك جاء في الحديث أنه يرسل الملك، فينفخ فيه الروح ، وهي مما اختلف فيه كثيرٌ من العلماء أو الفلاسفة، لذلك كان من أعظم ما حيَّر اليهود لما سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- كان الجواب من عند الله

﴿يسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، فما أعظم هذا الجواب الذي هو جوابٌ في كتاب الله -جلَّ وعلَا-، وآيةٌ من آيات الله تتلى إلى يوم القيامة.

- نفخ الروح في الجنين، فقد جاء في هذا الحديث أنها تكون بعد أربعة أشهرٍ، وللسلف في ذلك أقاويل كثيرةٌ وخلافاتٌ بناءً على ما جاء في هذا الحديث، لكن هذا الحديث صريحٌ في ذلك، ظاهرٌ فيه ما جاء في الأحاديث أنه يتقدم ذلك بقليلٍ، فبعضها قد يقال إنه يحصل فيه شيءٌ من التفاوت، ومنه من يقول إن العمدة على ما جاء في حديث عبد الله بن مسعود، وجاءت من الأحاديث المتابعة له، فتدل على أن ذلك هو الأمر المرجح أو الأمر الذي يمكن أن يقطع به ويتعلق به الحكم، ولأن نفخ الروح يتعلق به أحكامٌ، وذلك أنه إذا نفخ الروح في الجنين، فإنه إذا مات فإنه يغسل ويصلى عليه ويدفن، ولو جُني على المرأة في حملها، فأسقطت بعد نفخ الروح، فإنه يكون ممن تعتبر جنايةً موجبةً للدية، أما ما قبل نفخ الروح، فهل لهذه النطفة أو لهذه العلقة أو هذه المضغة حرمةٌ أو لا حرمة لها؟ هذا مما جاء فيه خلافٌ، فكما قلنا أجمع أهل العلم أنه بعد نفخ الروح التي هي مائة وعشرين يومًا، فهذه لا يجوز أن يُعتدى عليها، لكن ما قبل ذلك فإن أهل العلم يختلفون، فأما ما قبل الأربعين فالخلاف في هذا أيسر، ولأجل ذلك ذهب فقهاء الحنابلة والشافعية وجماعةٌ من أهل العلم إلى أنه يجوز إلقاءها، يعني أنه لا حرمة لها بالنسبة للزوجين، وذلك أنهم يقولون كما أنه يجوز أن يعزل الرجل عن امرأته أو بالأسلوب العصري الآن يتعاطى موانع الحمل، ومن ذلك العزل فكذلك هذه النطفة إذا أخرجتْ من الرحم، فكذلك إذا أخرجتْ فألقيتْ خارج الرحم، فكذلك إنزالها بعد استقرارها، لأنها لم تتكون بعد ذلك.
- أما بعد الأربعين إلى نفخ الروح، فهذا هو محل الكلام، فمن أهل العلم من يقول: إنها لما تكونتْ وتجمعتْ صار لها حرمةٌ، وانتقلت عن حقيقتها الأولى التي هي نطفة منيّ ملقاة في الرحم، وإنما صارت شيئًا آخر، لذلك منع من هذا فقهاء الحنابلة وجمعٌ من أهل العلم، خلافًا للشافعية الذين يقولون إنها لن ينفخ فيها الروح، فلا حرمة لها، فكما تلقى قبل ذلك فتلقى بعد ذلك ما لم ينفخ فيها الروح.

وعلى كل حالٍ فإن الإلقاء قبل الأربعين أيضًا عند أهل العلم مشروطٌ **بثلاثة شروطٍ:**

أولًا: أن يكون قبل الأربعين،

ثانياً: أن يكون برضا الزوجين،

ثالثاً: أن يكون بدواءٍ مباحٍ،

لأن لكل واحدٍ من الزوجين حقًا في تلك النطفة، فلا يجوز لواحد أن يتجاوز حق الآخر.

- إذا ألقتْ المرأة هذا الجنين أو سقط من بطنها، فهل له أحكامٌ قبل نفخ الروح فيه؟ **هذا لا يخلو من حالين** عند أهل العلم، إما أن يكون قد تخلَّق أو لا،

✓ فإن كان قد تخلَّق، معنى تخلَّق يعني بان فيه ما يدل على خلق الإنسان، رجلٌ، يدٌ، نحو ذلك، فهذا يقولون إنه إذا وضعتْ أو أسقطتْ فإنه يكون الدم الذي يخرج منها دم نفاسٍ، فتمتنع من الصلاة ونحو ذلك، ويمتنع منها زوجها وما يترتب على أحكام النفاس، ومثل ذلك لو كانت في هذا اللحم المتجمع ما يدل على الصورة الخلفية ويعرفها أهل الاختصاص، يعني القوابل يعرفن أن هذه مبدأ خلق الإنسان، فعند أهل العلم وهو المشهور في مذهب أحمد، أنه أيضًا مما يحكم من أن الدم دم نفاسٍ، فتمتنع المرأة عن الصلاة، ويمتنع عنها زوجها ونحو ذلك.

✓ أما إذا كان قبل ذلك، يعني ألقت قطعةً من الدم المتجمع ونحوه لا يتبين فيها خلق الإنسان، فهنا يقولون لا حكم له، فما يتبعه من خروج دم ونحوه، فيقولون أنه دم فسادٍ لا تتعلق به أحكام، يعني أن المرأة تصلي، ولزوجها أن يأتيها على ما يقال في الدم الفساد، هل يمتنع منها أو لا يمتنع منها، وما يتعلق بذلك.

قال: «ثم يُرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلماتٍ».

- سياق الحديث قوله: «ويؤمر بأربع كلماتٍ» أنه عطف بالواو، لكن قد يفهم من هذا أن الكتابة بعد نفخ الروح، أليس كذلك؟ هذا ما فهمه بعضهم، لكن في حديث حذيفة وهو في الصحيح أيضًا أنه إذا مضى للنطفة اثنان وأربعين يومًا، بعث الله ملكًا فيكتب، فظاهر ذلك الحديث أنه في الأربعين الثانية، وهنا بعد الأربعين الثالثة، ففيه شيءٌ من التعارض في ظاهرهما، لكن يقول أهل العلم إن هذا الحديث في قوله: «ويؤمر بأربع كلماتٍ» لم يقصد من ذلك أن هذا بعد نفخ الروح، وأنه لما أنهى ما يتعلق بالكلام على أطوار الحمل والجنين، بعد ذلك انتقل إلى أمرٍ آخر وهو ما يتعلق الكتابة ونحوها، فيكون فيه شيءٌ من التقديم والتأخير، ثم سواه ونفخ فيه الروح، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم نفخ فيه الروح، مع أن نفخ الروح سابقٌ لوجود أو لمجيء النسل، فقد يكون فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، ولا يكون في ذلك شيءٌ، والمراد هنا بالكتابة أن الكتابة كتابةٌ أزلية، إن أول ما خلق الله قلم فقال له اكتب، فكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنةً، أليس كذلك، وهو أيضًا المكتوب في اللوح المحفوظ، فهذا لا يتغير ولا يتبدل.
والكتابة الثانية هي الكتابة العمرية وهي التي عند نفخ الروح ، بعضهم يقول عند نفخ الروح اعتبارًا بهذا، أو الذي جاء في حديث ابن مسعود، وحديث حذيفة هو الذي يكتب فيه أربع كلماتٍ، وهذا قد يحصل فيه التغيير.
الثالث من الكتابات: الكتابة في العام أو الكتابة الحولية، وهذا الذي جاء في ليلة القدر وما يتعلق بها، وفيه الكتابة اليومية كما قال الله -جلَّ وعلَا: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29] -سبحانه وتعالى- فهذا ما يتعلق بالكتابة، وهنا ينبغي الوقوف مع الحديث عن عظيم علم الله -سبحانه وتعالى-، فلما قال من أنه يؤمر بأربع كلماتٍ: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيدٌ، فإن الله أحاط بالمخلوقات أولها وآخرها، ما وجد منها وما سيوجد، ما كان ومما لم يكن، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فعلم الله لا حد له -سبحانه وتعالى- جاء ذلك في كتاب الله وهو العليم الخبير، فلا يمد عنه شيءٌ، ولا يفوت عليه شيءٌ ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59]، في هذا إشارةٌ إلى ذلك.
- وكتابة ذكرٌ أم أنثى، بعض الناس يقول كيف يعلمون الناس الآن بهذه الأشعة، والله -جلَّ وعلَا- في كتابه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34]، فظاهر ذلك أن الله اختص بعلم هذه الأشياء، لا يعلمها غيره، فنقول هنا لا تعارض في ذلك، لأن المقصود هنا أن الكلام في حالٍ، وهو عند بعث الملك، أليس كذلك؟ وظاهر الحديث أن الملك قد علم، فهذا خارجٌ عن الاختصاص، أما علم الله فسابقٌ لذلك وتامٌّ، لا يفوت على الله -جلَّ وعلَا- في ذلك شيءٌ، أما هذا فإنه بعد علم الملك، وهذا دليلٌ على أنه بعد وقت الاختصاص، يعني أنه مما يمكن العلم به، ولهذا ذكر أبو بكر بن العربي في تفسيره عند هذه الآية، أنهم كانوا ربما عرفوا ذلك،

وعندهم من الأشياء التي جرتْ التجربة أنهم يعرفون الذكر من الأنثى ببعض الدلائل، كبعض التصبغات التي في المرأة في صدرها أو في ثدييها أو بشكل بطنها ونحو ذلك، وذكروا هذا الكلام.

- ملخص الكلام أن العلم بهذه المخترعات الحديثة لا ينافي ما جاء في الآيات من اختصاص علم الله -جلَّ وعلَا-. لأن علم الله أشمل وأتم وسابقٌ لنفخ الروح، أما الآن الملك إنما يعلم بعد ما يرسله الله -جلَّ وعلَا-، والناس بهذه الآلات إنما يعلمون بعد مدةٍ محددةٍ معلومةٍ عند أهل الطب والاختصاص.

ثم قال في الحديث: «فوالله الذي لا إله غيره»،

- هذه الجملة هل هي من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- أو من كلام ابن مسعود؟ ظاهر الحديث أنها من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد جاء ذلك في أحاديث كثيرةٍ مما يدل على أنه قولٌ مرفوعٌ للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولا إشكال في ذلك، وإن كان جاء في بعض الروايات من طريق سهل بن كهيل أنه مدرجٌ أو أنه من قول ابن مسعود.
- وقوله: «فوالله الذي لا إله غيره» فيه دلالةٌ على عظم هذا الأمر، وأن الأمر العظيم يمكن تأكيده بالقسم لو لم يطلب من الإنسان، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أكد ذلك «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ» هذه من الأحاديث العظيمة، قال: «فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» نسأل الله السلامة والعافية..

✓ ينبغي أن يقال إن هذه الجملة فيها أول ما فيها من الدلالات، التنبيه على أن كتاب الله جلَّ وعلَا نافذٌ، يعني ليس المقصود فقط هو التحول الإنسان أو خوف التحول أو نحوه، إنما الأصل في هذه الجملة تأكيد أنه مهما تقلب الإنسان في دنياه، فإنه لا يموت إلا على الحال التي كتب الله عليه.

✓ ثاني هذه الأمور كما فهم السلف كثيرًا، الحذر وعدم الأمن من خاتمة السوء، ودوام المراقبة والاجتهاد في العمل حتى لا يختم للإنسان بخاتمة سوءٍ، نسأل الله السلامة والعافية.

- ولأجل هذا كان السلف يخافون من سوء الخاتمة، كما جاء عن عبد العزيز بن رواد لما حضر محتضرًا فكان يقول له قل لا إله إلا الله، فيقول هو كافرٌ بهذا، نسأل الله السلامة، يقول: يعني هو كافرٌ لما يعبرون بهو كافرٌ ماذا يقصدون، أنه قال: أنا، لكن يأنف أهل العلم أن يسندوا مثل هذا القول إلى أنفسهم، فيقول: أنا كافرٌ، لا، فيقول: هو كافرٌ، يعني أنه قال عن نفسي أنه كافرٌ ، فلما مات، يقول: فسألت عنه فإذا هو مدمن خمرٍ، فكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب فإنها هي التي أوردته هذه الموارد.

ولم تزل مثل هذه الوقائع تتكرر عندنا في كل يومٍ وفي كل حالٍ، أن من كان على الصالحات ختم له بالصالحات، ومن كان دون ذلك ختم له بالسوء، نسأل الله السلامة والعافية.

ولأجل هذا قال سفيان: إني أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيًّا، إني أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت.

- في هذا إشارةٌ إلى مسألةٍ مهمةٍ وهو عدم الاقتصار على الأعمال الظاهرة، لأن البواطن تبدو ، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: 27]، أما الذين لم يؤمنوا إذا جاء موقفٌ فإنهم يكادون يُسلبون الإيمان، ويظهر ما بطن في قلوبهم، ولأجل هذا جاء في بعض روايات الأحاديث: أنه كان «وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس » ، وجاء في حديث البخاري: « إنما الأعمال بالخواتيم » ، ثم في حديث آخر: « وإنما يكون أعلى الإناء بما في أسفله »، أليس كذلك؟

فما كان في أسفله من صالحٍ وعملٍ صالحٍ ،واستمرارٍ على الخير، يوشك أن يمتلئ بذلك، وما كان من ضده، يوشك أن يمتلئ بضده، نسأل الله السلامة والعافية.

- ولأجل هذا ينبغي لنا جميعًا أن نعرف خطر هذا الحديث، وخطر ما يحدق بالإنسان من خوف خاتمة السوء، والوقوع في السوء، وأن يكون بذلك لقاؤه لربه وختام حياته، وانتهاؤه من هذه الدار، فمن كان على معصيةٍ فلينتهي منها، ومن كان على سوءٍ فليتخلص منه، ومن كان على شرٍّ فليبعد عن شره، ومن كان مقصرًا في الطاعة، فليعد إلى الطاعة وليسارع إليها، فإنه لا يدري ما يختم له، وما يدري بأي شيءٍ يلقى ربه، نسأل الله السلامة والعافية.
- كما في هذا الحديث من محركٍ للنفوس لو عقلنا، وكم في هذا الحديث من مصلحٍ للنفوس لو نظرنا، وكم في هذا الحديث من سببٍ لأن يسترجع الإنسان ما يكون من حاله، وما يكون من سريرته، وما يكون من خلوته، وما يكون مما بينه وبين الله جلَّ وعلَا، فينبغي أن يصلح قلبه إخلاصًا، وأن يعمر وقته صلاحًا، وأن يبدأ ليله صلاةً، وأن يكون محافظًا على الفرائض، وأن يكون مبتعدًا عن النواهي، مجانبًا للمحرمات، في الخلوات وفي الجلوات، في الحضر وفي السفر، في كل حالٍ من أحواله.



الحديث الخامس.

{قال رحمه الله:

الحديث الخامس:

عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».}

- قال أهل العلم: هذا الحديث من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، حديث الأعمال بالنيات، وحديث عائشة هذا، وحديث النعمان بن بشير، ولذلك يقول ابن رجب مقولةً عظيمةً، يقول: فهذا الحديث هو كالميزان للأعمال الظاهرة، كما أن حديث « إنما الأعمال بالنيات » ميزانٌ للأعمال الباطنة، فكما أن من لم يرد وجه الله، فإنه لا يثاب على ذلك، فكذلك من لم يكن متابعا لأمر الله وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- فإن عمله مردودٌ، وهذا الحديث من أعظم الأحاديث التي اعتمد عليها أهل العلم في نفي الزيادات في العبادات، أو ابتداء عبادةٍ من عند نفس الإنسان، أو مما اخترعه وابتدعه ولم يأت به شرعٌ، ولم يكن له أصلٌ من كتاب الله جلَّ وعلَا، أو من سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

  وفيه نفي المعاملات المحرفة، أو التي خالفت فيها الشرع، أو افتقدت فيها شرطًا من الشروط، فكل ذلك مما يستدل به على بطلانها وفسادها بمثل هذا الحديث.
- هذا الحديث جاء في دلالاته آياتٌ من كتاب الله وأحاديث بنحو معناه، وبنحو الدلالة عليه، فإن الله جلَّ وعلَا قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21]، فدلت هذه الآية التي هي آية سورة الشورى، أنه لا يكون أحدٌ مشرعٌ سوى الله ولا يكون أحدٌ محدثٌ عبادةً من عند نفسه، وإنما العبادات والمعاملات الصحيحة الشرعية، التي جاءت في كتاب الله، وجاءت في سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ومما يدل على ذلك أيضًا قول الله جلَّ وعلَا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: 3]، ووجه الدلالة من هذه الآية ظاهرٌ، فإن من ابتدع بدعةً أو استدرك على الشرع فكأنه يقول من أن هذه الآية ناقصةٌ، أو غير صحيحةٍ، أو أنه يمكن الاستدراك على الشرع، وتكميل النقص، وفي هذا تكذيبٌ لله جلَّ وعلَا، وما أعظم مثل هذا وما أفظعه، وما أشنعه، فإنه عظيمٌ، ولأجل ذلك كان هذا الحديث وهذه الآية في دلالةٍ واحدةٍ، أنه لا استدراك ولا تكميل، فالدين كاملٌ، والحق واضحٌ، والمسائل بينةٌ، والشرائع مبلغةٌ، ولأجل ذلك قال ذلكم الصحابي أبو ذر "لقد توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما طائرٌ يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- علمًا".

ثم تأمل قول الله جلَّ وعلَا: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]، وقول الله جلَّ وعلَا: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 169]، ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لو كان للإنسان أن يبتدع من عند نفسه شيئًا، لم يكن في هذه الآية معنى، وإنما دلت الآية على أن كل من تكلم ابتداءً من عند نفسه ولم يكن له علمٌ مما جاء به الكتاب، وجاءت به السنة، مما دلت على دلالات الآيات والأحاديث فإنه مذمومٌ بهذه الآية.

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: 36]، أي وعيدٍ أعظم من هذا الوعيد للمتكلم من عند نفسه، أو المشرع من عنده، أو المفتات على الشرع في أمره ونهيه.

- إن قول المسلم أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، تقتضي الشهادة الثانية الاتباع والاهتداء، والاقتداء والاستنان، وتمنع الابتداع أو الابتداء من عند نفس الإنسان، من غير ما جاء به الشرع، أو من قول فلانٍ أو فلانٍ، لأن الحكم حكم الله، والشرع شرع الله، والاتباع لما في سنة رسول الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: 59]، وجعل أولي الأمر طاعتهم تابعةً، ولم يقل وأطيعوا أولي الأمر، ليعلم أن الطاعة المطلقة والاتباع الكامل إنما هو للكتاب والسنة، وهذا أمرٌ مهمٌّ، ولأجل ذلك تتابعت السنن في الدلالة على هذا.

- النبي -صلى الله عليه وسلم- في قصة الثلاثة الذين جاء وقال: أنا أصوم فلا أفطر، والثاني يقول: أصلي فلا أنام، والثالث يقول: أما أنا فلا أتزوج النساء، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: « أما إني أتقاكم لله، وأخشاكم له، وإني أصوم وأفطر وأصلي وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني ».

فهذا فيه دلالةٌ على أنه ليس الأمر بأن يتعبد الإنسان ويتنسك، ولكن الأمر أن يتعبد ويتنسك متبعًا، ولذلك قال: « فمن رغب عن سنتي فليس مني » ، ومن لم يكن من رسول الله، فلن يكون من الله، وتعرفون حديث الذي في البخاري لما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن أمته يردون على حوضه، يقول: « حتى إذا جاء أناسٌ من أمتي، خسف بهم، فأقول يا رب أمتي أمتي » ، فماذا يقول الله جلَّ وعلَا؟ يقول: « إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقًا سحقًا ».

يقول مالك بن الحويرث: "فكنا نكثر بعد هذا الحديث أن نقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرد على أعقابنا أو أن نفتن".

- فينبغي الحذر من أن يأتي الإنسان بشيءٍ من عند نفسه، مما يدل على ذلك أيضًا حديث العرباض بن سارية ، لما قال: « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي »، ثم حذر من البدعة.

أيضًا يدل على ما ذكرناه ما جاء عن الصحابة، فإنهم ماذا كانوا يقولون: اتبعوا ولا تبتدعوا، جاء ذلك عن حذيفة، وجاء ذلك عن عبد الله بن مسعود، لما رأى أقوامًا يسبحون على هيئةٍ خاصةً، ويكبرون على هيئةٍ

خاصةٍ، قال: أوأنتم على هديٍ أدل من هدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو أنكم مفتتحوا باب ضلالةٍ، قالوا: وما ذاك يا أبا عبد الرحمن، إنما أردنا الخير، قال: وكم من مريدٍ للخير لم يصبه.

يعني أنه إنما تكون إصابة الخير بالنية وبالمتابعة ، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: 7]، أخلصه وأصوبه، فكل ذلك يدل على ما ذكرنا.

- وهذا من الأحاديث العظيمة في نفي البدع والمحدثات، والمخترعات، والاتباع لما جاءت به دلالة الكتاب والسنة، والاقتصار على ما فيها من الاستنباط والدلالات، لا يتجاوز كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، مكتفين في ذلك ما جاء عن أهل العلم ودلت عليه الدلالات.

قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ »،

- قوله: « أحدث » الإحداث هو إدخال شيءٍ أو ابتداء شيءٍ لم يحدث، ولأجل ذلك بما عرف أهل العلم البدعة.

قالوا: هي الإحداث في الدين على أمرٍ لم يكن له أصلٌ، أو على خلاف أصلٍ سابقٍ.

وتعريف الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى قال: **"الطريقة المبتدعة في الدين التي يضاهى بها الطريقة الشرعية".**

- فإن قال قائلٌ: فإن كان في هذه البدعة خيرٌ، أو إن كان فيها أمرٌ حسنٌ، فنقول هذه مسألةٌ مهمةٌ، وربما يزيد بعض من يقول مثل هذا الكلام، في أن يقول: أنه جاء في أثر عمر عندما قال: "نعمت البدعة هذه"، أو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: « من سنَّ في الناس سنةً حسنةً ».

فهنا ينبغي أن يتنبه إلى أن هذا من أكثر ما حصل به اللغط وجرى به الغلط، فإن أهل السنة وعلماء السلف لم يختلفوا على اختلاف مذاهبهم على أن الاتباع إنما هو فيما جاءت به دلالات الكتاب والسنة لا يجاوز ذلك، وأنه ليس فيه ثم سنةٌ حسنةٌ ولا بدعةٌ حسنةٌ، وأول من تكلم على هذا بعض المتأخرين مثل العز بن عبد السلام وغيره، وفي ذلك خالفوا الأصول الصحيحة الشرعية.

- لكن بما يقال عن هذه الدلالات، يقال: إن قول عمر: **"نعمت البدعة هذه"** ليس البدعة الشرعية التي جاءت على شيءٍ لم يأت به الشرع، وإنما المقصود هنا لما كان أمرًا مهجورًا، فكأنه أحدث شيئًا لم يكن، وإلا فأصل ما جاء عن عمر موجودٌ في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ألم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى بأصحابه صلاة القيام في رمضان ثلاثة أيامٍ، وإنما ترك ذلك خشية أن تفرض، فإذن لما قال نعمت البدعة، هي بدعةٌ لها أصلٌ، فإذن لم يكن في ذلك دلالةٌ لم استدل بمثل هذا على إحداث البدع، وإلا للزم بذلك أن كل من جاء في شرعنا بشيءٍ أن نقبله.

- وأما ما جاء في قوله: « من سن في الناس سنةً حسنةً » ، حينما سن السنة الحسنة التي هي أنه جاء بصدقةٍ كثيرةٍ، أليس كذلك، الصدقة مشروعةٌ أو غير مشروعةٍ؟ مشروعةٌ من حيث الأصل، وبدلالة الحديث في أوله، حث النبي -صلى الله عليه وسلم- الناس عليها، وإنما هو مما حمل الناس على هذه السنة، فكأنه سنها، أو نسبت إليه مجازًا.

فبناءً على ذلك هذا مما يدل على أنه أمرٌ مشروعٌ، ولذلك أكثر مما يكون الخطأ في أنه ينتقل من الاسم اللغوي فيجعل ذلك أصلًا إدخال المبتدعات على الشرع، والشرع لا يقبل كما قلنا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]،، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: 21]، إلى غير ذلك من الدلالات.

ومن أحسن الأدلة أو الدلالات على من يستدل بذلك أن أكثر من يعترض بمثل هذا، يقولون أنها بدعةٌ حسنةٌ، وهؤلاء أكثرهم من الأشاعرة، والأشاعرة أصلًا لا يقولون بالتحسين والتقبيح إلا من جهة الشرع، فإذا لم يأت في الشرع، فكيف تقول من أنها حسنةٌ، فرجع الأمر إلى أن الحسن إنما يكون في الاتباع، والاهتداء بما جاء في كتاب الله وفي سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

- ينبغي أن يعلم أن البدعة أعظم من المعصية، حتى ولو كانت من الكبائر، لماذا؟ لأن المعصية يفعلها الإنسان بشهوةٍ بغير اعتقادٍ أنها من الدين، فمتى ما تغيرت نفسه أو ذُكر أو وُعظ رجع وتاب وآب، وأما البدعة فإنه يتدين بها، ولذلك: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ [فاطر: 8]، ولذلك جاء عن سفيان أنه قال: إن الشيطان يفرح بالبدعة أكثر من المعصية، وذلك لأن المعصية يُتاب منها، وأما البدعة فلا يتاب منها.

وذكروا أيضًا أثرًا يقول عن إبليس، أنه يقول: أهلكت بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار، فلما علمت ذلك، بثثت فيهم الأهواء، فلا يتوبون منها، لأنهم يحبونها، أو ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وهذا فيه إشارةٌ إلى ما ذكرنا لكم من عظم أمر البدعة والابتعاد عنها، والامتناع عن مواقعتها.

- ينبغي أن يعلم كما هو متقررٌ عند أهل العلم، أن البدعة شيءٌ، والقول هنا بأن فلانًا مبتدعٌ شيءٌ آخر، فقد يقع الإنسان في البدعة مراتٍ، ولا يقال من أنه مبتدعٌ، ذلك أنه وصف الشخص إنما مبناه على ظهور الحجة، وإقامة البينة، وقد يفوت على الإنسان أو يكون مجتهدًا معذورًا في ذلك.

؟ ما الفرق بين أن يقال هذه بدعةٌ، أو هذا خلاف السنة؟

طبعًا كله خلاف السنة، لكن خلاف السنة أن الإنسان يقع فيها على سبيل الخطأ، وأما البدعة فهو على سبيل الالتزام، ولأجل ذلك قيل من أنها تضاهي الدين، ولأجل هذا جاء عن بعض السلف أنه قال ما حدثتْ عند الناس بدعةٌ، إلا اندثرت فيما يقابلها سنةٌ.

- ينبغي لنا أن نتوقى ذلك، وأن نحذره، وأن يوكل ذلك إلى أهل العلم، لأن بعض الطلبة في أول طلبه، وفي أول تحصيله، وفي أول ابتدائه، ما أن يعرف أن هذه سنةٌ، وأن خلافها فيه مخالفةٌ لها، حتى يرمي كل من خالف الفعل الذي فعله بأنه مخالفٌ للسنة، أو واقعٌ في البدعة، أو نحو ذلك، وهذا لا شك أنه بابٌ من أبواب الشر، وبابٌ من أبواب الاستعجال.

- لابد أن يعلم أن تعلق هذه الأحكام أو هذا الحديث بالعبادات والمعاملات، فكل عبادةٍ وقعت على غير أصلٍ صحيحٍ فهي مما أحدث في دين الله، وما أُحدث أو عُمل سواءً أحدثه الإنسان أو عمله، لأن الرواية الثانية: « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ ».

ما معنى « رد »، هذا مصدر بمعنى اسم المفعول، مردودٌ غير مقبولٍ.

- ففي هذا الحديث إشارةٌ إلى أن الأعمال إذا وقعت على غير الشرع فإنها غير مقبولةٍ، وبمفهومه أنها إذا وقعت موافقة للشرع فهي مقبولةٌ، مثاب عليها بإذن الله جلَّ وعلَا، ومثل ذلك المعاملات أيضًا، فإن أي معاملةٍ اختل فيها شرطٌ من شروط المعاملات الصحيحة أو نحوها، فإنها تكون كذلك أيضًا باطلةً، ولا يمكن تصحيحها، ولذلك جاء في الحديث: « كل شرطٍ ليس في كتاب الله فهو باطلٌ ».

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

الحديث السادس.

وهو حديث النعمان بن بشير، وقد ذكره المؤلف رحمه الله وهو من الأحاديث العظيمة في ذكر الحلال والحرام والمشتبهات.

{الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد..
فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين والمشاهدين وجميع المسلمين.
قال النووي رحمه الله: الحديث السادس:
عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الحلال بيّنٌ وإن الحرام بيّنٌ، وبينهما مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات قد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» رواه البخاري ومسلم}

- رواه النعمان بن بشير، وهو من صغار الصحابة من الأنصار، يقولون إنه أول مولودٍ ولد بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أربعة عشر شهرًا، وهذا يدل على أن تحمله للحديث كان حال صغره.
  فماذا نقول؟ وقد كبرت سننا وربما شابت لحانا، ونحن أقل ما نكون من الحرص على التفقه والعلم، والتعلم، وبذل الجهد، كيف وكثيرٌ من هذه الأمور في متناول أيدينا، ويسيرٌ علينا تلقيها، فما أحسن هذه الوصية لنا جميعًا أيها الإخوة، بأن نكون أحرص ما نكون على الخير والعلم وتلقيه والاجتهاد فيه.
- هذا حديثٍ عظيمٍ، ولذلك جعلوه من أمهات الأحاديث التي تدور عليها السنة، فبعضهم جعله ثالث الأحاديث مع حديث «**الأعمال بالنيات**»، وحديث عائشة «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**» ، فجعلوا ثالثها الذي تدور عليه الأحكام هو حديث النعمان بن بشير، لأن فيه إشارةً إلى جميع الأحكام، وإلى ما يتعلق بالمكلف فيما تبرأ به ذمته، وبما يتعلق به تكليفه عند الله جلَّ وعلَا.

وجاء ببيان الحلال وبيان الحرام، وبيان الأمور المشتبهات، وكيف يتعامل المسلم مع كل واحدٍ من هذه الأقسام.

قال: «إن الحلال بيّنٌ».

- هذا إشارةٌ إلى أول قسمٍ من الأقسام وهو: الحلال الخالص، الحلال الظاهر، الحلال البيّن، الذي لا خفاء فيه، ولا شبهة ولا إشكال، يعرفه العالم ويعرفه من دون ذلك من المتعلمين، وربما عرفه بل يعرفه حتى الجهال، من ذلك حل الأطعمة والأشربة من الماء والشراب والزروع والثمار الطيبة المباركة،هذا هو القسم الأول،

القسم الثاني، «وإن الحرام بيّنٌ»

- الحرام الذي جاءت الشريعة وتتابعت عليه النصوص بتحريمه أيضًا بيّنٌ، سواءً قلنا السرقة، الخمر، والزنا، الربا، السحر، ما يتعلق بكثيرٍ من الأحكام التي جاءت حرمتها، ودلت الأدلة على النهي عنها الغيبة، النميمة، الفحش في القول، إلى غير ذلك، فهذا أيضًا من الحرام البيّن الذي لا يجوز للمسلم أن يتعاطاه ولا أن يقرب منه، ولا أن يدخل فيه، والداخل فيه داخلٌ في الإثم والعدوان، متقحمٌ للشر والعصيان.

القسم الثالث: هو محل الحديث «وبينهما أمورٌ مشتبهاتٌ»

- بين هذه القسمين، الحلال البيّن والحرام البيّن ما هو مشتبهٌ بينهما، أو منزلةٌ بين هذين المنزلتين، أو برزخٌ بينهما. هذا هو ما يتعلق بالمشتبهات ، فلابد أن نعرف ما هو المشتبه؟ المشتبه من الشبه، وهو الشيء إذا اختلط وكان له قربٌ من شيءٍ أو شيئين أو أكثر، فهو إذن من **حيث هو في الأصل** فهو المختلط.

أما هو **فيما يتعلق بالاصطلاح** على ما جاء به الحديث، فإنه المتردد بين الحلال والحرام، وهذا ظاهرٌ من الحديث، المتردد بين الحلال والحرام عند المكلف.

- كما ذكر عند المكلف من جهة العين أو من جهة الحال والحكم، وهذا يندرج فيه مسألةٌ، وهو أقسام الاشتباه، لكن من أكثر ما يبين عن معنى الاشتباه، هو ما جاء في آية سورة آل عمران حينما قال الله جلَّ وعلَا: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ [آل عمران: 7]، هذا إشارةٌ إلى هذا النوع، فعندنا المحكم وهو البيّن، ويقابله المشتبه، والمحكم يدخل فيه الحلال البين والحرام البيّن، والمشتبه ما تردد بينهما.

- هذا ما يتعلق بالمتشبه، ما حقيقة هذا الاشتباه؟

الاشتباه إما أن يكون في الحكم، وإما أن يكون في العين والحال، كيف يكون في الحكم؟ يعني أن يتردد الحكم في مسألةٍ من المسائل بين الحل والحرمة، كما يتردد الفقهاء مثلًا في مسألة بيع العينة، عند الشافعية أنهم أجازوه، وعند جماهير أهل العلم أدخلوه في باب الربا، وعظموا الدخول فيه، وتعاطي هذه المسالة.

على سبيل المثال في مسائل العبادات ما يتعلق بالطمأنينة هل الطمأنينة ركنٌ كما هو مذاهب الجمهور، أم أنها ليست بلازمةٍ كما يقول به بعض الفقهاء كالحنفية.

فهذا يكون مترددًا بين حُكميْن، بين الحل والحرمة، بين وجوب الفعل أو جواز الترك، إلى غير ذلك من المسائل التي تتعلق بهذا وهي كثيرةٌ في الفقه.

- ولقائلٍ أن يقول: لماذا توجد مثل ذلك، الله جلَّ وعلَا كما ابتلى العباد بالإيمان، فإنه ابتلاهم في الإيمان بالاهتداء إلى الأحكام، فأراد الله جلَّ وعلَا أن يبتلي العبد، فينظر كيف يكون فعله، وكيف يطلب ما يحصل به رضى ربه،

واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهذا من الابتلاء والامتحان، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 141].

- هذا اشتباهٌ في الحكم، والاشتباه في الحال، هو أن تكون ثم عينٌ لا يدرى أهي داخلةٌ في الحلال أو الحرام، وأقرب ما يكون في ذلك ما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم لما رأى تمرةً، تمرةٌ من حيث لا شك أنها حلالٌ، لكن هل هي من تمر الصدقة فلا تحل للنبي صلى الله عليه وسلم، أم أنها من غير ذلك فتكون حِلًّا له.

فهذا اشتباهٌ في الحال، هل حالها أنها داخلةٌ في مال الصدقة أو لا؟ مثل ذلك لو وقع في بيت الإنسان ثوبٌ فطار إليه، ولا يدري هل هو ثوبه أو الثوب الذي سقط عليه من بيت الجيران، فهذا مختلفٌ في هذه العين، باعتبار الحال التي أحاطت بها.

فهذا اشتباهٌ لا من جهة أن ما في بيت الإنسان له، هذا لا يختلف فيها في الحل، لكن من جهة أنها هل هذه من ملكه أو هي مما سقطت عليه فهي حقٌّ متعلقٌ لغيره وهو جاره الذي يليه أو نحو ذلك.

- ما جاء من الآيات الدالة على صفات الله جلَّ وعلَا، وأفعاله وما ذكره أهل العلم في مسائل الاعتقاد، هي مسائل من المسائل المحكمة، لا من المشتبهات.

وأن من أدخلها في المشتبه، فإنهما هم بعض أهل الأهواء والضلال، وإلا فإنها جاءت بها دلالة الكتاب، وجاءت بها دلالة السنة، صريحةً صحيحةً، لا إشكال فيها، ولا غبار عليها، فكان قول أهل السنة والجماعة إنهم مؤمنون بهذه الأسماء والصفات، مثبتون لها، على ما جاء في الكتاب، وما جاء في السنة، لا يتجاوزون القرآن والحديث، ثم هم جعلوا ميزان الصفات والأفعال نعم ما جاء أيضًا في الكتاب: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، فيثبتونها لله على ما يليق بجلال الله جلَّ وعلَا، من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

ولذلك جعلوا قول الإمام مالك كالأصل في كل آيات الصفات، لما سئل عن الاستواء، قال: "الاستواء معلومٌ" يعني من حيث معناه في اللغة، "والكيف مجهولٌ" أما استواء الله الذي قال الله جلَّ وعلَا: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، كيف استوى، نقول الكيف مجهول، ثم قال: "والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ" يعني التشكيك وإرادة المعاني الباطلة أو نحو ذلك.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يعلمهن كثيرٌ من الناس»،

وفي هذا مسألتان:

- **أولاهما:** من جهة الأصل فإن الدين تامٌّ، وجاءت السنة لا نقص فيها، فالله جلَّ وعلَا يقول في كتابه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالكٌ».

ويقول أبو ذر: "لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائرٌ يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم علمًا".

إذن لا يمكن أن يأتي شخصٌ فيقول أن الاشتباه من جهة النقص في أن هذه لم يأت بها نصٌّ، أو لم يدل عليها دليلٌ، أو لم يأت فيها أثرٌ.

- وإنما النقص باعتبار المكلف وباعتبار البشر، ولذلك لما قال : «لا يعلمهن كثيرٌ من الناس» ، دل ذلك على أنه ولابد أن يوجد في الأمة من أهل العلم من يعرف تلك المسائل ويحيط بها، فإن غابتْ عن شخصٍ أو اثنين أو ثلاثةٍ أو مائةٍ من أهل العلم، أو طلبة العلم، أو هم جميعًا، فلابد أن يكون من أهل العلم من عرفها ووقف على معناها، وفتح الله عليه فيها.
- «لا يعلمهن كثيرٌ من الناس»، إذن مرد ذلك إلى الناس لا إلى أصل ما جاء به الشرع، وما دلت عليه السنن، وما ذكر الله في كتابه من إكمال الدين وتمام الملة.

وفي هذا فضيلة أهل العلم، الذين جعلهم الله جلَّ وعلَا نورًا يستضيء به الناس، يقفون على حقائق المسائل ويعرفون دقائقها، ويرشدون الناس إليها، وأيضًا فيه إشارة إلى أن لما قال: «لا يعلمهن كثيرٌ من الناس» ، إلى أنه ينبغي لكل أحدٍ أن يقصر عن أن يتكلم فيما لا يحسنه، وأن يتجرأ على ما لا يفهمه، وأن يبتدئ شيئًا لمجرد عارضٍ عرض له في ذهنه، أو لمجرد لفظٍ حفظه من ألفاظ الحديث أو غيرها، أو مقولةٍ لأهل العلم بدون ما تمحيصٍ وتدقيقٍ، وبدون ما جمعٍ وتحقيقٍ، فإن هذا من الافتيات، لأن النبي صلى الله عليه وسلم بين أن كثيرًا من الناس لا يعلمون العلم، فلا ينبغي له أن يدخل وأن يتلطخ وأن يرتكس في شيءٍ لا يحسنه، فيكون سبب بلاءٍ على نفسه، وعلى المسلمين.

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»،

- وهنا فيه إشارةٌ إلى أنه مهما بلغ الإنسان من العلم والجهد، فلابد أن يشتبه عليه بعض الأمور، يطلب منه اتقاؤها، ولأجل هذا تكاثر عن السلف التقوى في مثل هذا، جاء عن عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وهو خليفة خليفة رسول الله، أنه قال: **"إني لأجعل بيني وبين الحرام حاجزًا من الحلال لا أخرقه".**

وجاء عن سفيان أنه قال: **"أترك شيئًا من الحلال خوفًا من الوقوع.. حاجزًا بيني وبين الحرام".**

وجاء عن سفيان أنه قال: **"إنما سمي المتقون بالمتقين لأنهم تركوا ما لا يتقى خشية أن يقعوا في المحظور، وأنه لا يبلغ الإنسان درجة التقوى حتى يترك ما لا بأس به، خشيةً مما به بأسٌ"** إلى غير ذلك.

- «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه» ، وهنا إشارةٌ إلى أنه أيضًا قد يكون ممن ارتفعت درجتهم ممن تفوته هذه المسألة.
- فما وجه الاشتباه فيها؟

✓ إما أن يكون أهل العلم قد توقفوا فيها، كما يحصل ذلك في مسائل كثيرةٍ من مسائل العلم، وكما أيضًا يحصل في المسائل النازلة على وجه الخصوص، مما يتجاذبها مسائل كثيرةٌ، أو إشكالاتٌ متنوعةٌ، فتحتاج إلى شيءٍ من التروي، فيحفظ المفتي نفسه أن يقول في المسألة قبل أن يستوفيها، أو أن يستكمل ما يتعلق بها، أو أن ينظر حتى يُفتح له فيها.

✓ ومن جهةٍ ثانيةٍ أن الإنسان قد يرد عليه القولان، الحل والحرمة، ويكون من أهل العلم، ولم يتبين له شيءٌ، أو أنه سمعها من أهل العلم ثم إنه تردد فيها، يعرف أن أحدًا قال بالحل، وأحدًا قال بالحرمة.

وليس هذا على الإطلاق، فإن من المسائل ما تكون واضحةً، وأن المخالف فيها مرجوحٌ، أو مطروحٌ، أو هو في الخلاف الشاذ، فهذا ليس محلًّا للاشتباه، وإنما الكلام فيما إذا تقابل القولان، واشتد الخلاف في المسألة، فإن الإنسان يطلب له الاتقاء.

- فإذا كان من أهل العلم، فيأخذ بالاحتياط، فيتقي لنفسه، إذا كان من عامة الناس فإنه يأخذ بقول من يراه أعلم وأتقى، يعني يتحرى ولا يدخل في المسائل على غير وجهٍ صحيحٍ.

فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: «فقد استبرأ لدينه وعرضه»،

- فيه إشارةٌ إلى ما ينبغي للمكلف من أنه يحفظ عرضه ويستبرئ عرضه، ويمنعها من الدخول فيما قد يلحق بها البلاء والملامة.

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»،

- ولأهل العلم في هذا معنيان:
  - ✓ إما أن يكون المعنى: أن من وقع في الشبهات، فلما كانت الشبهات دائرةً بين الحلال والحرام، فإنه قد تكون الشبهة التي ظنها حلالًا صارت حرامًا، فيكون صادف الحرام.
  - ✓ وإما أن يكون المعنى أنه من كانت له طريقةً وعادةً أن يأتي الشبهات فإن ذلك يستجره به الشيطان حتى يقع في الحرام الصريح، ويحمله على الوقوع ويستهين بالحرمات فيواقعها، نسأل الله السلامة والعافية.

ولذلك من أراد السلامة في دينه فليطلب دائمًا الاستبراء والتوقي والتورع من ذلك،

قال: «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»،

- وهذه فيها كما يقولون حسن تعليمٍ من النبي صلى الله عليه وسلم حينما قرب ذلك بمثالٍ قريبٍ يعني يعرف الناس به حقيقة المسائل.
- لما قال: «كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه»، فيه إشارةٌ إلى أنه مهما كانت حاجة الإنسان إلى مثل هذه الأمور، فإن الراعي محتاجٌ إلى أن يرعى غنمه، وإن يأتي على الشيء الذي يكون فيه شبعها، وملء بطونها، فمهما كانت حاجته، إلا أنه يجب عليه أن يقصر، ومهما اشتد عليه الدافع والحامل إلا أنه يجب أن يقصر، وفيه إشارةٌ إلى ما يتعلق بالمجاهدة.
- وذكر أهل العلم هنا أنهم لما تكلموا على الشبهات، وأن الشبهات هي التردد بين الحلال والحرام، ذكروا مسألةً تتعلق بأصول الفقه، وهي هل الصواب واحدٌ، والحق واحدٌ، أو هو متعددٌ؟ هو كما يقول الجماهير ويقول أهل العلم وأهل التحقيق: أن الحق واحدٌ، وأن المصيب واحدٌ، وما يخالفه إما مخطئٌ معذورٌ، وإما مخطئٌ غير معذورٍ، وإلا لو كان القول إذا اجتهد الإنسان ولم يصب الحق كان مصيبًا، ما كان فيه شبهاتٌ، ما وقع في الشبهات.
- إذا اختلط مال شخصٍ حلاله بحرامه، فهل يكون ذلك مما يتقى أو لا؟

تكلم أهل العلم فيها كمثالٍ من الأمثلة التي يكثر وقوعها في المشتبهات، فقالوا: لا يخلوا إما أن يكون أولا: يعطيك من عين المال الحرام فهذا يُتقى، وإما أن يكون ماله جميعًا حرامًا، فهذا أيضًا يُتقى، فإن كان دون هذين الحالين، فلا يخلو إما أن يكون مما لا يدرى قليله أو كثيره، أو أن الحرام فيه قليلٌ، فهذا يقولون لا يُتقى ولا إشكال في ذلك، ولهذا جاء عن السلف الأخذ من أعطيات السلاطين وكان بعض السلاطين ربما ظلم، وأخذ الشيء على غير وجهه، ونحو ذلك من الأمور، أو أعطاه في غير وجهه، وتصرف على خلاف المصلحة فهذا معروفٌ في التاريخ

- في التاريخ على اختلاف العصور والأزمان، وذكروا لذلك أمثلةً أخرى، أو أنه لا يدرى كثير الحلال من الحرام، فالأصل هو الحلال ولا يجب على الإنسان أن يتقيه، وإن كره بعض السلف مواقعة ذلك والأخذ منه، لكن إذا كثر فجاء عن أحمد كراهية الأخذ منه، والكراهية تشير من جهة الأصل إلى الحل والإباحة، لماذا؟ لأنه لم يتمحض في الحرام، فلما لم يتمحض في الحرام فإنه لا يكون على الإنسان في ذلك غضاضةٌ إذا أخذ منه، فينبغي التنبه لذلك، لأن بعض الناس يغلظ على غيره إما قريبٌ أو صديقٌ أو جارٌ أو نحو ذلك إذا اختلط حرامه بحلاله، ولأنه خاصةً في هذه الأزمنة التي كثر فيها تعاطي الحرام، مصيبةٌ وبليةٌ كبرى لا يستطيع كل أحدٍ أن يتخلص منها أو يتورع عنها، مع أن الإنسان متى طلب لنفسه النجاة والسلامة، فلا شك أن ذلك خيرًا له ومن يقدر على ذلك.

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «ألا وأن لكل ملكٍ حمى ألا وأن حمى الله محارمه»

- وهذا قد جاء في كتاب الله نصًا ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: 187] آيتان من آيات الله -جلَّ وعلَا- تدل على عدم مواقعتها، وعدم قربانها وهو أبلغ من فعلها، «ألا وأن في الجسد مضغةً، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» ، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «لن يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه» ، وكما جاء في الأثر أن الجوارح تدعو القلب، فتقول إنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا، وإلى غير ذلك، ومناسبة ذكر هذه الجملة في هذا الحديث ظاهرةٌ من حيث أن كثيرًا من الوقوع في الشبهات إنما مبدأه ميل القلب وانحرافه، وهو الإشارة إلى أسباب الوقوع في الشبهات، فأولها وأعظمها وأشدها الهوى، فإذا انطوى القلب على الهوى والميل وإرادة الشهوة، فيحسن الإنسان لنفسه حتى يرى أن ذلك حلالًا وهو ليس بحلالٍ، أو أنه قال به من قال من أهل العلم أو أنه لم يتمحض بالحرام فيواقعه فلا يزال كذلك حتى يقع في الشرور كلها.
- أيضًا من أسباب الوقوع في الشبهات، قلة العلم وقلة أيضًا التأمل والتدرك والتدبر ، فإن من الناس من يتوقع في أمور دنياه وفي أموره الصحية، وفيما يتعاطاه في أمور معاملاته وغيرها، غير أنه أيسر وأسهل ما يكون في أمور دينه، ولذلك تجد على سبيل المثال مثالٌ واحدٌ في الحج، تجد أن الإنسان ربما أتعب نفسه حتى يبلغ بيت الله الحرام، فإذا بلغه فإذا هو لا يعرف الأحكام وأسهل ما عليه أن يسأل هذا الذي هو أكثر الناس جهالةً، بل لو رأى من عموم الناس وجهالتهم من يقول فيفعل فعلًا بأنه سنةٌ فعلها.. وهذا يدل على أن الإنسان مفرطٌ في هذا تفريطًا كثيرًا.
- هذا الحديث هو حديثٌ عظيمٌ وكتابه من أعظم ما فيه من الدلالة، وهو الحرص على صلاح القلب، وهو أصل صلاح الإنسان واستقامته وقيام دينه، فينبغي للإنسان أن يعكف على قلبه تصفيةً وإخلاصًا، صلاحًا وتوجهًا وقصدًا إلى الله -سبحانه وتعالى- ليحصل له بذلك بإذن الله -جلَّ وعلَا- الخير في الدنيا والآخرة .

الحديث السابع.

{قال -رحمه الله: الحديث السابع، عن أبي رقية تميم بن أوس الداري -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «الدين النصيحة» ، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم.}

- ما أعظم هذا الحديث مع اختصار لفظه وقلة معانيه إلا أنه حديثٌ عظيمٌ لا يستغني عنه مسلمٌ من المسلمين، ولذلك أيضًا ذكر بعض أهل العلم أن هذا رابع الأحاديث الأربعة التي يدور عليها الإسلام، ولذلك لما قال: «**الدين النصيحة**» فجعل الدين كله متعلقًا بالنصيحة، وكما يقول ابن رجب يعني أساسه وأصله النصيحة، وإذا جمعنا له الحديث الذي درسناه «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**» فمعنى ما ذكره في هذا الحديث من الإسلام والإيمان والإحسان هو داخلٌ أيضًا في هذا الحديث، وهو النصيحة.
- أبو رقية تميم بن أوس الداري، هو من عُبَّاد الصحابة، ولذلك ذكر أنه كان يقوم بآية الليل كله حتى بكى بكاءً كثيرًا وهي قول الله -جلَّ وعلَا- ﴿**أم حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [الجاثية: 21] وذكر أنه أيضًا من أول أسرج المسجد، كما ذكر ذلك في سيرته -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، وأيضًا قالوا هو أول من قص، أي أتى بالقصص التي تحيي القلوب، وكان قد استأذن عمر فيها.
- فهذا الحديث يتعلق بنصائح العباد الدينية والدنيوية، وفيه ما يتعلق بأمور العبادات والمعاملات، وأمور الناس في اجتماعاتهم، وما يكون بهم صلاحهم في علومهم وغيرها، لا ينفك شيءٌ من الأمور والأبواب إلا ويدخله هذا الحديث، وما أحدٌ طلب هذا الحديث في بابٍ من الأبواب، حتى جعل الله -جلَّ وعلَا- له باب التوفيق والهداية، أن الإنسان لا يخلو من أمرٍ من أمور دينه ودنياه، فيكون ناصحًا لغيره ويكون خير ناصحًا له، فكم يكون للناس من الكمالات، وكم يستدركون من الخلل، وكم يذهب عليهم من النقص، وكم يحصل لهم من الخير.
- فهذا حديثٌ عظيمٌ، وإذا كان الأمر كذلك، فلأجل هذا كان الصحابة أعظم ما يكونون اعتبارًا بهذا الحديث عنايةً به والتزامًا به، حتى أنه أحدهم ربما باع البيعة فينصح للمشتري بما يكون فيه إضرارٌ به في ظاهر الأمر، وإن كان ذلك حقيقته صلاح دينه وبركة دنياه، فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما.

لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة»،

- يقولون من نصح فهو ناصحٌ يقال عسلٌ ناصحٌ، وهو الخالص من الشوائب، ويقول أيضًا النصح والناصح ومن التآم الشيئين وهو اكتمالهما، ولذلك يسمون الخياط أحيانًا ناصحًا، لأنه يجمع الثوب ويخيطه البز ونحوه، هذا من جهة أصل هذه الكلمة، فإذا قلنا إنه خالصٌ من الشوائب تعرف أن النصح هو خلوصٌ من الشوائب، ولأجل ذلك من أحسن من عرف النصيحة أبو عمر بن الصلاح، كما نقل ذلك الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالى- فقال: هي كلمةٌ جامعةٌ تدل على قيام الناصح للمنصوح بوجوه الخير إرادةً وفعلًا، وجوه الخير كلها سواءً كان ذلك ما يتعلق بعبادة المرء أو معاملاته، أموره الدينية أو أموره الدنيوية الخاصة أو العامة، كل ذلك داخلٌ فيه.
- وهنا إشارةٌ إلى أنه يكثر في هذه الأزمنة الكلام على النقد والناقد، وهذا ناقدٌ وإعلاميٌّ ناقدٌ ونحو ذلك، لم يأتِ في الشريعة هذا اللفظ البتة، النقد والناقد، لأن النقد أقل وأنقص من النصيحة، النقد هو إبانة الخطأ، وإبانة الخطأ في الشرع ليست مطلوبةً، إنما المطلوب تصحيح الخطأ، ولذلك عبر بالنصيحة، كما أن لفظ النصيحة فيه معنى للمحبة والشفقة وإرادة الخير للمنصوح، ولذلك كان هذا أعظم ما عبر أو جاء به التعبير وهو التعبير النبوي «**الدين النصيحة**»،

قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله»،

- وفي هذا إشارةٌ إلى أنه ينبغي للإنسان أن يسأل عما يعنيه وعما يكون به تحصيل الخير له، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم: «لله» النصيحة لله، كيف تكون النصيحة لله؟ النصيحة لله بأن يعطى الله -جلَّ وعلَا- حقه، وأوجب ما أوجب الله على عباده من الحق هو توحيده والإيمان به، وتحقيق ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فلأجل ذلك كانت العناية بتوحيد الله -سبحانه وتعالى- أوجب ما تكون على المكلفين، وأول ما تكون على المؤمنين، وينبغي أن تشغل بذلك الخطب والمحاضرات والندوات والقنوات وكل الاجتماعات، وأن يتعلم الناس ما يكون به صلاح دينهم، لأن ذلك من النصيحة لله، والنصيحة لله -جلَّ وعلَا- هنا فيما يتعلق بحق الله الواجب واجبةٌ، ولا يسع الناس تركها أو التخلف عنها أو التقاصر فيها، ومن النصيحة لله أيضًا للموحدين أن يدعوا إلى توحيد الله، وأن يكملوا ذلك في عباد الله -جلَّ وعلَا- وأن لا يتقاصروا عن هذا الباب، وأن يؤدوه طلبًا للأجر والثواب من الله -جلَّ وعلَا- ودعوةً إلى الله لا إلى أنفسهم ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]، وتمام النصيحة لله النصيحة المستحبة وذلك إيثار الأمور التي أمر الله -جلَّ وعلَا- استحبابًا على حظوظ النفس وشهواتها، أما يكون مثلًا من قيام الليل فهو أمرٌ مستحبٌ، لكنه من نصح الإنسان لنفسه أن يقوم بحق الله -جلَّ وعلَا- في ذلك، وهو تمام النصح لله.

قال: «لله ولكتابه»،

- كتاب الله -جلَّ وعلَا- الذي هو القرآن، وهو كلامه الذي تكلم به كلامًا يليق بجلال الله -جلَّ وعلَا- لا نحرف ولا نعطي ولا نكيف ولا نمثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] فنؤمن به كما ذكر الله -جلَّ وعلَا- في كتابه أنه تكلم به وأنه يتكلم ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164] فنؤمن بذلك، ثم نؤمن بأن هذا القرآن حاكمٌ على الكتب التي قبله، كما قال الله -سبحانه: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48] وهو ناسخٌ له، فيجب على العباد نصحًا لكتاب الله أن يؤمنوا به على هذا الوجه، ويعظموه ويوقروه وأن يجعلوه حاكمًا على الكتب كلها، فإليه يتراجعون ويتحاكمون ويأتمرون، يصدقون أخباره، يمتثلون بما فيه من أوامر، وينتهون عن ما فيه من الزواجر، ويتعظون بكتاب الله -جلَّ وعلَا- وتمام ذلك ما يحصل من طلب الشفاء بكتاب الله من الرقية وغيرها، وعدم هجره والقيام بتلاوته، وإظهاره، وتمام ذلك أيضًا تعليمه ونشره بين الناس، ودعوة الناس إليه، فكل ذلك من النصح لكتاب الله -جلَّ وعلَا-، فهنيئًا لمن كان ناصحًا لكتاب الله، وهنيئًا لمن بلغ هذه الدرجة وملأ بذلك أحواله وأيامه، ولقي الله على ذلك،
- والنصح للرسول كالنصح لكتابه بالقيام بحق النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأول وأوجب ما يكون في النصح هو شهادة أن محمدًا رسول الله، وتحقيقها بالإيمان برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه ناسخٌ للشرائع قبلها، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بمقالتي هذه يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم لا يؤمن بي، إلا كان خالدًا في النار» كما روى ذلك مسلم في صحيحه، ثم يتبع ذلك ما يكون من أيضًا تصديق أخباره والإيمان به، واتباع أوامره واجتناب نواهيه وزواجره، وتمام ذلك أيضًا اتباع سنته، دعوة الناس إليها، حفظها، نقلها، نشرها، منع البدع والمحدثات، لأن ذلك تنقل للنص يح ة لله والنصيحة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر باتباعه والاقتداء بسنته وترك البدع والمحدثات.

قال: «ولأئمة المسلمين وعامتهم» ،

- النصيحة لأئمة المسلمين من المسائل التي جعلها النبي -صلى الله عليه وسلم- بها قوام الدين، فمن النصيحة لأئمة المسلمين، من هم أئمة المسلمين؟ أئمة المسلمين كما نصَّ كثيرٌ من شراح الحديث هم ولاته، وذكر بعضهم أنهم الولاة والعلماء الذين يلون أمر الناس ويقومون عليهم، ولا شك أن دخول الولاة في ذلك دخولًا أوليًّا ودخولًا أصليًّا، والنصح لأئمة المسلمين يتعلق في ذلك أولًا بالسمع والطاعة، وأول وأكبر ما يفرق أهل السنة عن غيرهم أنهم متبعون، مهتدون، سامعون، مطيعون لولاة المسلمين على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، لا يخرجون ولا يراؤون ولا يظاهرون الأئمة ويخالفونهم، وذلك لما يتعلق بذلك من المصالح ولما جاءت بذلك من الأدلة والسنن، وتكاثرت بذلك النصوص، ولذلك كان هذا من جملة ما جاء به أهل السنة في كتبهم.
- ومن النصح لأئمة المسلمين، معاونتهم على الحق وتذكيرهم به، والتنبيه على ما أغفلوه، ونصحهم فيه، ولذلك ثلاثٌ لا يغل عليهن قلب امرئٍ مسلم: الإيمان بالله ومناصحة من ولاه الله أمركم، ولزوم جماعة المسلمين، وتأملوا النصح، ولزوم الجماعة، أن النصح لا ينبغي أن يكون بما فيه تفريق الناس وتأليبهم على الولاة وخروجهم عليهم، فعندنا النصح وعندنا حفظ الجماعة، ولما كان النصح لا يتأتى إلا بحفظ الجماعة، وأن النصح مع تخريب الجماعة هو ذهابٌ للنصح، وذهابٌ للجماعة كلها، فإنه ينبغي إذا تعارضا أن يُغلَّب جانب حفظ الجماعة، ولأجل ذلك لما تكلم أهل العلم في الإسرار بالنصيحة لولي الأمر، ماذا قصدوا بذلك؟ لم يقصدوا بذلك حفظ شخصه، أو لمصلحةٍ، أو يطلبون منه دنيا، أكثر من نصح للأئمة المسلمين هم أبعد الناس عن أمور دنياهم، ومع ذلك ينصحون الناس بذلك، حتى إن الإمام أحمد، الذي جُلد بيد السلطان، وعُذب، كان أكثر الناس أمرًا للاستقامة على أمر السلطان، وعدم الخروج عليه، لما يتعلق بذلك من المصلحة، ولذلك لما قالوا لأسامة: ألا تدخل على عثمان فتنصحه؟ قال: أترون أني إذا نصحته أسمعكم؟ لو أسمعتكم لانفتح بذلك بابٌ، وإني لا أحب أن أكون أول من فتحه. يعرف أنه ينفتح بذلك باب الشر، على المسلمين، وفي هذا جاء الحديث: «فلا يدخل على السلطان علانيةً، فليكن بينه وبينه، فإن قبل منه، وإلا فقد أدى ما عليه» ، وإن تُكلم في هذا الحديث، إلا أن معناه صحيحٌ، وجاء عن ابن عباس: إن كنت ولابد فاعلًا، فبينك وبينه، لماذا؟ لئلا تسقط هيبة ولي الأمر، ولئلا يخرج العوام، فيفهموا ذلك أنه مناوئةٌ له، فيكون بذلك فسادٌ عظيمٌ.
- ولذلك من الكلام الذي يذكره أهل السنة، يقولون: الأئمة لهم ذنوبٌ كالجبال، ولهم حسناتٌ كالليل، إذا جاء الليل غطى الجبال، فهذا مما يحفظون به جماعة المسلمين، يقولون هذا الكلام حتى لا تتغيظ القلوب إذا رأوا بعض الأخطاء والمنكرات، إذا لم تبلغ الكفر البواح، وتحقق الشرطان، وما يحصل تبعًا لذلك.

ولأجل هذا ترون أنه ما حصلت منافرة للسلطان وخروج عليه، إلا كان بسبب ذلك البلاء العظيم، ولذلك أهل السنة في فتنة ابن الأشعث، لما خرجوا على الحجاج، الذي قتل في ذلك اليوم، أعظم ممن قتلهم الحجاج في كل ولايته.

- قال: ولأئمة المسلمين، ويدخل في ذلك كما قلنا أهل العلم، والنصح لهم بمعرفة قدرهم، وتوقيرهم، وتبجيلهم، وما يكون أيضًا من الاقتداء بهم، والأخذ عنهم، وحفظ علومهم، ونشرها، وما يعلق بذلك مما يكون فيه الخير والصلاح.

ومن أعظم ذلك أيضًا دمج زلتهم، وعدم إشهار عثرتهم، وأعظم من ذلك أن يتكلم فيهم، لحوم العلوم مسمومةٌ، فمن أراد نقص إيمانه، وحصول السلب في قلبه، فليتصور على ذلك، ولأجل هذا قال ابن المبارك: ومن تكلم في العلماء ذهبت آخرته؛ لقربهم من الله -جلَّ وعلَا- ولفضلهم.

- أما التنبيه على الأخطاء، فإذا كان ذلك مما يتعلق بالناس، فإنه ينبه على خطئه، والحق أحق أن يتبع، وهذا من النصيحة لله ولرسوله، وأما إذا كان مما يتعلق به، فإن النصح ينبغي أن يتوجه إليه، وألا تشاع له العثرة، وألا ينقص في قلوب العامة؛ لئلا يكون بذلك سبب شرٍّ كبيرٍ، وبلاءٍ كثيرٍ.



قال: ولأئمة المسلمين وعامتهم.

- النصح لعامة المسلمين، ولذلك جاء في حديث جرير، قال: بايعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الإسلام، والنصح لكل مسلمٍ، وإذا استنصحك فانصح له. فينبغي للمسلم أن ينصح المسلم في كل الأمور، ومن النصح للمسلمين القيام على مصالحهم، حفظ ما أُسند إليك من ولاياتهم، أن يُسعى في ما يتعلق بمرافقهم، من أفسد على المسلمين مكانًا، أو طريقًا، أو بابًا، أو أجرى فيه شرًا، أو مثلًا أظهر فيه سوءًا أو ترك فيه قمامةً، فذلك من عدم النصح للمسلمين.

من وقع في خطأٍ، من وقع في شرٍّ، من قصر في طاعةٍ، من قارف سيئةً، فإن النصح له يجب أن يُبذل.

- النصح لعامة المسلمين في الأمور كلها، وكلما كان أقرب إليه لجوارٍ، أو لقربةٍ، أو لمصاهرةٍ، أو لغير ذلك، كان ذلك أحق وألزم.
- ومتى تكون النصيحة واجبةً؟ ومتى لا تكون واجبةً؟

النصيحة مشروعةٌ بلا شكٍّ، وتتعين عليك إذا كان لا يقوم بها غيرك، أو لا يوجد من يحسنها، أما إذا قام بها فهي من فروض الكفايات التي حصل بها المقصود. فينبغي للإنسان أن يكون أكثر سعيًا إلى تحقيقها، وإذا قُوم بها فلا تنزل عن درجة الاستحباب والسنية؛ لأن ذلك من باب التعاون على البر والتقوى.

- مسائل النصح الحقيقة من المسائل التي غابت عند كثيرٍ من الناس، ولما غاب النصح حصل أنواعٌ من البلاء؛ لأنه بغياب النصح غابت الشفقة والمحبة، وطلب الخير للغير، ونحو ذلك، ففشا عند الناس الغيبة، والنميمة، والفحش، والانتقاص، وسماتٌ كثيرةٌ، ثم بعد ذلك تبعه التفرق، والتباعد، والتناحر، والخصومات وغيرها.

فلذلك ينبغي للإنسان أن يُكثر الشفقة على الناس والنصح لهم فإن ذلك سبب خيرٍ كثيرٍ، والجزاء من جنس العمل، فإن من أحسن إلى الناس ونصحهم، يوشك أن ينصحه في حالٍ يحب أن ينصح فيها، ويستدرك فيها ما يكون من نقص دينه أو دنياه.



الحديث الثامن.

{قال -رحمه الله: الحديث الثامن: عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى» رواه البخاري ومسلم}.

- هو من الأحاديث العظيمة، وحديثٌ جليلٌ، وفيه إشارةٌ مهمةٌ إلى مسألةٍ، وهي عظم أمر الإيمان بالله -جلَّ وعلَا- حتى أنه تستباح به الدماء، وتزهق فيه الأرواح، لماذا؟ تحصيلًا لهذه المصلحة الكبرى، وهو الإيمان بالله -جلَّ وعلَا-، وأيضًا فيه إشارةٌ إلى الغاية التي لأجلها خُلق الخلق، فإنهم خلقوا لعبادة الله.



الدرس السادس

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



الحديث الثامن.

{قال -رحمه الله: الحديث الثامن: عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى» رواه البخاري ومسلم}.

- هو من الأحاديث العظيمة، وحديثٌ جليلٌ، وفيه إشارةٌ مهمةٌ إلى مسألةٍ، وهي عظم أمر الإيمان بالله -جلَّ وعلَا- حتى أنه تستباح به الدماء، وتزهق فيه الأرواح، لماذا؟ تحصيلًا لهذه المصلحة الكبرى، وهو الإيمان بالله -جلَّ وعلَا-، وأيضًا فيه إشارةٌ إلى الغاية التي لأجلها خُلق الخلق، فإنهم خلقوا لعبادة الله.
- حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة».
- كنا استهللنا الحديث عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم من جهة ماذا؟ من جهة الإبانة عن عظم توحيد الله سبحانه وتعالى، وأنه أعظم المهمات، وأعظم الواجبات، وأول ما ينبغي للمكلف أن ينقاد إليه، وأن يمتثل له هو توحيد الله سبحانه وتعالى.

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» ، وكما قلنا في الدرس الماضي، لما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، فالغاية من خلق العباد هو توحيد الله سبحانه وتعالى.

- فمن تخلف عن التوحيد فإن حياته لا فائدة منها، فلذلك أُزهقت الأنفس، وأُريقت الدماء لأجل تحقيق هذه الكلمة والدعوة إليها.

هذه مقدمةٌ تذهب بأناسٍ كثيرين إلى مسائل متنوعةٍ، وهي مزلة قدمٍ من جهة أن بعض الناس قد يأتي على دين الإسلام وعلى سنة نبينا عليه الصلاة والسلام بشيءٍ من إرادة الطعن أو أن ينفث سمومه، أو يريد أن يدخل

الشبه على دين الله سبحانه وتعالى، فلأجل ذلك من أهم ما ينبغي أن يقال هنا **أنه يتفرع على هذا الكلام مسائل.**

❖ **المسألة الأولى: أنه لا إكراه في دين الله جلّ وعلَا،**

- ألم يقل الله سبحانه وتعالى آية تتلى إلى يوم القيامة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ [البقرة: 256].
- النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرةٍ ومن أشهرها حديث ثوبان، **«اغدُ فإنك تأتي قومًا أهل كتابٍ، فإما أن يجيبوا إلى لا إله إلا الله، وإما العهد والجزية، وإما أن تقاتلهم».**
- فمن عاهد على أن يبذل الجزية، وأن يترك القتال، ويبقى على دينه وعلى معتقده وعلى هويته، فإن ذلك مقرٌّ عليه في دين الإسلام.

ومن أبهر الأمثلة على ذلك أن اليهود الذين كانوا أشد مناكفةً للنبي صلى الله عليه وسلم، وعلما بصدق دعوته، ومعرفة بما جاء في كتبهم عنه من المبشرات به، ومع ذلك كانوا بجواره في المدينة ، هل أطرهم على الإسلام أطرًا، هل قهرهم على ذلك قهرًا.

بل إنهم بقوا ومعاهدين للنبي صلى الله عليه وسلم، أهل ذمةٍ، ومع ما حصلت منهم من الممارسات حتى نقض منهم من نقض من العهد، وجرت في قصصهم باعتبار قبائلهم ما تعرفونه وتحفظونه بنو قينقاع وبنو النظير وبنو قريظة، ولكل حادثٌ جاءت به السنة، ودلت على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

لكن من حيث الأصل جاورهم النبي صلى الله عليه وسلم، كان يجيب دعواتهم، كان يبايعهم ويشاريهم، أيضًا دخلوا في أمانه، فيجب على أهل الإسلام أن يدفعوا عنهم إلى غير ذلك.

❖ **المسألة الثانية: قوله: «أمرتُ أن أقاتل الناس»، هل في الشرع قتالٌ؟ هل في دين الإسلام قتالٌ؟**

- نقول نعم، جاء فيه قتالٌ، لكن هل هذا القتال قتال جاء في الشرع ملقى على عواهنه، ولا خطام له ولا زمام، وكلٌ يفعله كما يشاء، وكلٌ يستحق القتل، لا، وكلا، بل ثم شريعةٌ مفصلةٌ، وأحكامٌ منزلةٌ، وتفاصيل مبينةٌ جاءت بها السنن، ودلت عليها الأحاديث، وتكلم عليها فقهاء الإسلام، ودون في كل كتاب من كتب الفقه على اختلاف المذاهب واختلاف الأزمان والأماكن.

لا يؤتى هذا إلا على وجهٍ صحيحٍ، ولا يتحمله إلا من أذن له بتحمله، ولأجل ذلك جاء في هذا الحديث أنه قال: **«أمرتُ أن أقاتل الناس»** ، فالآمر هو الله والمأمور هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أهل العلم: فإنه مما ينبغي أن يتبين أن الجهاد إنما يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من ينوب منابه ممن له الإمامة العظمى، وتقرر ذلك عند أهل السنة والجماعة أن القتال مع كل إمامٍ برٍّ أو فاجرٍ.

- كما أنه مما يتقرر عند أهل العلم أن الجهاد إنما مبدأه الإمام، ودولة الإسلام، فلا يمكن أن يبدأ القتال من جهة آحاد الناس في دولةٍ بقوا فيها معاهدين، وأتوها آمنين، وأتموا عهدًا بينهم وبين من دخلوا في ديارهم، وآووا إليهم، فكل ذلك مما ينبغي أن يُعلم أنه من أعظم المسائل التي جاء بها الشرع ودلت عليها الأدلة، ونص عليها هذا الحديث الذي هو حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: **«أمرتُ أن أقاتل الناس».**
- لا يمكن أن نقول ليس في الشرع قتالٌ، فيه قتالٌ، وقتال طلبٍ، وقتال دفعٍ، وهذا مقررٌ، لكن على أصولٍ صحيحةٍ ، فما دام أن الأمر على أصلٍ صحيحٍ، وعلى منهاجٍ قويمٍ، فإن ذلك لا غضاضة فيه.

ولذلك حتى في غير دين الإسلام، سواء في النصرانية أو في اليهودية أو في غيرها، فإن ذلك متقررٌ، ومع ذلك لم يوجد ما وجد في شريعة الإسلام من التفاصيل التي في ابتداء القتال، وفي توجهه، وفي احترام العهود، وفي النظر في المواثيق، وفي عدم الإكراه، وفي النظر إلى تفاصيل المسائل في أحكام القتال حال قيامه، والبعد عن قتل من لا يقاتل، والنساء، والضعفة، والصغار، والعباد، وأهل الصوامع ونحوها.

وأيضًا ما يكون بعد انتهاء المعارك من مسائل في الأسرى وأحكامهم، والوفاء بالعهود أو الهدن ونحو ذلك، فكل ذلك مبينٌ في دين الإسلام، ظاهرٌ في شريعتنا، فعلم به أن هذا من أعظم ما جاءت به هذه الشريعة، فليس هذا مما ترمى به، بل مزيةٌ من مزاياها، مما نفاخر به، ونعلم أنه لم يأت شرعةٌ بمثل ما جاءت به شرعة الإسلام.

❖ **المسألة الثالثة: من المسائل التي تتعلق بحديث ابن عمر رضي الله تعالى عنه، لما قال: «أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله»، فيه إشارةٌ إلى ما يحصل به الإسلام، هو تحصيل الشهادة.**

- فإن قال قائلٌ: ظاهر الحديث أنه لا يتأتى ذلك إلا بقوله «**حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**»، فهل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شرطٌ لحصول الإسلام أم لا؟

المتقرر عند أهل العلم أن الدخول في الإسلام يحصل بالشهادتين، شهادة لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولذلك جاءت في روايات حديث ابن عمر هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**»، وعلى ذلك تدل دلائل الأدلة الأخرى، ففي حديث ابن عباس في قصة بعث معاذ إلى اليمن لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنك تأتي قومًا أهل كتابٍ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أجابوك إلى ذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلواتٍ في اليوم والليلة ..**»، إلى آخر الحديث.

- فإن قال قائلٌ كيف نجيب عن هذا الحديث؟

نجيب عن هذا الحديث بما ذكرنا في الرواية الثانية ثم إن المقصود هنا إما أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من مكملات تحقيق الشهادتين، ولذلك قال بعض أهل العلم أن تارك الصلاة يكفر، وإما أن يقال -وهذا أولى لأنه يأتي الإشكال في الزكاة، والزكاة تاركها لا يكفر- وإما أن يقال المقصود هنا هو التزامها، فإن من شروط لا إله إلا الله القبول والانقياد والاستسلام، فكان ذلك معنى صحيحًا ولا إشكال فيه.

- قوله: «**ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام**»، فيه إشارةٌ إلى المسألة المتقررة عند أهل العلم، وهو أن من أهل الإسلام من امتنع عن شعيرةٍ من شعائره الظاهرة، وفريضةٍ من فرائضه المتحققة، فإنه يقاتل.

إنه إجماعٌ عند العلماء أن من ترك واجبًا من الواجبات الظاهرة، سواءً كان فرضًا عينيًّا، أو فرضًا كفائيًّا، فإنه يقاتل، وهذا يؤخذ من ماذا؟ ممن مثل هذه الدلالة، قال: «**عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام**».

فمن حق الإسلام أن يقيموها، فلأجل ذلك قد ينبعث إلى قتالهم الإمام، ومع ذلك لا يكون قتالهم على سبيل الكفر، وإنما إقامة هذه الشعيرة والالتزام بها.

ولذلك جاء عند البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يُغير على قوم انتظر، فإن سمع مؤذنًا أو مناديًا وقف، وإلا أغار عليهم، فمن هذا أخذ أهل العلم.

لو تركوا سنةً أو تمالئوا على ترك سنةٍ من السنن، لأهل العلم فيه خلافٌ، إذا تمالئوا على تركها، والإعراض عنها، فبعضهم يقول بالقتال، وبعضهم لا يقول، لكن المتقرر ما يتعلق بالوجوب، سواءً كان وجوبًا عينيًّا، أو وجوبًا كفائيًّا.

ولأجل ذلك كان هذا الحديث من أعظم الأحاديث التي استدل بها فيما يتعلق بقتال المرتدين في عهد أبي بكر الصديق، وقتال مانعي الزكاة.

- من العرب من ارتد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، فيصدق عليهم هذا الحديث: **«أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ..»**، ولأنه جاء في حديث ابن مسعود: **«لا يحل دم امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاثٍ، التارك لدينه المفارق للجماعة»** فاندرجوا في هذا الحديث.
- ومن منع الزكاة منع فريضةً قد يكون مع بقائه على أصل الملة والدين، لكن هو ممانعٌ، فاستحق القتال من أجل هذا الحديث، ولأهل العلم في ذلك تفاصيل معروفةٌ، فلأجل ذلك كان قتالهم ظاهرًا، وهذا أيضًا مستقرٌ عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قيض الله له أبا بكر حتى استقر ذلك عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعًا، لما قال: "لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة".

فكأنه جعل -كما يقول ابن رجب وغيره- محل إجماعٍ في أن من تركها يقاتل، وهذا أيضًا عند عامة الفقهاء.

- ثم قال: من فرَّق بين الصلاة والزكاة، ويأتي هذا الحديث في الاستدلال به.
- وهنا ينبغي أن نقف عند مسألةٍ مهمةٍ وهي حرمة دم المسلم، فمن أسلم فقد عصم دمه، وحفظ. والنبي صلى الله عليه وسلم قال: **«المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم»**، الله جلَّ وعلَا في كتابه يقول: **﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾** [النساء: 93]، وقبلها: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً﴾** [النساء: 92].

الأحاديث الدالة على ذلك، النبي صلى الله عليه وسلم لما قال: **«زوال الدنيا برمتها أهون من إراقة دم مسلمٍ»**، ولما قال عن حرمة الكعبة: **«ما أعظم حرمتك على الله جلَّ وعلَا ولحرمة دم المسلم أعظم عند الله منك»**.

فكل هذا يدل على حرمة دم المسلم، ولأجل هذا يتفرع الحديث عن بعض سفهاء المسلمين في هذه الأزمنة، الذين استباحوا الدماء عبر جماعاتٍ أو منظماتٍ غاية ما جمعوه بعض الدلالات أو الأحاديث أو الأهواء وبدأوا يثورون على المسلمين، ويسيرون فيهم قتلًا وإراقةً لدمائهم واستباحةً لأنفسهم، كل ذلك من الأهواء الشيطانية، والبلايا، والنبي صلى الله عليه وسلم قد حذر من أولئك وهم الخوارج، الذين يخرجون على الأمة، يقتلون برها وفاجرها، ولا يترفعون عن استباحة دماء المسلمين.

- لأجل ذلك أنا أوصي الإخوة طلبة العلم وأوصيكم وأوصي كل من وصل إليه كلامي هذا أن يعلموا أن الشرع عظيمٌ، وأن الدين منزلته كبيرةٌ، والله جلَّ وعلَا يقول: **﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾** [المزمل: 5]، يقولها لنبيه صلى الله عليه وسلم، فلا ينبغي لطالبٍ في أول طلبه، ولا لمن ابتدأ العلم في أول مراحله، ولا من قطع في ذلك شوطًا، أن يفتات على المسلمين في هذه المسائل الكبار وفي مثل هذه المسائل العظام.

فهذا هو عمر رضي الله عنه وأرضاه مع جلالة قدره لما خفيت عليه المسألة في أول الأمر لم يكن له لينازع أبا بكر وإنما راجعه، ولم يكن له ليخالفه، بل سأله، يقول: "فلما زلت حتى شرح الله صدري لذلك".

فيُعلم من هذا أن المسائل الكبار إنما لها الأئمة الكبار والعلماء، لا ينبغي لها الصغار أو الطلاب، أو المتهاونون بالدماء، المسرعون إلى الفتن، الفرحون بالضلالات والمحن نسأل الله السلامة والعافية.

❖ المسألة الرابعة: أن تعلقات الأحكام في الشريعة إنما هي بالظاهر.

- «فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» ، وحسابهم على الله جلَّ وعلَا، فإذا كانت سرائرهم نظيفةً صحيحةً فهذا إلى الله، وهم مقبولون عند الله، وإن كان دون ذلك فأمرهم إلى الله.
- ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم قبل من المنافقين، واستدل بهذا الحديث بعض أهل العلم كما نص على ذلك ابن رجب وغيره أن توبة الزنديق عند بعض أهل العلم مقبولةٌ، بناءً على هذا الحديث وهو أنه من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، فقد عصم دمه وحسابه على الله جلَّ وعلَا.

الحديث التاسع.

{قال المصنف: الحديث التاسع:
عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم». رواه البخاري ومسلم}

- أبو هريرة من المكثرين من الرواية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالحفظ حينما بسط رداءه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان من جملة حملة الأحاديث الصحيحة، وكانت السنن في كل من جمعها تعود كثيرٌ من الأحاديث إلى أحاديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

مسائلتتعلق بهذا الحديث.

❖ المسألة الأولى:

- لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما نهيتكم فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم» ، في هذا الحديث أول ما يمكن أن نقف عنده وهو العلم، بأن الاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أصول أهل الإسلام، لا يصح لعبدٍ الإيمانُ حتى يكون مستجيبًا مهتديًا مقتديًا مستنًّا بسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه» ، فدل على أن الاستجابة لرسول الله هي في معنى شهادة أن محمدًا رسول الله، وأن من مقتضياتها التصديق لأخباره، والإتمار بأوامره، والانتهاء عن زواجره.

❖ المسألة الثانية:

- ولأجل ذلك من جاء في هذه الأزمنة من ضلال المسلمين، أو من المنحرفين نسأل الله السلامة والعافية، فقال: لا نقبل إلا ما في القرآن، فأولئك مخالفون لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكتاب الله، ففي كتاب الله الأمر بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أكثر من ثلاثين آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: 59]، ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً﴾ [الأحزاب: 36]، ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ [الأحزاب: 66، 67].

- ولذلك حذر النبي صلى الله عليه وسلم من أولئك، وهم الذين يسمون بالقرآنيين، في أن أحدكم متكئًا على أركيته يأتيه الخبر مني، فيقول: ما كان في كتاب الله أخذته، وما كان دون ذلك فلا، أو كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، فأولئك الذين حذر منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- وهذا الحديث دالٌّ دلالةً ظاهرةً على الاستجابة والاستقامة على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

❖ المسألة الثالثة:

- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه» وهنا مسائل تتعلق بالنواهي ، وهي أن النهي الذي نهى عنه الله جلَّ وعلَا، أو نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن في امتثاله أجرًا، وفي البعد عنه ثوابًا، إذا كان للعبد فيه نيةٌ، وإذا كان له فيه قصدٌ بالبعد عن المحرم، لأن النهي من الرسول صلى الله عليه وسلم، والامتثال لرسول الله صلى الله عليه وسلم طاعةٌ، فكان ترك النهي طاعةً لله جلَّ وعلَا، وطاعةً لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان العبد إذا نوى بذلك الامتثال مطيعًا لله -سبحانه وتعالى- ومطيعًا لرسوله صلى الله عليه وسلم.
- قوله: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه» يدخل في هذا جميع النواهي سواءً أن كانت نهي تحريمٍ كالسبع الموبقات مثلًا، الشرك والسحر والزنا والخمر ونحوها، أو كان ذلك من المحرمات الأخرى كالكذب ونحوه، وبعضهم عدى شيئًا من هذه في الكبائر، وبعضهم لم يعدها، على كل حالٍ سواءً من المحرمات التي هي دون الكبائر من الصغائر أو كان ذلك مما نهيه نهي كراهةٍ، بمعنى أنه يثاب التارك ولا يستحق العقاب من فعل ذلك، فهذه من الأشياء ولأهل العلم تفاصيل فيما يتعلق بما كان نهيه نهي كراهةٍ وما كان نهيه نهي تحريمٍ، وبعضها ظاهرٌ بيّنٌ في الحرمة وبعضها دون ذلك، وبعضها مترددٌ.
- ومن أكثر النواهي التي تدخل في المكروهات ولا تصل إلى المحرمات، ما يتعلق بالآداب الشرعية كما نص على ذلك أهل العلم ، فإنهم قالوا: إنه كونه من الآداب قرينةً صارفةً له من الحرام إلى الكراهة، مثل الأكل بالشمال، والشرب بالشمال ونحو ذلك، فقد دلت السنة على أنه من الآداب سيكون مكروهًا غير محرمٍ.
- قال: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم» ، الاجتناب هو المجانبة والمباعدة ولذلك قال الله -جلَّ وعلَا: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35]، ثم قال: «وما أمرتكم به فأتوا به ما استطعتم» ، والله -جلَّ وعلَا- في كتابه يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16] وفي ذلك أحاديث ودلالاتٌ كثيرةٌ بأوامر الله وبأوامر رسوله -صلى الله عليه وسلم- ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: 54] إلى غير ذلك من الأدلة، لكن ما ينبغي الوقوف معه هنا، لما قيد الأوامر بالاستطاعة وأطلق النواهي في الاجتناب مطلقًا، هذه المسألة كبيرةٌ ولأهل العلم فيها كلامٌ، منهم من قال بناءً على هذا الحديث أن اجتناب النواهي أعظم من امتثال الأوامر، وذلك لأنها مطلقةٌ ليست مقيدةً بالاستطاعة، وهذا مال إليه أحمد، ومال إليه الحسن البصري وجاء عنه فيه كلامٌ، وجاء عن جماعةٍ من السلف، ولذلك بعضهم يقول مثلًا: ترك دانقٍ من المحرم خير من خمسمائة حجةً، دانق هذه مبلغ بسيط عندهم من الفلوس النافقة التي لا اعتبار بها، ولأجل ذلك قال بعضهم: لن يترك أحد المحارم حتى يكون من أعبد الناس، ويقول بعضهم أيضًا إن الأوامر والنواهي يأتي بها البار والفاجر، لكن المعاصي لا ينتهي عنها إلا الصلحاء والأتقياء، فهذا قولٌ لبعض أهل العلم وهو معتبرٌ، ولأجل ذلك حتى ابن رجب كأن عنده ليس مثل التردد وإنما محاولة الجمع بين ذلك، لكنه قال ويشبه هذا ما جاء عن أحمد أن النواهي جاءت صعبةً ومطلقةً، وأن الأوامر جاءت مقيدةً بالاستطاعة.

- بعض أهل العلم نحا منحًا آخر وقال: إن الأوامر أعظم لكن لما كانت النواهي لا يحتاج فيها إلى عملٍ وإنما غايتها تركٌ، والعمل هو الذي يحتاج فيه إلى كلفةٍ ومشقةٍ وطاقةٍ، فلأجل ذلك هي التي قيدت بالاستطاعة، لأنها فيها انبعاثًا وعملًا أما النواهي فيها تركٌ، وهذا له وجهٌ وإن كان ابن رجب -رحمه الله- كان رد ذلك وقال: حتى النواهي إذا انبعثت النفس وتطلعت إلى شهوةٍ من الشهوات كشرب خمرٍ أو إتيان محرمٍ من النساء أو نحو ذلك، فإنه لا يكاد يسعف النفس ويحجبها إلا شيئًا يضطر فيها كبيرٌ من الإيمان بالله -جلَّ وعلَا- والخوف منه وهكذا.
- فعلى كل حالٍ يحتمل هذا وهذا، ومما ذكروه فيما يتعلق بذلك أن بعضهم يقول إن اجتناب النواهي هنا متعلقٌ أو مقارنٌ بنوافل العبادات فهو أعظم، وأما الأوامر من حيث هي أوامر فإنها أعظم من كونها مقصودةٌ بذاتها، ولكونها ترك جنس العمل أي لا يعمل الإنسان عملًا يذهب إيمانه، لكن النواهي فعلها لا يقتضي ذهاب الإيمان، أيضًا الأوامر مقصودةٌ لذاتها، وأما النواهي مقصودةٌ لغيرها لما يترتب عليها من المصالح الشرعية، حتى الشرك بالله -جلَّ وعلَا- تحقيقًا للتوحيد، فعلى كل حالٍ هي متأرجحةٌ بين هذا وذاك، من أهل العلم كما ذكرنا من غلَّب جانب النهي وأنه أعظم، ومنهم من قال الأوامر وفيما ذكرناه من أحاديث ما يدل على عظم الأوامر، ولا يتأتى للإنسان صلاحٌ إلا بالإتيان للأمرين، اجتنابٍ للنواهي ومباعدةٍ لها وحمل نفسه على ذلك، والإتيان بالأوامر، وأن يتقي الله ما استطاع، لأنه مهما بلغ فإنه لابد أن يكون مقصرًا ولذلك من رحمة الله أنه أنزل في كتابه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، وجاء في الحديث الذي في الصحيح أن الله -جلَّ وعلَا- قال: «قد فعلتُ»، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، قال الله -جلَّ وعلَا: قد فعلتُ، فهذا من رحمة الله -سبحانه وتعالى- بعباده المؤمنين.
- ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «فإنما أهلك من كان قبلكم، الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»، كثرة المسائل هنا قال كثرة المسائل ولم يقل السؤال، لأن السؤال قد جاء الأمر به في قول الله -جلَّ وعلَا- ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، وجاء من يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى جاء جبريل، وجاء ذلك كما تقدم بنا، والصحابة أيضًا كانوا يفعلون ذلك، إن لاقوا العدو غدًا وأنه ليس معنا سكاكين، أفنذبح القصب، وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بما يدلهم عليه، كل هذا يدل على إباحة السؤال إذا احتيج إليه، فمن منهي عنه؟ المنهي عنه الكثرة، والكثرة المقصود بها هنا إن ما يكون فيه دعوةٌ إلى التعنت أو تشريع ما يكون فيه مشقةٌ على المسلمين، ولذلك جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- «أكثر المسلمين جرمًا من يسأل المسألة فتحرم لأجل مسألته» كما في الحديث الذي في الصحيح، وسكت عن أشياء رحمةً بكم فلا تبحثوا عنها أو تسألوا عنها، فهذا من المسائل المهمة وهو عدم التشقيق أو التعنت في المسألة، ولذلك بنو إسرائيل إنما أهلكهم تعنتهم في المسألة كما في قصة البقرة وذبحهم حتى جعل الله -جلَّ وعلَا- عليهم في ذلك من الكلفة كادوا أن لا يستطيعوا حمله.
- والثاني أيضًا مما يدل على هذا ما جاء في الحديث لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «إنما الله فرض عليكم الحج»، قال رجلٌ: يا رسول الله أفي كل عامٍ؟ فغضب النبي -صلى الله عليه وسلم- غضبًا شديدًا، قال: «لو قلتُ نعم لوجبتْ، الحج مرةً فما زاد فهو تطوعٌ»، يقولون: ثم قال: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» وأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101].

- وإن مما جاء أيضًا مما داخل في هذا الحديث وإن كان هذا أيضًا مختصًّا بزمن النبوة وزمن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن بعضهم كان يسأل أسئلةً لا فائدة فيها، من أبي؟ أين ناقتي؟ كما جاء ذلك في البخاري، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾، ولذلك كان المهاجرون لا يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- بل كانوا ممنوعين من ذلك، لذلك يقول النواس بن سمعان: جلست مع النبي -صلى الله عليه وسلم- سنةً ما منعني من الهجرة إلا أن المهاجر لا يسأل، ولذلك كان الصحابة يقولون: كنا نفرح بالرجل يأتي من البادية يكون عاقلًا يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن المسألة.
- على كل حالٍ جماع ذلك أن المنهي عنه هو كثرة الأسئلة، سواءٌ تعلق ذلك بزمن النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي يكون فيه تعنتٌ أو يكون فيه نوع استهزاءٍ أو ما لا فائدة فيه، أو ما يكون بعد زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- مما يحصل فيه اتباعٌ للأهواء، وتشقيقٌ للأمور، وتكلفٌ فيها، وتعنتٌ منها، ولذلك ذكر شراح الحديث أن كثرة الأسئلة تمنع الانتهال، ولذلك ذكر هذه المسألة بعد ما أمرتكم به فاستطعتم، فكثرة التشقيق ونحو ذلك كم تحمل على ذلك، ولأجل هذا جاء عن الصحابة النهي عن هذا، لما سألوا أُبي بن كعب، قال: أرحنا من هذا حتى يقع فننظر ألك رأيًا، وجاء نحوٌ من ذلك عن بن عمر لما ذكر.. الحجر، قال: أرأيت أن زاحمت، قال: اجعل أرأيت باليمن، يعني لا تتكلم، وجاء عن السلف وذكر في الأثر النهي عن الأغلوطات، ما الأغلوطات؟ هي كثرة المسائل إذا حصل كذا، إذا حصل كذا.
- وجاء عن عليّ -رضي الله تعالى عنه- أن من علامات الساعة والأمور.. وتعلم الدين بغير العنت، إنما يتعلم الدين للدنيا وللنقاشات والجدال، كان الإمام مالك لما سئل قال: تكون عندي سنةٌ أجادل عليها، قال: لا، أخبر بها فإن قبلت وإلا فاسكت، ولم يكن ديننا دين جدلٍ ولا دين مراءٍ ولا من أخذٍ وردٍّ، وإنما هو دين استسلامٍ وانقيادٍ وقبولٍ وطمأنينةٍ واهتداءٍ بسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم.
- فهذا الحديث من أعظم الأحاديث وكثرة المسائل، وإن هذا إذا كان ابن وهب ذكر عن مالك يقول: أدركت أهل هذه البلدة، أي المدينة، وكانوا يكرهون المسألة ليس كحال الناس اليوم، إذا كان هذا في حال الإمام مالك فكيف بالناس اليوم وهم يتشدقون بالأسئلة ويشققون المسائل، ويسألون عما لا حاجة لهم.
- لابن القيم -رحمه الله تعالى- في إعلام الموقعين كلامٌ جميلٌ في هذا، فيقول: المسائل إما أن كانت من المسائل التي دل عليها الدليل فالسؤال عنها صحيحٌ، حتى ولو لم تقع لأنه من الفقه في ديننا، ومثل ذلك المسائل التي لم تقع ولم يأتِ بها دليلٌ لكن مما يظن وقوعها، فيحتاج إليها، كمسألة الجمع لو كانت السماء ملبدةً بالغيوم، ولذلك قالوا: إن لاقوا العدو غدًا وإنا لا نجد سكاكين، فماذا نفعل فيما يذبحون به.
- قالوا والثالثة هي التي جاء عن السلف النهي عنها، وهي المسألة التي لم يأتِ بها نصٌّ ولا يظن وقوعها، فيكون السؤال عنها تكلفًا وتحمل على ذلك كراهية السلف وأحاديثهم.
- هذا ما يتعلق بقول النبي -صلى الله عليه وسلم- «وكثرة مسائهم واختلافهم على أنبيائهم» ، ما أهلك الناس بأعظم من المخالفة للأنبياء، وترك أوامرهم ومشاقتهم فيما جاء عنهم، الناس اليوم قدموا العقود، الناس اليوم ذهبوا إلى الآراء، الناس اليوم قنعوا بما عند فلانٍ الشرقي أو فلانٍ الغربي أو في النظريات، أو في الأمور التجريبية أو غيرها، حتى خالفوا أقاويل الأنبياء والمرسلين وما جاء في الكتاب وما جاء في السنة، فذلك عنوان البلاء وسبب الفساد وحصول الشر في الأرض، والله -جلَّ وعلَا- يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف: 56]، من أعظم الفساد هو مخالفة أنبياء الله -جلَّ وعلَا- والرسل، فما دعا الناس إلى غير سنةٍ إلا دعوا إلى ضلالٍ،

ودعوا إلى بلاءٍ، ودعوا إلى شرٍّ ، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوى متبعًا، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بخاصة نفسك»، لا تعظم رأيك فالأمر ليس في تعظيم الآراء ولا في الانقداح والمشي إليها.



الحديث العاشر.

{الحديث العاشر: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإنَّ الله -تعالى- أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب. يارب. ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغُذي بالحرامٌ، فأنى يستجاب له» رواه مسلم}.

- هذا الحديث وهو حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- من الأحاديث العظيمة التي اشتمل على مسائل مهمةٍ، مما قام عليه دين الإسلام وأن كل ما اشتملت عليه الشرائع هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- وشعائر دينه، فإنها طيبةٌ في اعتقاداتها وفي أقوالها وفي أفعالها، مستمدةٌ من كمل لله -جلَّ وعلَا- من الصفات وتم له من الصفات -سبحانه وتعالى- ونزه عنه من النقائص، لأنه لما قال: «إن الله طيبٌ» إشارةٌ إلى أن الشيء إذا طاب ثمره وتم، وتنزه عما ينقصه وعما يعكره، فكان تمام الكمال للأسماء والصفات وتنزه عن النقائص كلها.
- ومناسبة قول النبي -صلى الله عليه وسلم- «إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا» أن من آثار كمال الله -جلَّ وعلَا- تنزهه عن النقائص كمال هذه الملة، وكمال هذه الشرعة، ثم أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان طيبًا تامًّا مكتملًا بشروطه وقيوده وإتيانه على ما جاءت به الأدلة، لما قال: «إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا» ، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: 24] أي كلمةٍ أعظم من كلمة التوحيد؟ بها يصفو القلب، وبها يلتفت عن الخلق، وأي خلدٍ حينما تتوجه النفس إلى صلاةٍ، أو إلى قبرٍ أو إلى عبدٍ من العباد أو إلى بهيمةٍ من البهائم، هل بينهما مقاربةٌ؟ أعظم ما يكون بينهم من المقاربة، فلذلك كانت كلمةً طيبةً وكان تحقيقها طيبًا وكان ضدها خبيثًا.
- تأمل قول الله -جلَّ وعلَا- ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10] الكلم الطيب والعمل الصالح، فما كان من الكلام فيه إحسانًا، ما كان من الكلام فيه نصحٌ، ما كان منه سلامٌ، ما كان منه دعاءٌ، ما كان فيه تخفيفًا لمصاب مريضٍ أو تعزية مصابٍ أو غير ذلك فهو طيبٌ فهو مقبولٌ، وما كان دون ذلك من صفات: الغيبة، النميمة فلا يكون مقبولًا، أي شرعةٍ أعظم من ذلك؟
- كل في ذلك الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، طيبين بماذا؟ بالإسلام، بالاستقامة على شرائعه، بالاستمساك بحبله، بالائتمار بأوامره، بالابتعاد عن نواهيه، وضده من يكون على الخبث وظلموا أنفسهم، فتقبضهم الملائكة على أسوء حالٍ وأسوء خاتمةٍ، نسأل الله السلامة والعافية.
- فلأجل هذا قال: «إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا» ، وكان أن هذه الشرعة طيبةٌ في كل أحكامها، ومن كمال طيبها أنها خففت على المعسر ويسرت على ما كان فيه مشقةٌ، ورفع الحرج ولم يكن فيها شيءٌ يكون على العباد فيه بلاءٌ ومحنةٌ لا يطيقونها ولا يحتملونها، وإلا فما يكون في التكاليف من تكاليف هذا ابتلاء الله -جلَّ وعلَا- ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 141].

- إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، وقوله «لا يقبل» هنا ما المراد بنفي القبول هنا؟ نقل ابن رجب ونقل غيره ممن شرحوا هذا الحديث، إما أن يكون النفي للقبول للعمل مطلقًا فيلزم القضاء، وإما أن يكون نفيًا للثواب كما جاء في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- «إن الله لا يقبل صلاة العبد الآبق» أي الذي هرب من سيده، وإن كانت الفريضة قد أديت عنه، لكنه لا يقبل له عملٌ، والثالث: الثناء وتحصيل الأجر والمثوبة عند الله -جلَّ وعلَا-، وكثير من أهل العلم قال: إن المقصود هنا هو نفي حصول الثواب والثناء على صاحب ذلك بالعمل ، لأن الله -جلَّ وعلَا- قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27] على أن هذه المسألة فيما يتعلق به نفيٌ العمل من حيث الصحة أو عدمه ونفي القبول، يعني له تفاصيل عند أهل الأصول بحسب العبادات، لكن هنا لما قال: «لا يقبل» الظاهر تعلقه بالثواب والثناء على الفاعل كما نقل ذلك أهل العلم.
- فيندرج على ذلك مثلًا من حج بمالٍ غير مباحٍ، محرمٌ أو مسروقٌ أو مغصوبٌ أو نحوه، أيضًا من صلى صلاةً في مكانٍ مغصوبٍ أو في ثيابٍ مغصوبةٍ، ولأهل العلم في ذلك تفاصيل لا يسع الحديث عنها على وجه التفصيل.
- هنا قال: «وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين» فقال -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ . وقال -تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: 168]، كل ذلك جاءت به آيات الله -جلَّ وعلَا- ونطق به كتابه، فكان أعظم ما في هذه الشرعة أنها جاءت بكل ما يكون فيه طيبٌ تطيب به النفوس، وتطيب به القلوب، وتطيب به الحياة ويطيب به الحال، ويطيب به العبد بعد الممات كما قلنا في الآية التي تتوفاهم الملائكة طيبين، فنعم ما جاء به كتاب الله وجاءت به سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وحقيقٌ بنا أن نفرح بهذه الشرعة وأن نستمسك بهذه الطيبات، وأن نستقيم عليها، وليعلم العبد أنه مهما انتقل مما جاء به الشرع إلى غيره إلا وقع وارتكس في الخبائث، الذي يترك النكاح إلى الزنا، فهو يتلطخ بالمحرمات ويتلطخ بالدنس ولا ينفك من بلاء ذلك وعاره وبلائه في الدنيا وفي الآخرة، والذي يتخلف عن مجالس الخير والبر والإحسان، فإنما ينتقل إلى مجالس السوء والشر والسباب والشتائم، والذي ينتقل من أكل الطيبات والمباحات فإنما ينتقل إلى المحرمات والنجاسات وغيرها أيا كان انتقاله.
- هذا من الأمور التي جاء به الحديث «ثم ذكر الرجل يطيل السفر: أشعث، أغبر، ثم يمد يديه إلى السماء: يا رب. يا رب. ومطعمه حرامٌ، ومشربه حرامٌ، وملبسه حرامٌ، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له» ، هذا بابٌ من أهم الأبواب التي جاء فيها طلب الطيب من القول، وهو عبادةٌ من العبادات وطلب أسباب القبول فيها والبعد عما يكون مناعًا منها، ولما كان من أعظم ما يحتاج إليه العباد في هذه الدنيا التعلق بالله ورجاء الله ودعاء الله والتوجه إلى الله -جلَّ وعلَا- أحوج ما يكون إليه العبد في كل أحواله، منكسرًا بين يدي الله، مخبتا لله، خاضعًا لله، مهما علا قدره، فإذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على هذه الحال فمن دونه أحوج ما يكون إلى الله، وإلى دعاء الله -جلَّ وعلَا- إن كان ملكًا أو أميرًا أو وزيرًا أو رفيعًا أو تاجرًا وبيعًا أو حقيرًا، كلهم لا يستغني عن الله -سبحانه وتعالى.
- فلأجل ذلك جاء هذا الحديث في ذكر أسباب الإجابة وتحصيل ما يتعلق بالتعلق بالله -جلَّ وعلَا- والأسباب المعينة على ذلك والبعد عما يكون مانعًا منه.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس السابع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



تابع الحديث العاشر.

- كنا وقفنا عند قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر».

ما المناسبة التي لأجلها ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعد قوله: إن الله لا يقبل من العمل إلا طيبًا، ذكر الدعاء؟

ولعل ذلك لا شك أنه راجعٌ إلى أهمية الدعاء، **وأهمية الدعاء يتعلق بها أمران:**

❖ **الأول:** أن الدعاء هو العبادة، وهذا جاء صريحًا في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء في قول الله جلَّ وعلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

❖ **الثاني:** إن حال العبد في هذه الدنيا مهما علت منزلته، أو ارتفعت درجته، أو قوي بأسه، أو عظم جنده، أو اتسع ملكه، أو كثر محبوه، فإنها لا تغني عنه من الله شيئًا، وإنه لا يزال فقيرًا منقطعًا، لا يزال محتاجًا إلى الله جلَّ وعلَا، ليس في شأنٍ دون شأنٍ، ولا في حالٍ دون حالٍ، ولا في كبيرٍ دون صغيرٍ، بل في كل شيءٍ.

ولذلك قال الله جلَّ وعلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

- فليس أحدٌ إلا فقيرٌ إلى الله جلَّ وعلَا من أهل هذه البسيطة كلها، من الجن أو الإنس، من البهائم أو غيرها، فإن الفقر صفةٌ ملازمةٌ للعبد في كل حالٍ وآنٍ، وإن الدعاء أيضًا من جهةٍ أخرى، إذا قلنا إن الحاجة الدينية والحاجة الدنيوية، أيضًا لا تنفك أعمال العبد المؤمن كلها من أن تكون عبادة لله جلَّ وعلَا دعاءً، وذلك إما أن يكون دعاءً ومسألةً، وطلبًا وحاجةً، وإما أن يكون تعبدًا وتذللًا، وغاية ذلك في أن يطلب رضا الله سبحانه وتعالى وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه.



فهنا لما قال: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر».

- هنا ذكر مهماتٍ تتعلق بالدعاء، هي أسباب الإجابة، وهي طريق تحصيل المطلوب والوصول إلى الحاجة، وتحقيق البغية التي يبتغيها العبد من الله جلَّ وعلَا، «ثم ذكر الرجل يطيل السفر» ، لما ابتدأ بإطالة السفر، السفر من أسباب الدعاء، ولذلك جاء في الأحاديث عند ابن حبان وغيره ممن لا ترد دعوتهم: المسافر.

- لماذا المسافر؟ المسافر يلحقه التشعث يحلقه الانقطاع، يلحقه الانكسار، يلحقه الانكشاف والتعري، ما دام الإنسان قريبًا من أهله، فهو في حوطتهم وقوتهم، ويدفعون عنه، ويعينونه، يصلحون له شأنه، ويقضون له حاجته إلى غير ذلك، لكن إذا سافر الإنسان فهو في العراء منكشفًا، وحيدًا، في ليله وفي نهاره، يعالج طعامه وشرابه وطريقه وذهابه ومجيئه، وكل أحواله، وهو في أمرٍ لا يدري إذا أمسى أن يصبح، وإذا أصبح أن يمسي.
- وكل ما كان الإنسان أكثر انقطاعًا وانكسارًا كان أقرب إلى الله جلَّ وعلَا، وأدعى لأن يظهر الإخبات، وأن يتوجه إلى الله وأن يظهر منه الإخلاص لله سبحانه وتعالى .

فهي أحوال من الأحوال التي تكون من أسباب الإجابة، ولذلك في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره» ، فذكر من أحواله أنه أشعث أغبر ذي طمرين، يعني ثوبين باليين وحاله منكسرةٌ بين يدي الله سبحانه وتعالى.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا إذا خرج للاستسقاء، وهي من أعظم الأحوال التي يكون فيها الانكسار، خرج متبذلًا، متخشعًا، كما جاء ذلك في الحديث عند أهل السنن.

- وكان بعض السلف يطلب ذلك في كل أحواله، حتى يطلب ذلك في بعض ثيابه، يعني إذا أراد أن ينكسر بين يدي الله وله حاجةٌ عند الله سبحانه وتعالى يطلبها، من أمر الدنيا أو الدين، فإنه يظهر الانكسار حتى في الثياب التي يلبسها، لا يلبس أحسن ثيابه؛ لأنه كلما كان الإنسان سواءً في مظهره وفي منطقه وفي حاله منكسرًا كان ذلك أدعى للإجابة.

«أشعث أغبر»،

- وإذا اغبرَّ الإنسان من الغبار، وأتت عليه هذا، فهو أيضًا من شدة ما نزل به وأصابه.

«يمد يديه إلى السماء»،

- مد اليدين من أكبر أسباب إجابة الدعاء، ولذلك جاءت بها السنة صريحةً، وقد عد بعض أهل العلم فيها أكثر من أربعين حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك مندوبًا في كل حالٍ من أحوال العبد إذا دعى، إلا ما جاء الدليل باستثنائه، وما الذي جاء الدليل باستثنائه؟ حال الخطبة فقط، وإذا كان استسقاءً في الخطبة فإنها ترفع فيه الأيدي.

وذكر أهل العلم **صفات رفع اليدين**،

- ❖ **الحالة الأولي:** منها أن يرفع يديه يكون ظهروهما إلى الأرض وبطونهما إلى السماء.
- ❖ **الحالة الثانية:** أن تكون ظهورهما إلى القبلة وبطونهما إلى وجهه،
- ❖ **الحالة الثالثة:** أن تكون بطونهما إلى الأرض وظهورهما إلى السماء، وهذه كيف؟ يعني أن يبالغ في الرفع، حتى يكون ظهورهما إلى السماء، وبطونهما إلى الأرض، وذكر بعض أهل العلم وممن نص على ذلك ابن رجب عكس القبلة يعني أن تكون ظهورهما إلى القبلة وبطونهما إلى وجهه وعكسها، يعني ظاهرها هذا، وإن كان يعني فيها شيءٌ من الإشكال، ولكن يقولون إن هذه تناسب حال الاستجارة بالله جلَّ وعلَا.

«يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب»،

- وهذا سببٌ من أسباب الإجابة، وهو نداء الله جلَّ وعلَا، وكثرة الإلحاح على الله، فلما قال: يا رب يا رب فهذا فيه إظهار الإلحاح، والإلحاح وجهٌ من أوجه الاستكانة والانكسار بين يدي الله سبحانه وتعالى.

إذا قال يا رب يا رب يا رب وأعاد النداء، فكل ما أعدتَ هذه الكلمة زاد في القلب الانكسار، والانقطاع والفاقة وظهور الحاجة، والتعلق بالله سبحانه وتعالى، هذا من جهة، التكرار.

وجاء عن عائشة مرفوعًا أنه إذا قال العبد يا رب قال الله جلَّ وعلَا: لبيك، وجاء ذلك عن يزيد الرقاشي وغيره، أن العبد إذا قال يا رب يا رب قال الله جلَّ وعلَا: لبيك لبيك.

- وجاء عن عطاء رضي الله عنه أنه إذا قال يا رب ثلاثًا، نظر الله إليه، يعني نظر إجابةٍ وإعطاء، ولأجل ذلك يقول أهل العلم في أن كثيرًا من الأدعية في القرآن جاءت بلفظ ربنا، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201]، ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 193]، ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

فيقولون إن هذا لفظٌ وهو لفظ الربوبية، وأن الله جلَّ وعلَا هو المعطي وهو المتفضل وهو المنعم، وهو المدبر للأمور، وبيده تصاريفها، وبيده الأرزاق وبيده الخلق، وبيده النعمة، وبيده الرحمة، فإن ذلك أرجى لإجابة الدعاء.

هنا لما قال: «ومطعمه حرامٌ ومشربه حرامٌ وملبسه حرامٌ»،

- هذا إشارةٌ إلى الموانع، وذكرنا أنه جاء في بعض الآثار شرحٌ لهذا الحديث أنه لو قام الإنسان مقام السارية، لا يمكن إلا أن تكون قائمةً، لم يقبل منه إلا أن يكون مأكله حلالٌ.

وذكرنا ما جاء في من ذهب للحج بمأكلٍ حرامٍ، فيقال حين يقول لبيك اللهم لبيك، يقال: لا لبيك ولا سعديك، زادك حرامٌ وعملك مردودٌ غير مقبولٍ، نسأل الله السلامة والعافية.

وهنا لما قال المؤلف رحمه الله تعالى: «ومطعمه حرامٌ ومشربه حرامٌ وملبسه حرامٌ وغذي بالحرام» ، أن الحرام وأكله من أعظم موانع الدعاء، وهو من أكثرها، ولذلك نص عليه في هذا الحديث.

ولا يلبس كثيرٌ من الناس إلا ويصيب شيئًا من ذلك، ولا أظن إلا أنا قد أصبنا ليس قليلًا وإنما كثيرًا والله المستعان.

- في هذا الحديث إشارةٌ إلى أنه كلما كان الحرام أكثر كان عدم الإجابة أظهر، أو أقرب، ولذلك ما قال: ومطعمه حرامٌ وانتهى، قال: «ومطعمه حرامٌ ومشربه حرامٌ وملبسه حرامٌ، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك».

ولذلك جاء في هذا أحاديث كثيرةٍ ، «أي لحمٍ نبت من سحتٍ فالنار أولى به» ، وما كانت النار أولى به فإنه بعيدٌ عن رحمة الله، وبعيدٌ عن إجابة الله جلَّ وعلَا.

وفي ذلك يذكر بعض السلف عبارة تلك المرأة التي توصي زوجها وتقول: يا فلان اتق الله في مطعمنا، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار، يمكن أن نجوع ولا نأكل، لكن أن نأكل حرامًا فندخل النار فإن ذلك لا نطيقه.

«فأنى يستجاب لذلك»

- قال أهل العلم فأنى هنا جاءت على سبيل الاستفهام والاستبعاد، يعني أن ذلك بعيدٌ أن يستجاب له، فدل هذا أنه مهما استجمع الإنسان من أسباب الإجابة وتكثر منها، إذا لم يتحر البعد عن موانع الإجابة فإنه لا يجاب له،

وأن على المسلم أن يرعى الأمرين جميعًا، حصول الأسباب الموصلة، وقطع الموانع العائقة بينه وبين وصول دعائه، وإجابة سؤاله وإعطائه مبتغاه.

وما بين هذا وذاك يعني من قوة المانع أو غلبة الأسباب هذا بابٌ واسعٌ، والله جلَّ وعلَا يتولى العباد فيه، لكن الواجب على كل مسلمٍ أن يرعى الأسباب قدر استطاعته، وأن يتنحى ويبتعد عن الموانع بقدر ما يتحصل له من الأمور.

- هذا الحديث من الأحاديث العظيمة، فيه إشارةً إلى أسباب الإجابة وعظم أمر الدعاء، وفضل الله جلَّ وعلَا في عباده، وعظم هذه الشريعة وما جاءت به من الطيب، وأن كلها تكمل وتنزع إلى الخير وطيب الأشياء، سواءً كان ذلك فيما يختص بالعبادات أو كان في المعاملات والبيع والشراء والمكاسب والمعاوضات، وسواءً في ذلك ما يتعلق بالعلاقات، والأمور التي تتعلق بالناس في اجتماعاتهم، إلى غير ذلك من تفاصيل أحكام الشريعة .



الحديث الحادي عشر.

{الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد..
فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين والمشاهدين وجميع المسلمين..
قال النووي رحمه الله: الحديث الحادي عشر
عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته، رضي الله عنهما، قال: «حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي حديثٌ حسنٌ صحيحٌ}

- هذا الحديث حديث الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه وأرضاه، سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانته، كما جاء ذلك في الحديث، «الحسن والحسين ريحانة أهل الجنة» ، وفيه دليلٌ على فضلهما ومنزلتهما، وجاء في الحديث أيضًا أنهما سيدا شباب أهل الجنة، وجاء في الحسن خصيصةٌ وهو أنه يصلح الله جلَّ وعلَا به بين فئتين عظيمتين وهذا كله يدل على فضله وعلى ذلك عقيدة أهل السنة والجماعة في معرفة قدر آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما خصهم الله جلَّ وعلَا من الخصيصة، وأنزلهم به من المنزلة، ولذلك جاء في حديث غدير خم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله» ثم قال: «وعترتي»، وهذا حثٌّ على القيام بحقها، ومعرفة منزلتها.
- وهذا الحديث وهو حديث الحسن بن علي عند الترمذي بإسنادٍ لا بأس به، وهو طويلٌ وهذا من جملته، قال: «حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» ، وهو حديثٌ جملته يسيرةٌ وسهلةٌ، لكنها عظيمة المعاني وصدق النبي صلى الله عليه وسلم: «أعطيت جوامع الكلم».
- فهذا الحديث فيه إشارةٌ إلى مسألةٍ مهمةٍ وهي أن هذه الشريعة جاءت بما تطيب بها النفوس، وبما تتيقن بها القلوب، وبما يكون به تحصيل التمام والكمال، وبما يكون للإنسان فيه علمٌ ويقينٌ بأن ذلك فيه اتباعٌ واهتداءٌ، وفيه استنانٌ واكتمالٌ لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.
- فلا يأتي إلى الريب ولا يأتي إلى الشكوك، ولا ينزع إلى الأوهام، فيكون ذلك طردًا لما هو أبعد منها من الأحلام والرؤى وغيرها التي بعض الضلال ينزع إليها، فيجعلها سببًا للتشريع أو يعمل بما عنَّ في فكره، وبما أملاه عليه عقله،

فإن ذلك لا يكون، «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» ، ما استرابه الإنسان بمعنى أن مرد الرِّيب ودفعها ليس إلى الأشخاص وإنما إلى ما جاءت به الدلائل والسنن، الأدلة والبراهين من كتاب الله جلَّ وعلَا وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

- فهذا الحديث أصلٌ في ذلك، فلقائلٍ أن يقول، طبعًا ما يريبك بفتح الياء وبضمها، يريبك إلى ما لا يريبك، والريب هو ما يكون من الشكوك والريب والظنون والأوهام التي تعلق بالنفس وتتحرك في الخواطر، وتمنع من حصول الطمأنينة، ولذلك جاء في بعض روايات الحديث: «فإن الطمأنينة خيرٌ وإن الشك شرٌّ» ، أو ما في معنى ذلك، مما يدل على هذا.
- لقائلٍ أن يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» ، ما الفرق بين هذا الحديث وحديث النعمان بن بشير الذي قال فيه: «وبينهما أمورٌ مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثيرٌ من الناس»، وهل هذا هو ذاك، أو لا؟

لا شك أن الشريعة جاءت مكملةً بعضها لبعضٍ، ومتسقةٌ ومتشابهةٌ، فدلالاتها متقاربةٌ، لا يبعد هذا الحديث من ذاك الحديث، ففيه من الدلالة ما في ذاك، من البعد عن المشتبهات والابتعاد عن ما تكون فيه الأمور التي يتنازعها أمران، ويتداخلها دليلان، ثم يحصل بعد ذلك شيءٌ من الشكوك في أيهما الراجح أو أيهما المقدم أو أيهما الأصح والمعتمد والمعتبر.

هذا من جهةٍ، لكن في هذا الحديث إشارةٌ أخرى، وهي أن الريب أحيانًا متعلقها إلى الأمر في ذاته، وأحيانًا إلى الشخص في نفسه، فأراد هنا أن يبين أيضًا ما يتعلق بالإنسان في نفسه، وأنه إذا علقت به ريبةٌ، قد يكون مأخذها كما قلنا إلى الأمر في نفسه، فيكون مردها إلى ذلك الحديث، وقد يكون إلى الإنسان في نفسه لصفةٍ اختصت به، أو حالٍ تعلقت به.

- ولأجل ذلك تتابع السلف على المنع من الحديث عن هذا المعنى والكلام عليه، **ابن مسعود رضي الله تعالى عنه يقول:** "إذا جاءتك الريبة فاتركها، فإذا كانت الريبة واحدةً، فإن أربعة آلاف طريقٍ لا ريبة فيه".

يعني الطرق السليمة كثيرةٌ ولله الحمد والمنة، هذا من جهةٍ، **وجاء عن عمر أنه قال:** "اتركوا الربا والريبة، فما ارتبتم فيه فدعوه، وإن لم تتحققوا أنه ربا"، وهو إشارة إلى الأمور المشتبهة

- لكن مما يدل على أن متعلق ذلك إلى الشخص في نفسه أن شرّاح الحديث ذكروا جملةً من الآثار عن السلف تتعلق بذلك.

فذكروا عن حسان أو ابن أبي حسان، من السلف، نسيت اسمه، أنه لما أرسل إليه عاملًا له أو غلامًا، يقول: إن السكر نزلت به آفةٌ، في محل زراعته، فقام واشترى من السوق، ثم لم يلبث وقتًا حتى أعطي فيه ثلاثين ألف درهم، فجاء إلى البائع وقال: أما إنه قد أعلمني غلامي أنه حصلت به آفةٌ، وإن لم أكن قد أخبرتك، فأقلني من بيعتي، قال: الآن أخبرتني وقد طابت بها نفسي، فرجع.

ثم رجع إليه مرةً أخرى، وقال: أما إني لا أستطيع أن أفعل، وإني قد أتيت هذا الأمر من غير وجهه، فأقلني، فأقاله.

انظر إلى الوقع والخشية ولذلك قال بعض السلف يقول: أهون ما يكون على العبد الورع، إذا رابه شيءٌ تركه، وصحيحٌ أنه من جهة السهولة في وضوحه، يعني في مسلك الورع ونحوه، وإن كان على النفس من تسلط شهواتها، وذلك شيءٌ عسيرٌ، وإنما يوفق له من جاهد نفسه وحملها على ذلك.

ولذلك أيضًا يقولون إن الحجاج بن أبي دينار حصلت له نحوٌ من هذه الحادثة، وذلك أنه أرسل بطعامٍ إلى البصرة ليبيعه غلامه أو وكيله، فمكث قليلًا لما وصل إلى البصرة، فارتفع سعره، فلما كتب إلى الحجاج قال: والله لقد خنتنا، يعني نحن إنما أمرناك أن تبيعه أول نزولك، فخشي أن يكون عليه في ذلك إثمٌ فقال: بعه وتصدق بجميع ثمنه، وعسى الله أن يكفر عنا.

انظر إلى ما حصل في قلوبهم، مثل أبي مكرم -رضي الله عنه وأرضاه- يقولون جمع طعامًا أو احتكر طعامًا عنده، ذكر ليس بمعنى الاحتكار منع الطعام على سبيل العموم، وإنما يعني أنه خزن طعامًا ينظر إلى وقت زيادةٍ..، يقول: فجاء الخريف فحصل سحابٌ ونحوه، فكأنه خاف أن يصيب طعامه فيفسده عليه، فكره أن ينزل المطر، ثم وجد في نفسه أنه كيف يكره شيئًا فيه خيرٌ للمسلمين، فقام وتصدق بذلك كله، وأخبر عمر فقال: جزاك الله خيرًا، كل هذا يدل على ما ذكرناه، وأنه إنما حل ذلك أن الإنسان يبتعد عن الريب إذا وقع في نفسه شيئًا أو تعلق به أمرٌ أو كان فيه نقصٍ، وكل الناس يعرف من نفسه أحيانًا أنه وإن كان ذلك الأمر في ظاهره تمامه أو كماله أو لا غضاضة ولا تجريم على صاحبه، إلا أنه قد يكون في داخل نفسه إما في نيةٍ نواها وإما في أمرٍ أخفاه، وإما في أمرٍ أسره ولم يخبر به ما يكون فيه بلاءٌ أو ما يكون فيه نقدٌ أو ما يكون فيه تبعةٌ عليه، فلما لم يكون في مثل هذه النصحة في بعض الأحوال ونحوه، كان ذلك شيئًا مما غابهم فحملهم على أن تخلصوا منه، ولا يوفق لذلك إلا الموفق، ولا يقدر على ذلك إلا من أعانه الله -جلَّ وعلَا.

- وهنا قوله: دع ما يريبك إلى ما يريبك أيضًا قال أهل العلم: فيه إشارةٌ إلى أن ينأى الإنسان بنفسه عن مواطن الريب، ومن ذلك أن يأخذ بالحزم والاحتياط، فإنه أبعد له عن الشبهة وأبعد له عن الوقوع في الخطيئة، فإذا كان الأمر مترددًا بين وجوب الزكاة وعدمها، فإنه يدفع الزكاة ولا يضره ذلك، ويزيده عند الله -جلَّ وعلَا- خيرًا وأجرًا .
- ثم ذكروا في بعض روايات الحديث أنه قال: فإن الخير طمأنينةٌ وإن الشر ريبةٌ، وهذا فيه أيضًا إشارةٌ إلى أن من رحمة الله -جلَّ وعلَا- أن يجعل للعباد في مقدمات الأمور وفي صورها وبظاهرها ما يحصل به للإنسان الطمأنينة، فيعلم أن ذلك الخير وإن كان هذا ليس مقياسًا منفردًا لكنه معينٌ له على ما وقف عليه من أعلام الشريعة ومن دلالات النصوص، فيكون ذلك مهدئًا لنفسه ومطمئنًا لقلبه، وضد ذلك بضده، فإنه إذا كان وجد الريبة وظهر منها مقدماتٌ شرح، فإنه يعلم أن ذلك وأيضًا عرف بالنصوص ما يدل على التحرير من ذلك والبعد منه، وأنه محلل ترددٍ فإن ذلك يزيده يقينًا بالبعد والترك لذلك الأمر.



الحديث الثاني عشر.

{الحديث الثاني عشر: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» حديث حسن رواه الترمذي وغيره هكذا}.

- قد ذكر ابن أبي زيدٍ القيرواني المالكي -رحمه الله تعالى- أن هذا الحديث من جملة أحاديث أربعةٍ هي مدار أو أصول الأخلاق، وكلها موجودةٌ في هذه الأربعين **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»** ، **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقول خيرًا أو ليصمت»** قول النبي -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- **«لا تغضب»**، **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»** ، وهذه جماع الأخلاق وكمال الآداب وتمام الخصال والصفات

الطيبة التي بها يكمل للعبد فعله ويتم له خلقه، ولما ذكر هذا الحديث وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم - «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» هذا الحديث فيه معانٍ كثيرةٌ .

لما قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»

- من هذه تبعيضةٌ، يعني بعض ما يكون به إحسان إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، لأنه ليس كل الإسلام ترك ما لا يعنيه، بل من الإسلام ما هو فعلٌ لفرائض إتيانٌ للواجبات، قيامٌ بالحقوق المتحتمة وأيضًا تكون ذلك بالسنن المستحبة.

وقوله: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»

- قال أهل العلم: ما المقصود هنا بحسن الإسلام؟ ذكرها ابن رجب -رحمه الله تعالى- مفرقةً وجمعها بعضهم يقول:

✓ إما أن يكون حسن الإسلام هنا أن الحسن هنا بمعنى الإحسان، وهو الذي مر بنا في حديث جبريل ويكون الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقد ذكرنا هناك أن لهذا الإحسان معنيين: أحدهما دوام المراقبة أو أعلى من ذلك المشاهدة وهي مشاهدة آثار الله -جلَّ وعلَا- التي هي فيها تمام الإيمان وتمام الإحسان، وزيادة للخشية والخوف من الله -سبحانه وتعالى-، وهذا بلا شك أن حسن إسلام المرء أن يصل إلى هذه المنزلة يحمله على ترك ما لا يعنيه،

✓ وبعضهم يقول لا هي حسن الإسلام هنا هو أن يكون في درجة المقتصد الذي هو يفعل الواجبات ويبتعد عن المحرمات، فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهم مقتصدٌ ومنهم سابقٌ بالخيرات، فالمقتصد هذا هو من أحسن إسلامه، فحسن المرء أن يأتي بما أوجب الله عليه، وأن يمتنع عن ما حرم الله -تعالى- عليه.

✓ أن حسن الإسلام هنا يختلف ويتفاوت بتفاوت الأمور، لذلك جاء في بعض الأحاديث أنه لا يحسن إسلام المرء حتى تضاعف له الحسنة أو كما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا يجزئ في السيئة إلا بمثلها، وجاء عن ابن عمر نحوٌ من ذلك، لأنه لما قال في قول الله -جلَّ وعلَا- ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160]، قال: ذلك للأعراب، قيل له: فما للمهاجرين؟ قال: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: 40]، وجعل ذلك مضاعفةً بنحو ما جاء في الحديث المتقدم أن الله -جلَّ وعلَا- يضاعفها إلى سبعمائة ضعفٍ، فهنا يدل على أن هذا يتفاوت بتفاوت الأمور، سواء إن كان ذلك بما لحق بالإنسان من صلاحٍ أو محتسبه في ذلك الأمر ومنهاجه، يعني باختلاف الأحوال المحيطة سواءً كانت راجعةً إلى الشخص أو إلى العمل أو الحالة التي هو فيها، أو الزمان أو المكان أو ذلك كله مجتمعًا.

- فعلى كل حالٍ لا شك أن المرء يطلب منه إحسان الإسلام، ومن ذلك تركه ما لا يعنيه، ما المقصود هنا بما لا يعنيه؟ يعنيه أي من الاعتناء وهو العناية، يعني ما لا يهمه، العناية هي الاهتمام، فتركه ما لا يعنيه يعني ما لا يهمه، وليس المقصود هنا بما لا يهمه مرد ذلك إلى ما يهمه في نفسه وتابعًا لرغبته وشهوته، وذلك لأن مرد الكلام من حسن إسلام المرء، فالكلام على ما يحصل به إحسان الإسلام، فمرد ذلك إلى الإسلام، والإسلام إنما يكون بالكتاب والسنة والاتباع والاهتداء ، فما لا يعنيه يعني بحكم الشرع وبحكم ما جاء في كتاب الله، وبحكم ما جاء في سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم.

- إن هذا الحديث من عني به فإنه يأتي على خيرٍ كثيرٍ ويبتعد عن شرٍّ عظيمٍ، إذا عني أو كان معتنيًا بما يهمه ويعنيه في الشرع ويبتعد عما لا يعنيه. وأكثر البلاء والضلال والشر إنما هو من ولوج الإنسان ودخوله ودلوفه فيما لا يحسن به ما يدخل فيه وتكلمه أو عمله فيما لا يعنيه، ولأجل ذلك جاء عن بعض السلف أنه قال: منذ كذا وكذا سنة وأنا أطلب شيئًا لم أقدر عليه، وإني لست بتاركه أبدًا، أن أتكلم أو أن أدخل فيما لا يعنيني، ولأجل ذلك كان الأمر في هذا عظيمًا وخطيرًا، ولهذا جاء في بعض روايات الحديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه من الكلام، وإن أعظم أبواب الشر هي أبواب الكلام، وأسهل ما يدخل فيه الإنسان هو الذي يفضي عليه بالبلاء الكلام، ولذلك جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- **«إن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله تبلغ به أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإنه ليتكلم بالكلمة من سخط الله يهوي بها أبعد ما بين المشرق والمغرب»** ولا حول ولا قوة إلا بالله، وجاء في الحديث الآخر **«يهوي به في النار سبعين خريفًا»**، وحديث معاذ المشهور **«وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»**.
- هذا هو أكثر سبيلٍ لأن يقع الناس في النار على وجوههم، لأن يتكلم، ولذلك ربما تكلم الإنسان بكلمةٍ أوبقت دنياه، أوبقت آخرته، أوبقت كل شيءٍ، لأذهبت دينك ، نسأل الله السلامة والعافية، ولأجل ذلك جاءت فيها أحاديث كثيرةٌ، وجاء عن عمر بن عبد العزيز كلمةٌ عظيمةٌ، قال: إنه لن يبلغ العبد قلة الكلام حتى يعلم أن الكلام من عمله، إذا علم الإنسان أن الكلام من العمل الذي يجازى عليه، فإنه سيستقيم، وجاء عن بعض السلف كلمةٌ عظيمةٌ وهي أنهم قالوا فيمن يكثر الكلام قالوا: أولئك قلَّ عملهم فكثر كلامهم، أما العامل فإنه يبعد.
- إذا جئنا إلى ما لا يعني الإنسان، فهنا له منازل كثيرةٌ والكلام كثيرٌ، فقد لا يكون يعنيه لكونه ليس أهلًا له، ومن أعظم ذلك التكلم في مسائل الشرع لمن ليس أهلًا لها، حتى ولو دخل في أول درجات العلم أو توسط في العلم، فلا يعني ذلك أنه يتكلم في كل مسألةٍ أو يحكي أو يقضي في كل نازلةٍ، وإن ما أعظم ما دخل على الناس من الشر في هذا الزمان، هو أن صغار الطلاب تكلموا في المسائل العظام وفي المسائل العامة وفي مسائل الجماع وفي مسائل ما يتعلق بأمور العقائد والتكفير، وقضوا على المسلمين وحكموا وأباحوا دماءهم، وحكموا على العلماء بخطئهم وقضوا عليهم بضلالهم وإلى غير ذلك من الأشياء التي تتردد.
- وإن أعظم ما يدخل في ذلك الكلام في الفتن والإسراع إليها، فإنها مما لا يعني الإنسان، وينبغي للإنسان أن يحفظ لسانه، ولذلك جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: **«يأتي على الناس زمانٌ وقع اللسان فيها أشد من وقع السنان»** الذي هو السيف، ولذلك قال الشافعي:

احفظ لسانكَ أيُّها الإنسانُ	**لا يلدغنَّكَ إنهُ ثعبانُ**
كم في المقابرِ من قتيلِ لسانهِ	**كانت تهابُ لقاءهُ الشجعانُ**

- فهذه من الأشياء التي لا ينبغي للإنسان أن يدخل فيها، وإن من الأمور ما تكون خاصةً لا ينبغي للعامة الدخول فيها، وإن من الأمور ما تكون أيضًا لها أكثر من وجهٍ، فينبغي للإنسان أن لا يدخل فيها فربما دخل فيها من وجهٍ لا يكون موفقًا فيه، وإن من الأمور ما تكون قد قصد أن تسر عنه، فما حصل به إخفاؤها عنه، فينبغي للإنسان

أن يتكلف البحث عنها، فيكون ذلك سبب امتحانه وطريق بلائه، وكل ذلك داخلٌ في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».



الحديث الثالث عشر.

{الحديث الثالث عشر: عن أبي حمزة أنس بن مالك -رضي الله عنه- خادم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» رواه البخاري ومسلم}.

- هذا الحديث هو حديث أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ، أنس هو خادم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- منذ كان عمره عشر سنواتٍ، طال به العمر وعظم له المال والولد فضلًا من الله -جلَّ وعلاً.
- وهذا الحديث «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ، هو أصلٌ من الأصول في الآداب والأخلاق، وفيه إشارةٌ إلى عظم ما جاءت به هذه الشريعة، أنها جعلت جزءًا من الإيمان ومن جملته ما يكون في لحمة المرء مع إخوانه، واتصاله بأهل دينه، وإعانته لهم، وقيامه بهم، ولأجل ذلك جاء في هذا المعنى أحاديث كثيرةٌ عن النبي -صلى الله عليه وسلم- «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» ، «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» ،



في قوله: «لا يؤمن أحدكم»

- فجعل هنا نفيًا للإيمان، مما يدل على أن هذا جزءٌ منه، ولا يقوم تمام الإيمان إلا بالقيام به، فهو من مكملاته اللازمة، ومن مقتضياته الواجبة. وهو مشيرٌ أيضًا إلى قول أهل السنة والجماعة، وهو أن الأعمال سواءً كانت لفظًا قوليًّا أو عمليةً أو كانت أعمالًا قلبيةً، فهي جزءٌ من الإيمان وداخلةٌ فيه، خلافًا لبعض أهل الأهواء من المرجئة وغيرهم الذين يقولون إن الإيمان مجرد تخليق، وأن الأعمال خارجةٌ عن حقيقته، فهذا حديث دالٌّ على أن الإيمان أو أن العمل سواءً كان عملًا قلبيًّا في هذا الحديث، وهي محبة ما لأهل الإسلام داخلٌ في ذلك وجزءٌ من أجزائه.



وهنا لما قال: «لا يؤمن أحدكم»

- فالنفي هنا نفي التمام، من لم يؤدِّ هذا المعنى فإنه يذهب عليه تمام الإيمان، وإن كان لا يذهب عليه إيمانه، وذلك أن أهل السنة والجماعة من عقائدهم أنهم من أتى بكبيرةٍ من الكبائر فلا يزول عنه الإسلام بالكلية، ويذهب عنه الإيمان بكل حالٍ، وإنما ينقص إيمانه، وهل يسلب اسم الإيمان في تلك الحال أم لا؟ خلافًا بين أهل العلم على قولين: هما روايتان عن الإمام أحمد، لكن بلا شك أن الإسلام باق هو فيه وأن يرجع إليه، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بنحو هذه المعصية، ويكبر النقصان بكبر ذلك الذنب الذي اقترفه والمصيبة التي فعلها، ولذلك جاء عن ابن رواحة وأبي الدرداء وغيرهم، أنهم قالوا: إن الإيمان كالرداء، ربما لبسه الإنسان وربما خلعه أي نقص وتجرد منه في بعض أحواله، ولذلك جاء في الحديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ» أي وهو على الحال التي في تلك الحال من مقارفة تلك المعصية والتلبس بها.



هنا لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»

- هذا الحديث في المحبة وهو عامٌّ شاملٌ، هل يتعلق بالأمور الدينية أو هو شاملٌ للأمور الدينية والدنيوية على حدٍّ سواءٍ؟ أهل العلم يقولون إن من الأمور الدينية داخلةٌ في ذلك، أن يحب لأهل الإيمان، أن يقوم بالصلاة، أن يحقق التوحيد، وأن يكمل الفرائض، وأن يبعد عن المحرمات، وأن يتنزه عن الكبائر والموبقات، هذا بلا شكٍّ، لكن هل يدخل في ذلك أيضًا ما يتعلق بالبعد أو بتحصيل الأمور الدنيوية؟ بعضهم يقول إن هذا من الكمال المستحب، وإن كان ظاهر هذا الحديث يدل على أن محبة الخير للعبد المؤمن سواءً كان ذلك مما يتعلق بدينه أو دنياه، أن ذلك من مقتضيات الإيمان ولوازمه، فيفرح الإنسان ويحب ويسعى أن يحصل العبد ما يكون به قوام إيمانه وتمام عقيدته.

ما الذي يترتب على هذه المحبة؟

- يترتب على هذه المحبة أمورٌ:
  - **الأول:** أن العبد يسلم صدره لإخوانه، فإنه لا تحقق المحبة فيمن وقع في نفسه من الضغينة والحقد والحسد وضغائن النفوس وفسادها على إخوانه، فإن ذلك لا يمكن أن يحب لإخوانه ما يحب لنفسه.
  - **الثاني:** أنه يفرح حينما يحصل لهم أو يتحصلون على خيرٍ من الخيرات أو يوفقون لأمر من الأمور الدينية أو الدنيوية.
  - **الثالث:** أن لا يغش لهم، وأن لا يكون غير ناصحٍ لهم في ذلك، ولهذا جاء عن الفضيل بن عياض -رضي الله تعالى عنه وأرضاه ورحمه- أنه قال: إن من أحب لأخيه أن يكون مثله، فما نصحه، يعني لابد أن يحب لأخيه أن يكون أكثر منه، هكذا يكون أهل الإيمان، نفي الدغن والغش بعباد الله، وأيضًا النصح للمسلمين، وهذا مر بنا في الدين النصيحة، في حديث جرير ، لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لجرير: بايعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الإسلام والنصح لكل مسلمٍ، فمقتضى هذه المحبة النصح لأهل الإسلام في أموره الدينية والدنيوية، فالذي يتحفى والذي يستخبي والذي يفرح باختصاصه ببعض الأمور، هذا ما أحب أهل الإيمان ولا طبق هذا الحديث.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الثامن

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



تابع الحديث الثالث عشر.

- تعرفون أنا كنا ابتدأنا حديث أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- في قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ، وقلنا من أن هذا حديثٌ عظيمٌ، وأن فيه دلالةً على أن الأعمال داخلةٌ في مسمى الإيمان، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب» ، وإن كانت المحبة من الأعمال القلبية، إلا أنها عملٌ، فتدخل في جملة الأعمال، وتكا ثرت الأحاديث عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- في الدلالة على هذا المعنى والإشارة إليه، وحمل أهل الإيمان عليه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال في الحديث الذي في الصحيح: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأتيه منيته وهو يؤمن بالله وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» ، وفي هذا دلالةٌ عظيمةٌ على ما ينبغي لأهل الإيمان سيرةً ومنهاجًا، قولًا وفعلًا، للقريب والبعيد، للمحب والعدو، للناس جميعًا، من كانت بينك وبينه خصومةٌ أو دعوةٌ ومنازعةٌ، أو كانت بينك وبينه فجوةٌ أو غير ذلك من الأمور، فإنه لا يسع المؤمن إلا أن يحب لأهل الإيمان مهما تباعد بينه وبينهم أمورٌ أو حصلت بينه وبينهم فجواتٌ إلا أن يحب لهم ما يحب لنفسه. ولذلك سئل -صلى الله عليه وسلم- عن أفضل الإيمان، فذكر من ذلك وأن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يكره له ما يكره لنفسه، ولا يزال لسانه رطبًا بذكر الله في جملة حديثٍ من أحاديث المصطفى -صلى الله عليه وسلم.



ما الذي يترتب على هذه المحبة؟ وما الذي يكون من آثارها على المؤمن فيما يفعله في يومه وليلته؟

❖ الأول: ما يكون أن المؤمن يقر في قلبه الفرح لأهل الإيمان، ومحبة ما ينزل بهم من الخير، وأن يطرد عن نفسه الحسد وضغن النفوس وفسادها، فلابد إذا بُشر بما أصاب مسلمًا من مولودٍ ولد له، أو من خيرٍ رزق إياه، أو من وظيفةٍ تبلغها، أو من شيءٍ من أمور الدنيا حصل عليه، أو من ثناء الناس أو غير ذلك من الأمور الدنيوية أو غيرها أن يفرح له، وإذا تبوء الإنسان منصبًا دينيًا كقضاءٍ أو إمامةٍ أو خطابةٍ أو تعليمٍ أو غير ذلك، فليكن به فرحًا وليكن بذلك مستبشرًا، وليكن له مؤيدًا وداعيًا، وأن لا يقر في قلبه شيئًا من الضيق أو الحسد أو أن يكره له شيئًا من ذلك.

❖ **الثاني:** أنه مما يترتب على أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه، النصح له، فلابد أن يكون ناصحًا لأن الناصح ولا شك أنه يحملهم على الخير ويدعوهم إليه، فإذا كان يحملهم على الخير ويدعوهم إليه، فإن ذلك عنوان محبته لهم وفرحه بحصول الخير لهم، ولأجل ذلك جاء في حديث جرير، بايعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الإسلام والنصح لكل مسلمٍ، ويذكر أن محمد بن واسعٍ دخل ليبيع حمارًا له، فقال المشتري من يريد شراءه، ترضاه لي؟ قال: لو رضيته لك ما بعته، فانظر مع أن حاجته إلى بيعه وإلى تسويقه وإلى أن يظهر جميله وإلى أن يظهر إلى المشتري ما يرغب في شرائه وزيادة الثمن فيه، لكن محض النصيحة منعه من ذلك وحمله على سواها، وإن من ضد ذلك أن يكون الإنسان يخفي عن المسلمين الخيرات، ويكتم عليهم العيوب، ويسوق لهما ما يكون في الشرور، ويرضى بما يكون مثل ذلك.

- ولهذا جاء عن الفضيل بن عياض ما هو أشد من هذا، أنه لما قال من أحب أن يكون الناس مثله، فما نصح له، يعني لابد أن يكون أن يحب أن يكون الناس خيرًا منه، وهذه وإن ذكر بعض أهل العلم أنها من الكمالات والتمام، لكنها عند أهل الفضل مستقرةٌ عندهم ومتأكدةٌ لديهم، ولأجل ذلك ينبغي لنا أن نحرص على هذا المعنى، وتمام ذلك كما قلنا وأشرنا إليه، أن لا يسعى المسلم في شرٍّ أو حسدٍ أو سوءٍ أو بلاءٍ لمسلم، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ، فإذا تحصل الإنسان ذلك فإنه يكون قد أحب لإخوانها ما أحب لنفسه، **يذكر في هذا أهل العلم مسألتان متقاربتان:**

- **أولاهما:** محبته إلى أن يتميز عنهم، يعني أن يكون أحسن منهم، أن يكون أسرع إلى بعض الأمور الدينية أو الدنيوية من غيره، فذكر بعض أهل العلم روي في ذلك أثرٌ عن عليٍّ -رضي الله تعالى عنه- من أحب أن يكون أجود في شراك نعله، فإنه يدخل في قول الله -جلَّ وعلَا- ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: 83]، فكأنه أراد علوًا في هذا، وبعض أهل العلم يقول: هذا محمولٌ على أن يكون قد قصد الفخر عليهم، وقد يقال أيضًا أن ما جاء عن عليٍّ -رضي الله عنه- أنه في هذا في الكمالات، ومحبة للمؤمن ما يحب الإنسان لنفسه لا تعارض التنافس في الخيرات، فالمرء ينافس في الخيرات ويسابق إليها ويسارع إليها، مع محبته إلى أن يكون إخوانه مثله وأن يكونوا يسابقون إلى الخير بنحو ما يسابق إليه، وإذا رأى منهم ضعفًا أو تركًا أو نقصًا أو غير ذلك، فإنه يدعوهم إليه، ثم يرجو أن يكون أسرع إلى الخيرات وأسبق إلى القربات، فلا يكون في ذلك كراهيةً لحصوله له، ولا يزال المؤمن ينبغي له أن يقدح في نفسه أو يظهر نقصها حتى يحمله ذلك على الاجتهاد، وحتى يحب لغيره أن يكون أجود في الخير منه، وإن من وفق لهذا فإنه وفق لخيرٍ عظيمٍ، وهذا الأمر إذا انفتح على المسلمين فإنهم لا يزالون في خيرٍ في كل أمورهم، سواء في ذلك إن اتسعت الأمور أو ضاقت، فإنها إن اتسعت كلا أخذ الخير وكلا فرح لصاحبه بالخير، وإن ضاقت الأمور وازدحمت فإنه لم يزل الواحد يؤثر صاحبه بالخير ويقدمه على نفسه، فيجد الناس في ذلك فرجةً وفرحًا، فيحصل هذا مطلوبه، ويحصل ذلك فضله عند ربه وأجره عند مولاه، ولا تزال الناس في إيثارٍ وفي محبةٍ وفي تسابقٍ للخيرات، وحصول البركة من الرحمن -سبحانه وتعالى.

- هذا ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ، ولو وقفنا مع هذا في نزعات النفوس أو ما يحصل عند كثيرٍ من الناس، أو ما يكون عند بعضهم من ضيق النفس وعدم فرحه بما يحصل لأهل الإيمان، لرأينا في ذلك مفارقاتٍ كثيرةً عند الناس، وهذا يستوي فيه المتعلمون وغير المتعلمين، إن قلت ذلك فيما يتعلق بالإخوة أحيانًا فيما يحصل بينهم من غيرةٍ وحسدٍ وغير ذلك، إن قلت ما يكون بين

الزوجات، إن قلت في ذلك ما يكون بين الأقارب، إن قلت ما يكون بين الجيران، إن قلت ما يكون بين طلبة العلم، إن قلت ما يكون بين الموظفين، ما يكون بين التجار، حتى في الولايات الكبرى وغيرها، فإن الناس لا يزالون تضيق نفوسهم أن يروا غيرهم في خيرٍ أو في سعةٍ أو في تحصيل شيءٍ من الرحمات الدينية أو الدنيوية.



الحديث الرابع عشر.

{الحمد لله وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد، فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين وللمشاهدين ولجميع المسلمين.

قال النووي -رحمه الله: الحديث الرابع عشر، عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم : «لا يحل دم امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاثٍ، الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» رواه البخاري ومسلم}.



قول النبي -صلى الله عليه وسلم- «لا يحل دم امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاثٍ، الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»

- هذا الحديث أصلًا في تحريم الدماء وتعظيمها، وعدم انتهاكها أو التسلط عليها، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال: «لا يحل دم امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ» هذا فيه إبانة إلى تحريم الدماء وحفظها وعدم التسلط عليها أو التفويت لها، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا» في خطبة عرفة المشهورة، فكل ذلك يدل على تعظيم الدماء وأنها معظمةٌ عند أهل الإسلام، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «لا يزال المرء في فسحةٍ من دينه، ما لم يصب دمًا حرامًا» وعظم النبي -صلى الله عليه وسلم- الكعبة وقال: «إن حرمة المسلم أعظم عند الله منك» كل ذلك يدل على هذا الأمر.
- ثم في هذا إشارةٌ أيضًا إلى أن إحلال دمٍ من الدماء لا يكون لآحاد الناس، كيف أخذنا ذلك، لأنه لما قال: «لا يحل دم امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاثٍ» فالحكم بحصول واحدةٍ من هذه الثلاثة، ليس لآحاد الناس وإنما هو لمن يؤول إليهم الحكم، ويصدر منهم النظر، وهو ولي الأمر أو من ينيبه من القضاة ومن في حكمهم، وإلا فإنه يفضي ذلك إلى الفوضى في استباحة الدماء والتسلط عليها وغيره، ولذلك لما لم يفقه بعض الناس هذا، حصل منهم البلاء وحصل منهم الشر، وخرجوا على المسلمين واستباحوا دماءهم.
- ففي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنه لا يستبيح ذلك، وليس لأحدٍ الحق في ذلك من آحاد الناس، حتى لو عظمت منزلته أو علت درجته أو ارتفع علمه، حتى يكون ممن له هذه الولاية، وهو ولي الأمر الأعظم أو من ناب عنه في ذلك من القضاة ومن في حكمه، ولأجل هذا فإن الجهاد ينص أهل العلم على أنه لا يكون إلا مع الإمام الأعظم، ومن أجل ذلك أيضًا ينص أهل العلم على أنه لا تقام الحدود في بلاد غير المسلمين، لماذا؟ لأنه ليس فيها وليٌّ للأمر، فإذا لم يكن فيها وليٌّ للأمر، فليس فيه من له الحق في الاستيفاء والإقامة، وهذا قد يظن بعض الناس أنها إباحةٌ للدماء، لا، فهو بضد ذلك لو تأملتموه، ولذلك جاءت هذه على سبيل الحصر والاستثناء، فلما كانت استباحة الدماء محصورةً في هذه الثلاثة ، فإنه يدل على أن الأصل المستقر هو عدم إباحتها أو التسلط عليها وإراقتها، هذا من جهةٍ، وأن من له الحكم في ذلك من له الولاية العظمى أو ينيبه في الولي الأعظم.

- هذه مسائل مهمةٌ خاصةً ونحن نرى في هذا الزمان من يتجاسر على استباحة الدماء وإراقتها والتسلط عليها، والتفجير والتكفير وما يتبع ذلك من إراقة دماء المسلمين، سواءً كان على وجه الخصوص أو على وجه العموم، واستهدافهم في مساكنهم أو في مساجدهم أو في أسواقهم، كل ذلك على خلاف ما جاءت به الأدلة، ودلت عليه النصوص، واستقر عليه كلام أهل العلم، وجرى عليه أهل السنة والجماعة.



لما قال: «بإحدى ثلاثٍ، الثيب الزاني»

- الثيب هي ضد البكر، وهي من دخل بها أو أي واحدٍ من الزوجين دخل في نكاحٍ صحيحٍ وهو حرٌّ عاقل بالغٌ ، فإن البكر إنما عقوبته جلد مائةٍ وتغريب عامٍ، كما جاء ذلك في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- «البكر للبكر جلد مائةٍ وتغريب عامٍ، والثيب الجلد والرجم» ، فإذن الثيب الزاني يقتل ، ودليل قتله جاء في هذا الحديث وجاء في أحاديث كثيرةٍ عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من أشهرها حديث جابر في رجم اليهوديْن، لما سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- ما تجدون في كتابكم؟ وكانوا يجدون هم الرجم، لكن لما حرفوا وصاروا يجلدونهم ويسودوا وجههم، قالوا إن أفتانا بذلك قبلنا وإن لا رددنا، فأمضى عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- الرجم الذي هو في كتاب الله، وكانت آيةً ثم نسخ لفظها وبقي حكمها كما هو مشهورٌ عند أهل العلم، وجاء في ذلك قصة ماعز، والغامدية الجهنية وغيرها من الأحاديث الكثيرة.
- إذا قلنا ذلك في أنها الثيب الزاني، هل يكون الجلد مع الرجم كما قلنا في الحديث الجلد والرجم أو لا؟ لأهل العلم فيه كلام،
  - ✓ منهم من يجمع بين الجلد والرجم لها،
  - ✓ ومنهم من يقول إنه يكتفى بالرجم وأن حديث جابر وفيما معناه من قصة ماعز وغيرها ناسخةٌ لذلك، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر عنه أحوالًا كثيرةً رجم فيها، لم يذكر في واحدةٍ منها أنه جلد مع ذلك.



ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «والنفس بالنفس»

- هذه من أعظم ما جاءت به الشريعة وأعظم ما دلت عليه النصوص، أن النفس تقتل بالنفس، وهنا عبر بالنفس المجردة للدلالة على أنه لا تفضيل لأحدٍ على أحدٍ، فيقتل في ذلك الغني بالفقير، والقوي بالضعيف، والعزيز بالحقير، والكبير بالصغير، والرجل بالمرأة، وعلى ذلك حكى أهل العلم الاتفاق على هذه المسألة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 179]، ولما شرع الله -جلَّ وعلَا- قتل النفس بالنفس، فإنما أراد بلك أن ينكفئ الناس عن التجرؤ على استباحة الدماء، لأن من علم أنه يقتل بذلك ويقاد، فإنه سيحجم ويمنع نفسه من التسلط على المسلمين، ثم إن الجزاء من جنس العمل، فمن استباح دماء المسلمين استبيح دمه بما جاء في كتاب الله ودلت عليه سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

طبعًا استثنى أهل العلم من ذلك مسائل،

- ✓ من أشهرها أن الوالد لا يقتل بولده، وهذا جاء فيه حديثٌ وقال به جماهير أهل العلم أو جمهور أهل العلم، أن الوالد لا يقتل بولده.
- ✓ أيضًا ذكروا أن الكافر لا يقتل بالمؤمن، لأن المؤمنين تتكافأ دماؤهم وغيرهم لا يكافئهم، وهذا أيضًا مذهب الجمهور خلافًا للحنفية، وتكلموا أيضًا في نحو من ذلك مسألة قتل الحر بالعبد، وهذه من المسائل التي محلها بحث الفقهاء، ومبناها على ما دلت عليه الأحاديث، وجاءت به النصوص،



ثم قال: «والتارك لدينه المفارق للجماعة».

- هذا في المرتد، والمرتد جاء فيه هذا الحديث، وجاء في حديث ابن عباس: **«من بدل دينه فاقتلوه»** ، ولقائلٍ أن يقول: إن هذا فيه كما يقول بعضهم: هذا من الوحشية، أو غير ذلك، كل هذا هراءٌ، والحق أحق أن يتبع، وكتاب الله تعالى اتباعه أحق، واتباع سنته -صلى الله عليه وسلم- أوثق، وفيها النجاة والخلاص، وفيها الخير والفلاح، فإن من بدل دينه، بعد أن عرف الحق، وطاب قلبه به، وتوجه إلى ربه، واستقام على شرعة نبيه، ثم نكس ونكف، فإنه يكون قد فوت على نفسه الحق في هذه الدنيا ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وحكم الله -جلَّ وعلَا- في ذلك ثابتٌ، خلافًا لبعض أهل العقد المتكلمين، المقدمين لعقولهم على النصوص، الذين يردون مثل هذه الأحاديث، فإن هذا الحكم، لم يقل به عالمٌ، ولا مذهبٌ، ولا جملةٌ من الفقهاء، بل هذا مما تتابع عليه أهل العلم، وتتابع عليه أهل المذاهب، واستقر القول به، وصحت به النصوص، وتوافرت به الأدلة من سنة نبينا -صلى الله عليه وسلم-، فهل نتبع ما جاء في هذا؟ أو من لا يحسن الكلام ويسترضي غير المسلمين بذلك؟ أو بعض المشغبين ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120].
- فهذا كتاب الله، وقد جاء في تأكيده أصول، وأيضًا في ترتيب الحكم عليه مسائل، فذلك أن يكون منه ارتدادٌ، بأن يرفض الإيمان بعد أن قبله، أو أن يقع في مكفرٍ من المكفرات، وقد عد أهل العلم المكفرات في كتبهم على اختلاف مذاهبهم، في باب حكم المرتد، كأن يستهين بالمصحف، كأن يلقي عليه القاذورات، كأن يسجد لصنمٍ، إلى غير ذلك مما ذكروه مما يحصل به التكفير، ولأهل العلم في ذلك أيضًا ضوابط وقيودٌ، لا يمكن إجراء أحكام الردة عليه حتى تتم، وذاك أيضًا إنما هو لمن يقدر على ذلك ممن يكون له ولايةٌ شرعيةٌ، بالعلم والقضاء، ولا يفتات في ذلك، يقال هذا قال كذا، فهو مرتدٌّ، فيستباح دمه، ثم إذا حُكم بإباحة دمه، فإنه يستتاب، كما جاء ذلك عن عمر -رضي الله عنه-، أنه يستتاب ثلاثًا، يعني تُطلب توبته، فإذا تاب ورجع إلى الإسلام، فالحمد لله، إذا لم يرجع، فإنه يُقتل.
- لقائلٍ أن يقول: لماذا يطلب توبة هذا؟ ولم يطلب توبة السابقين؟

قال أهل العلم: أن الردة يمكن استدراكها، لكن الزنا الذي حصل من الثيب، والقتل الذي حصل من القاتل، لا يمكن استدراكه.

- ذكر أهل العلم أن هذه الثلاثة، ليست هي التي جاءت فيها الأدلة فقط فيما يُقتل، بل جاء غيرها، كما مثلًا قتل اللوطي **«اقتلوا الفاعل والمفعول»** ، **«ومن أتى بهيمة»** ، قتل الساحر، وأيضًا **«من أتاكم، وأمركم جميعٌ، يريد أن يفرق جماعتكم، فاقتلوه كائنًا من كان»**، كلها جاءت بها النصوص، في أنهم يقتلون.
- بعض أهل العلم حكا أيضًا الداعية إلى البدعة، وهو مشهورٌ عند الحنابلة، فمن قال بذلك قال: قالوا أن كل هذه تعود إلى حديث ابن مسعود، ولا تخرج عنه، وتدخل في قوله: **«والمفارق للجماعة»** بوجه من الوجوه، ولهم في ذلك تفصيلاتٌ، وبعضهم يقول: إن حديث ابن مسعود نسخها، وهذا ليس بجيدٍ، **وذلك من جهتين:**
  - ❖ **الأول:** أن حديث ابن مسعود، لا يُعرف أنه متأخرٌ عنها.
  - ❖ **الثاني:** الحديث العام لا ينسخ الأحاديث الخاصة. وتلك أحاديث جاءت في مسائل بخصوصها، فصح القول من أنها باقيةٌ على حكمها، ثابت القول فيها، ومن ذلك أيضًا القتل تعزيرًا، فإنه قد جاءت به الدلالة، وصح به نصٌّ، وحكم به جماعةٌ من أهل العلم.



الحديث الخامس عشر.

{عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه» رواه البخاري ومسلم}.

- هذا الحديث من الأحاديث العظيمة، والتي عليها مدار الأخلاق، ولذلك قلنا من أنه أحد الأحاديث الأربعة التي عليها مدار الأخلاق «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت».



«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر».

وفيه إشارةٌ إلى مسألتين:

❖ **الأولى** : أن مسائل الأعمال متعلقةٌ بالإيمان، وأنها داخلةٌ فيه، وجزءٌ من أجزائه، ولذلك تكاثرت بهذا النصوص ودلت على ذلك الأدلة، فلا يأتي آتٍ ويقول من أن الإيمان مجرد تصديقٍ، بدلالة هذه الأحاديث وهي كثيرةٌ بالمرة.

فهذا أمرٌ ينبغي أن يتأكد في نفوسنا، لأن بعض من يخرج العمل من الإيمان، يقول لا إله إلا الله ثم يقبل على شهواته وبلائه، ولا يعرف من دينه شيئًا، فذاك لا يجديه عند الله جلَّ وعلَا شيئًا، و هو قول أهل السنة والجماعة.

❖ **الثانية**: أن قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» تعلق بذلك سواءً ما يكون بالإحجام عن الكلام السيئ وقول الخير فيه، وهي من حقوق الله جلَّ وعلَا التي يحاسب الله العبد عليها، وقد يتعلق بها حق آدميين إن كانت غيبةً أو نحوها، وأيضًا في الجملة الثانية والثالثة ما يتعلق أيضًا بحقوق الآدميين من إكرام الضيف ،وإكرام الجار، وعدم إيذائه، ونحو ذلك، فكل ذلك داخلٌ في الإيمان، فسواءً كانت من الأعمال التي تختص بحق الله، أو كانت من الأعمال التي تختص بحق الآدميين.

وفي هذا دلالةٌ على أن هذه أعمالٌ يثاب عليها المرء، وأن الأعمال تدخل في الواجبات.



لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فليقل خيرًا أو ليصمت».

- هذا حديثٌ عظيمٌ وما شيءٌ يحتاج إلى أشد من طول حبسٍ من اللسان، ولذلك جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من صمت نجا» ، وجاء في حديث أم حبيبة: «كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من أمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر أو ذكرٍ لله جلَّ وعلَا».
- الكلام أكثره يكون وبالًا على المرء، وسببًا لحصول هلكته، ولذلك في حديث معاذ: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، قال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم».
- يعني ليس أكثر ما يدخلهم النار الزنا أو السرقة مع عظم هذه الأمور، لكن أكثر ذلك لأن من عباد الله من يعظم هذه الذنوب، لكنها يستسهل بالكلام، ويسهل عليه التجرؤ فيه، ولذلك يقول عمر رضي الله تعالى عنه: "من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به" نسأل الله السلامة والعافية.

- ولأجل هذا تكاثرت الأحاديث في الدلالة على التنبيه على ذلك، النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة قال: «وإن الرجل ليتكلم بالكلمة تهوي به في النار سبعين خريفًا» ، وهي كلمةٌ واحدةٌ، «إن الرجل ليتكلم بكلمةٍ من رضوان الله تبلغ به أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإنه ليتكلم بالكلمة من سخط الله تهوي به أبعد ما بين المشرق والمغرب».

كل ذلك يدل على عظم هذا الأمر، وأنه من أكثر ما يكون سببًا لدخول العبد للنار، نسأل الله السلامة والعافية.

فينبغي للإنسان أن يحفظ نفسه، ولذلك جاء عن أبي بكر أنه قال: "هذا الذي أوردني الموارد".

جاء عن ابن مسعود أنه قال: "ما من شيءٍ أحوج إلى طول حبسٍ من اللسان".

- فلأجل هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فليقل خيرًا أو ليصمت» ، قال أهل العلم في هذا وفيه إشارةٌ إلى عظم أنه لا يخلو الأمر إما أن يكون خيرًا وإما أن يكون ضد ذلك.

- ولذلك قال الله جلَّ وعلَا: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، واختلفوا من أجل ذلك هل يكتب على الإنسان كل شيءٍ أو لا يكتب إلا الحسنات والسيئات؟

منهم من يقول هذا، ومنهم من يقول هذا، والأشهر أنه يكتب عليه كل شيءٍ، حتى إذا قال أكلتُ أو شربتُ أو قمتُ أو نمتُ.

ثم يمحو الله جلَّ وعلَا ما يشاء ويثبت، ويذكر في هذا قصةٌ ذكرها ابن رجب، أن رجلًا عثرت به دابته، فقال: تعس الحمار، فاستشكل هل يكتبه كاتب الحسنات أو كاتب السيئات، فقضى الله جلَّ وعلَا قال: كل ما لم يكن حسنةً فلم يكتبها كاتب الحسنات فيكتبها كاتب السيئات.

- ففي هذا أيضًا إشارةٌ إلى عظم ما ينبغي للإنسان من أن يحفظ لسانه، فلأجل ذلك يقول أهل العلم ينبغي للإنسان ألا يتكلم إلا بالخير، أو ما يكون فيه صلاح دينه، أو ما يبتلى به من أمور دنياه، مما تقوم به أمور دنياه، ومما زاد عن ذلك فإنه ينبغي أن يحفظ نفسه من ذلك.

- ولأجل هذا يقول بعض أهل العلم: هل أفضل للإنسان الكلام أو السكوت؟

لا شك أنه إذا كان يتكلم بسوءٍ أو بشرٍّ فالسكوت خيرٌ له، لكن إذا كان يتكلم بالخير فبعضهم يقول كما نقل عن بعض السلف يقول الساكت على علمٍ كالمتكلم على علمٍ، لكن بلا شك أن المتكلم في خيرٍ أو بعلمٍ أهدى وأفضل، لماذا؟ لأن الساكت لا يعدو أن يكون قد حفظ نفسه، أما المتكلم فإنه حث على خيرٍ ودعا إليه، أمر بمعروفٍ وقرب منه، نهى عن منكرٍ وحذر منه، إلى غير ذلك من الأشياء، أو ذكر الله جلَّ وعلَا، أو كان فيه كلامٌ طيبٌ تطيب به الأمور، ويدعى به إلى الخير.

- فلأجل ذلك ينبغي للإنسان ألا يكون إلا داعيًا إلى الخير، وإلا صمت، فالصمت هو بدل الكلام الخير ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فليقل خيرًا» وبه الابتداء وعليه الاعتماد، فإن لم يوجد الخير في ذلك فليصمت.

- ويقول بعض أهل العلم كلمةٌ لطيفةٌ في هذا وهو يقول: أن الإنسان إذا تكلم فأعجبه كلامه فليسكت، لأنه يكون إنما يتكلم من إظهارٍ إعجابًا بنفسه ونحو ذلك، وإذا سكت فأعجبه سكوته فليتكلم، مخالفةً لهواه.



ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» وفي بعض الروايات: «فلا يؤذِ جاره»، وكلاهما مطلوبٌ.

- أما أذية الجار فإنها محرمةٌ، لأن أذية غير الجار محرمةٌ فمن باب أولى أن تكون أذية الجار، فتخصيص الجار هنا يكون على سبيل بيان الأهمية وعظم هذا الأمر، وأنه أشد من غيره، وآكد مما سواه، ولأنه تكثر بين الجيران أحيانًا بعض المداخلات ونحوها فربما حصلت الأذية، أو قرب الشر والشيطان، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم التنبيه على ذلك، ولهذا لما سئل في حديث أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» ، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك».

وجاء عند أحمد وغيره، أن يسرق الإنسان من عشرة أبياتٍ خير من أن يسرق من بيت جاره، أو أن يزني بعشر نسوةٍ خيرٌ من أن يزني بامرأة جاره، أو كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم.

- وذلك لخصوصية ما جاء من حق الجار، وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»، والبوائق ما هي؟ شره وغوائله وسوؤه، فإذا كان ما يأمن، الجار دائمًا في خوفٍ من جاره أن يصله شيءٌ من شره، فهذا لا يحصل له الإيمان.

وتعرفون الحديث الذي لما اشتكى جاره، أمره أن يلقي متاعه، فما زال الناس يلعنونه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله لعنه قبل أن يلعنه الناس».

- ثم جاء الأمر بالإحسان إلى الجوار، وهذا فيه أحاديث كثيرة، منها هذه الرواية «فليكرم جاره»، وجاء فيها: والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب، وكلام أهل العلم طويلٌ في الجار ذي القربى، هل هو القريب، أو هو الملاصق، وهما محتملان لهذا المعنى جميعًا، والجار الجنب يعني البعيد، والصاحب بالجنب، بعضهم يقول هي الزوجة، وبعضهم يقول هو رفيق السفر، ويكون رفيق الحضر من باب أولى، أدخلوا في ذلك كله، كله داخل في هذا ومتعلقٌ بهذا الباب.

- إذا دخلنا إلى هذا الأمر وهو ما يتعلق بإكرام الجار، فقد تواردت في ذلك أدلةٌ كثيرةٌ، منها حديث أبي ذر، «يا أبا ذر إذا طبخت مرقةً فأكثر ماءها حتى تطعم جارك».

وجاء أيضًا: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» حتى ولو كافرًا حتى ولو كان يهوديًا.

ولذلك جاء عن عبد الله بن عمرو أنه لما ذبح أهله ذبيحةً، قال: هل أعطيتم جارنا اليهودي، هل أعطيتموه، فما زال يرددها، ثم ذكر هذا الحديث، «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

ففي هذا إشارةٌ إلى عظم حق الجار، والقيام به.

- وفي هذا من الجار؟

الجار كل من حصل به الجوار قرب أم بعد، ومرد ذلك إلى العرف، بعض أهل العلم حده بأربعين من كل جهةٍ، يعني من الجهات الأربعة فيما يحيط بك، الجار الأربعين يدخل في حق الجوار، وإن كان الأقرب فالأقرب أولى. ويظهر أن هذا لا يختلف عمن يقول أنه العرف، باعتبار أن الأربعين هي القريبة، فبناءً على ذلك إذا كانت الأربعين تتباعد لكبر الدور ونحوها فإنه أخف في ذلك، لكن هنا يظن بعض الناس أنه إنما يكون جارًا إذا لزمه الجوار مدةً طويلةً، أو إذا كان من أقاربه أو من بني جنسه، خاصةً إذا كان عاملًا يسكن في غرفةٍ صغيرةٍ خادمًا في مسجدٍ، أو سائقًا في بيتٍ، أو غير ذلك، فهو من أهل الجوار، وله حقٌّ في ذلك، بل وربما كان حقه مقدمًا لقربه أو لحاجته.

- ففي هذا ينبغي أن يُعلم ما يتعلق بذلك، وذكر أهل العلم في هذا مسائل، وهو أن الإنسان لا يفعل في بيته ما يحصل به أذية جاره، وتكلموا على ذلك في مسائل كثيرةٍ، منها أن لا يعمل في بيته ما يكون به أذيةٌ، كأن يكون

يصهر فيها الحديد، أو يخرج ماء بيارته ونحوها التي هو ماء قذر ونحو ذلك، فلا يحصل به الأذية، أو يرفع جداره حتى يذهب الهواء على جاره، أو نحو ذلك من الأمور.

- فلا يفعل في بيته ما يؤذي جاره، ولا يمنع جاره ما لا يتأذى به، يعني كأن مثلًا يعتمد على جداره لجعله خشبةً ونحوها، إذا كان لا يتضرر بذلك **«لا يمنعن أحد جاره أن يغرس خشبه في جداره»** ، فقال أبو هريرة: مالي أراكم عنها معرضين، والله لأرمين بها بين أكتافكم.
- فإذن لابد إذا كان لا يتضرر وللجار فيه حاجةٌ فيجب عليه، بل قال أهل العلم أنه أيضًا وما يتعلق بذلك مما فيه احتمال لحق الجوار، ولو حصل الأذى، ولذلك جاء عن الحسن أنه قال: **ليس حسن الجوار بكف الأذى، يعني أن تكف أذاك عن جارك، بل حسن الجوار أن تحتمل أذى جارك.**
- فينبغي للإنسان أن يحسن لجاره، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر عنده تلك المرأة التي تتعبد وتذكر الله جلَّ وعلَا وتصلي، لكنها لسانها فاحشٌ على جيرانها، قال: **«لا خير فيها هي في النار»** ، والمرأة التي كانت دون ذلك، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«إنها من أهل الجنة»**،وفي هذا إشارةٌ إلى عظم ما يتعلق بحق الجار.

ثم يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

- كرم الضيف من جميل الأخلاق، وطيب الخصال التي يدعى إليها أهل الإيمان، والضيف لحق به من الحاجة والسفر والبعد عن الأهل، ولم يطب به الأكل مدةً طويلةً، فأحوج ما يكون للإكرام والقيام.
- هذا من جهة الأصل، وقد جاءت به الأدلة، وتكاثرت به النصوص، ثم جاء التأكيد في حقه، فالنبي صلى الله عليه وسلم: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، وليؤدي إليه جائزته»** ، قالوا: وما جائزته؟ قال: **«يومًا وليلةً»** وليكرمه ثلاثة أيامٍ بلياليها، وجاء في بعض الأحاديث التأكيد على ذلك، أنه من نزل بفناء أناسٍ فقد استحق، فإن أعطوه فذاك، وإن لم يعطوه إن شاء اقتضى يعني أخذ، وإن شاء ترك.
- وأهل العلم لهم تفصيلٌ فيما يتعلق بهل له أن ينتزع حقه الذي إذا لم يقوموا بحق ضيافته أم لا؟

هذا من جهةٍ، فإذن الجائزة التي هي اليوم والليلة، هذا واجبٌ، ونص على الوجوب الإمام أحمد وجماعةٌ من أهل العلم، اتباعا لهذا الحديث وهو في الصحيح، وذكر الصحابة أنهم ينزلون يبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم فينزلون بأناس لا يضيفوهم، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا حقهم.

ففي هذا كله إشارةٌ إلى عظم حق الجار، ثلاثة أيامٍ مكملةً لذلك، وتمام، وبعدها نهي أن يبقى الضيف أكثر من ذلك، قال: ولا يقعد عنده يثويه أكثر من ذلك حتى لا يحرجه، لأنه يضيق عليه، وقد لا يكون بالإنسان قوةٌ على الإقامة الحق ونحوه.

- إذا تأكد ذلك فهل يتعلق هذا بكل ضيفٍ؟

بعض أهل العلم يجريه على العموم، سواءً في الأمصار الكبار التي فيها حوانيت وأماكن للأكل ونحوها، أو لم يكن كذلك، وبعض أهل العلم يخصه بأهل القرى، حيث لا يتهيأ للناس ما يجدون من طعامٍ أو شرابٍ ونحوه.

وهو بلا شك أنه في القرى آكدٌ، وقد يحتمل ألا يتعلق الوجوب بالأمصار هذا من جهةٍ، ثم أيضًا أنه لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم في التحكيم في هذا والوجوب فقال أهل العلم إنما ذلك لمن قدر أما ما لا يقدر فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، بل لا يجوز للإنسان أن ينزل بشخصٍ يعجزه أن يقوم به أو أن يضيفه.

- قال أهل العلم أنه ينبغي للمضيف ألا يتكلف، وأن يحسن له الطعام، ويطيب له الشراب بما لا يشق عليه ويكلفه.
- فليس بذلك، كما هي أعراف وعوائد بعض الناس، لابد أن يذبح ذبيحةً، أو يعظم المائدة أو نحو ذلك، إن كان ذلك من سعةٍ فالحمد لله، وإلا فلا، ولا ينبغي أن يكون في ذلك تكليفٌ على الناس، وزيادة كلفةٍ عليهم، فيكون في ذلك بلاءٌ ومشقةٌ كبيرةٌ.
- هذه جملةٌ من المسائل وفيها بيان عظم هذه الشريعة وما جاءت به من إكرام الذاهب البعيد، من نأتْ به الديار، وتفرق عن الأوطان، وبعد عن الأهل والأحباب، فلا يزال من أهل الإيمان من يؤيه ومن يكرمه ويضيفه، ومن يقوم بحقه ويحسن إليه.

  وفيه أيضًا فتح أبواب الخير للمضيف والإكرام والإحسان بما لا يشق عليه، وبما يقدر ويتمكن منه، والله جلَّ وعلَا لا يضيع عمل من أحسن عمله، وأقام حق الله جلَّ وعلَا، واتبع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

الحديث السادس عشر.

{عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال للنبي -صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال: «لا تغضب»، فردد مرارًا قال: «لا تغضب» رواه البخاري}

- حديث أبي هريرة لما جاء ذلك الرجل يطلب وصيةً من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لم تكن هذه الوصية بأحاديث طويلةٍ، ولا بكلامٍ مكرورٍ، ولا بجملٍ مسجوعةٍ، إنما هي كلمةٌ يسيرةٌ، لكن لها معنى عظيمٌ.



فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تغضب».

- وللنبي صلى الله عليه وسلم وصايا قال أهل العلم متنوعةٌ في هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى كل واحدٍ بما يناسبه، ولما كانت هذه الوصايا أيضًا يحتاج إليها الناس بعمومٍ، جاءت أسباب حتى تشمل الناس على اختلاف أحوالهم وتنوع ما يحتاجون إليه، وما يكون به قوام دينهم ودنياهم.
- وهنا لما قال: «لا تغضب»، قال: أوصني، قال: «لا تغضب»، قال: أوصني، قال: «لا تغضب»، يكررها فلا يزيد على هذه الكلمة، ففي هذا كأنه في أول الأمر يظن كأن فيه استقلالًا لها، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تغضب»، وفي بعضها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تغضب ولك الجنة يا أبا الدرداء»، وكان أبا الدرداء هو السائل في بعض روايات الحديث.
- ولذلك قول ابن رجب: فعلم من هذا أن الغضب جماع الشر، وأن ترك الغضب هو جماع الخير، ويؤيد هذا ما جاء عن عبد الله أو قال عبد الله بن المبارك في الإفادة من هذا الحديث: أنه لما سئل قيل عبر عن حسن الخلق في كلمة، قال: "ترك الغضب".
- إن كثيرًا من أبواب الشر على الناس إنما تكون من الغضب، وإنما يكون من تحرك النفوس، ودخول الشيطان عليها، وما يداخلها من الانتقام، والظلم والبغي، والطغيان ونحو ذلك، الذي هو شره في النفس، وبلاءٌ فيها، وتسلطٌ من الشياطين، وحضورٌ لحظوظ النفس وشهواتها، التي جاء الشرع بتهذيبها ومنعها.
- ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أكثر طمأنينةً وأقل وأبعد عن الغضب، حتى إنه إذا غضب إنما يرى ذلك في وجهه صلوات ربي وسلامه عليه.

- فيرى أنه قد كره ذلك من عظم ما جبله الله جلَّ وعلَا عليه من طيب الأخلاق وجميل الخصال ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، فهذا أمرٌ مهمٌ أن المرء يكتم غضبه.
- ولذلك قال أهل العلم: ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تغضب»، **ذكر أهل العلم في هذا معانيَ.**

❖ **الأول:** أن يستجلب من الأخلاق التي تبعدها عن الغضب، كطيب الخلق، والتبسم، والبشاشة، والكرم، والحياء، والحلم، والأناة، والسماحة، إلى غير ذلك من الخصال الكثيرة التي تحمل المرء على طيب نفسه، وبعده عن شدتها وضيقها.

❖ **الثاني:** أن يبتعد عما يكون محركًا لغضبه، والناس في ذلك يشتركون ويختلفون، منها أمورٌ يشترك الناس فيها، ومنها أن بعض الناس يغضبه ما لا يغضب غيره، فينبغي للإنسان أن يبتعد عما يستدعي الغضب ويأتي به.

❖ **الثالث:** أن الإنسان إذا غضب فإنه يملك نفسه، ولا يعمل آثار الغضب من كلامٍ أو فعلٍ، ولأجل ذلك لما قيل لبعض السلف لا تغضب إنه يأتيني ويغشاني ما لا أستطيع أن أدفعه، قال: فأمسك عليك لسانك واحبس عليك يدك.

فإنه إذا حبس ذلك فإنه لا يكون بذلك شرٌّ، ولذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ليس الشديد بالصرعة من الرجال إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**».

- كثيرًا من الشرور إنما مبدؤها الغضب، سواءً كان ذلك فيما يحصل بين الناس من الجناية، والاعتداء، والظلم بقطع يدٍ أو عينٍ أو قتلٍ أو غير ذلك ، إذا رأيت أن كثيرًا من ذهاب الحقوق إنما مبدؤها بتحرك النفس وغضبها، وربما يكون ذلك عند أفاضل الناس، ومن عرف بطيب خلقه، وطيب نفسه، يعني أنه ليس عنده ظلمٌ واستباحة حقوق الآخرين، لكنه إذا غضب ذهب عقله، وذهب رشده، فتحركت شياطينه فحملته على السوء والهوى والشر.
- فلأجل ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تغضب» ، ولأجل هذا قلنا إن المعنى المهم أن يملك الإنسان نفسه على الغضب، ولذلك يذكر أن عمر بن العزيز غضب، فقال له عبد الملك: أو تغضب وقد آتاك الله ما آتاك من الفضل، قال: أو لا تغضب يا عبد الملك، قال: إن لي جوفًا لا خير فيه إن لم يسع غضبي ألا أخرجه، أن أحركه فيه أو أديره فيه فلا أخرجه.
- فانظر إلى عظم هذا المعنى، يعني أن يحمل نفسه حتى لا يغضب، أو لا يظهر غضبه، ولذلك جاء في بعض الأحاديث، «**إذا غضبت فاسكت**»، وأمر به.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



تابالحديث السادس عشر.

- في قول النبي -صلى الله عليه وسلم: **«لا تغضب»** ، لما ذكرنا دواء الغضب، ولعلنا نذكر ذلك على سبيل الاستعجال.
- لاشك أن الغضب، من أشد ما يكون سببًا لحصول البلاء على المرء، فبالغضب يطلق المرء زوجته، وبالغضب يتعدى الإنسان على صاحبه، وبالغضب يحصل للإنسان أحيانًا ورطاتٍ وبلياتٍ في دينه، وفي دنياه، وكم تكلم أناسٌ بكلامٍ لا يرتضونه لأنفسهم، لكنهم لما غضبوا تكلموا، وكم اعتدى إنسانٌ على غيره لما غضب. إذن كان لزامًا على الإنسان أن يعلم أنه لابد أن يحجم بنفسه عن مواطن الغضب، ولذلك ذكرنا قول النبي -صلى الله عليه وسلم: **«ليس الشديد بالصُّرعة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»**.
- وذكرنا أن المرء ينبغي له يعرف الأشياء التي تحرك نفسه، وتغيظ قلبه، وتدعوه إلى حظوظ النفس وشهواتها ورغباتها، فيبعد عنها؛ لئلا يستدعيه ذلك إلى أن يغضب، وإلى أن يخرج عن اعتداله وحسن مزاجه، ومن أعظم ما يكون به ذلك ذكر الله ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: 28]، ومن اطمئن قلبه فإنه لن يغضب، وإذا غضب فإنه يُحفظ -بإذن الله سبحانه وتعالى.
- لكن لا ينفك الإنسان من أنه قد يأتيه إما في حال ضعف نفسه، أو تسلط شيطانه، أو غفلته إلى غير ذلك مما يجري، فيغضب، إذا غضب الإنسان ماذا يفعل؟ هذا قد جاءت به الأحاديث النبوية، وليس أتم من حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في علاج النفوس، وما يحصل به دواء دائها وبلائها وشرها، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما رأى الرجلين، يتخاصمان، قال: **«إني لأعلم كلمةً لو قالها هذا لذهب ما به، أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»** ، فلما قيل له: ألا تسمع إلى ذلك؟ قال: أبي جنونٌ؟! فانظر كيف فعل به الغضب، والخروج عن سيطرته على نفسه، واستقباله لوصية نبيه -عليه الصلاة والسلام.

- وجاء أيضًا من أعظم الأشياء التي يُدفع بها الغضب، ما يكون من الوضوء، فإنه جاء في الحديث عند أحمد وغيره، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان من النار، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»، فإنه يذهب عنه ما يجده، ويضعف عنه ما يأتي عليه، إذا توضأ بذلك.
- أيضًا من الأشياء التي تُذهب عن الإنسان غضبه، أنه إذا كما جاء ذلك أيضًا في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم: «إذا غضب وهو قائمٌ، فليلزق بالأرض ، فليجلس، فإن لم يذهب عنه، فليضطجع »، لماذا؟ لأن حظوظ النفس، وغليان الدم، إنما يكون في حال القيام، أكثر منه في حال الجلوس، وهو في حال الجلوس، أكثر منه في حال الإضطجاع، لأجل ذلك فإنه إذا جلس تسكن نفسه، وإذا اضجع تكون أكثر سكونًا، فيكون بذلك دواء غضبه، وحفظ نفسه من لأواء النفوس وبلائها، واعتدائها وظلمها، وطغيانها.



الحديث السابع عشر.

{الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد، فاللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين، وللمشاهدين، ولجميع المسلمين.
أورد النووي -رحمه الله- في كتابه الأربعين، الحديث السابع عشر: عن أبي يعلى شداد بن أوس -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيءٍ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» رواه مسلم}.

- هذا الحديث من الأحاديث العظيمة، وربما يراه بعض الناس جاء في مسألةٍ دقيقةٍ، أو في مسألةٍ غريبةٍ، لكن هذا يدل على كمال هذه الشريعة وعظمها، فإنها لم تترك شيئًا إلا وقد أتت عليه، حتى ما يكون في حال القتيل إذا أريد قتله، والذبيح إذا أريد ذبحه، لأجل ذلك كما تقدم معنا، قول أبي ذر: "لقد توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما طائرٌ في السماء يقلب جناحيه، إلا ذكر لنا منه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- علمًا" .
فقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان» المكتوب هو في الشرع المفروض، وذلك جاء في آياتٍ كثيرةٍ من كتاب الله -جلَّ وعلَا- ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة: 45] وآياتٌ مثل ذلك كثيرٌ، وقد يكون الكتب بالكتاب القدري، الذي هو حاصلٌ لا محالة، وواقعٌ لا مفر منه، بأن الله -جلَّ وعلَا- قدَّره وقضاه، وأيضًا دلت على ذلك دلائل، وجاءت بذلك النصوص.



والمقصود هنا: «كتب الإحسان».

- الإحسان هنا، أوجب الإحسان، والذي يظهر أن المقصود مطلق الشرع، يعني أن الله شرع الإحسان، والإحسان منه ما هو واجبٌ لازمٌ، ومنه ما هو مستحبٌ وليس بمفروضٍ، أو مستحبٌ مندوبٌ، فأما الواجبات مثل ما كتب الله -جلَّ وعلَا- من الإحسان في الاعتبار، وكمال الإيمان بالله -جلَّ وعلَا-، وأداء حق الله، وحق رسوله -صلى الله عليه وسلم-، الإحسان في الصلاة وإقامتها كما أمر الله -سبحانه وتعالى-، الإحسان إلى الوالدين، كما نصت على ذلك الآية ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: 151]، ومسائل كثيرةٌ تتعلق بذلك من أداء الحقوق، والابتعاد عن النواهي، فيكون الأمر في ذلك واجبًا.

- وقد يكون الإحسان مستحبًا، ومندوبًا، كما لو كان ذلك في نحو الصدقة، وبذلها، والتبرع بها، وما يكون أيضًا من الإحسان إلى الناس، بحسن الخلق، وبإعانة الملهوف، وبإعانة أيضًا من يريد حمل متاعٍ، أو غير ذلك مما جاءت به السنن، ودلت عليه أيضًا الأحاديث، ودعت إليه هذه الشريعة.
- أيضًا قد يدخل الإحسان حتى في ترك النواهي، فإن الله -جلَّ وعلَا- قال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: 121]، قالوا: فالإحسان في ترك النواهي أن يُترك ذلك كله.

«كتب الإحسان على كل شيءٍ»

- ما من أمرٍ من أمور الشريعة، إلا ودخله الإحسان، فيُعلم بهذا علمًا مقطوعًا به، علماً يقينيًّا أن هذه شريعةٌ حسنةٌ محسنةٌ، كاملةٌ مكملةٌ، تامةٌ متممةٌ، لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه، وذلك بأن الله -سبحانه وتعالى- قد بيَّن ذلك بأنه كتب الإحسان في كل شيءٍ، فقوله: «فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة» هذا ليس إعراضٌ أو انتقادٌ، بل هو أنه لما تتصور أن الإحسان مكتوبٌ في الأمور العظيمة، أو فيما يتعلق بحق الله، أو بالفرائض، مثل الصلاة والزكاة والحج، فحتى الأمور الخفية، فقد كتب فيها الإحسان ووجد، حتى حال القتل، الذي إنما تنفر إليه النفوس، للحاجة إليه، إما أن يكون ذلك باستحقاق ذلك بقصاصٍ، أو بردةٍ، أو بنحو ذلك، أو بأذيةٍ، كما إذا كان لقتل صائلٍ، أو حيوانٍ، أو نحو ذلك، ومع ذلك يُطلب الإحسان فيها.

«فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة».

- ولذلك تكلم الفقهاء -رحمهم الله تعالى- فيما يتعلق بالقتل وأحكامه، وهل يقتل بالسيف، «لا قود إلا بسيف»، وهذا قال به أبو حنيفة، وروايةٌ عند أحمد -رحمه الله تعالى-، أو أنه يكون القصاص بالمثل، فإذا قتل بحصاةٍ، قتل بمثلها، كما جاء ذلك في قصة اليهودي، وأهل العلم في ذلك مفصلون لهذه المسائل. على كل حالٍ، نهوا عن المثلة، نهوا عن الاعتداء، نهوا أن يُفعل بذلك ما قد لا يجوز شرعًا، كأن يُفعل به أفعالٌ شنيعةٌ، كأن تُجعل العصا في دبره، أو نحو ذلك.
- إذن ثم إحسانٌ، وألا يُقتل من لا يستحق القتل، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «ولا تقتلوا امرأةً، ولا وليدًا، ولا شيخًا، ولا راهبًا» ونحو ذلك.
- إذن هذا ما يتعلق بالإحسان في القتلة، ولأجل هذا قال أهل الإيمان أعف الناس في القتل، أو في القتلة، كما جاء ذلك به الأثر، حتى للمرتد، الذي كفر بعد إيمانه، وانتكس بعد إسلامه، فإنه يُحسن في قتله، ولذلك نُهي عن الظلم له والعدوان في حال قتله، إذا حُكم عليه بالقتل. وما جاء في بعض الآثار، أنه يحرق، أو نحوها، ونقل ذلك عن أبي بكر -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، فإن ذلك جاء في أثرين، كلها قد حكم عليها أهل العلم بالانقطاع، ولم يصححوا ذلك، وما جاء أيضًا عن عليٍّ أنه حرق، فإنه قد أنكر عليه ابن عباس -رضي الله عنه-، وجاء بذلك الحديث الذي في البخاري «أنه لا يعذب بالنار إلا الله -سبحانه وتعالى-»، ولأجل ذلك ما يفعل بعض ضلال المسلمين، والخارجين عليهم في التشنيع في القتلة، والتوحش في ذلك، هو خارجٌ عن دائرة الشرع، وعما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم.

حتى قال: «وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»

- والذبح متوجهٌ في الغالب إلى ما يكون من ذبح البهائم والأنعام ونحوها، حتى هي فإنه يُحسن ذبحها، ولذلك جاء عن مطرف بن عبد الله قال: إن الله ليرحم برحمة العبد للعصفور، ولما جاء ذلك الرجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: إني لآتي بالشاة، أذبحها فأرحمها، قال: «إن رحمتها رحمك الله». ولما رأى عمر-رضي الله تعالى عنه- رجلًا يشد أو يجر شاةً يذبحها، قال: "قدها قودًا جميلًا". كل ذلك من أثر هذا الحديث، والكلام عليه.

وهنا قال: «وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»

- فيه إشارةٌ لطيفةٌ، وهو أن كل شيءٍ يؤتى على سننه وأصله، فما كان من أمور البناء، فإنه يؤتى على أصول الهندسة، وقواعدها، وضوابطها، لا يخرج عنها، فلما كان أمر الذبحة إنما يؤتى بالشفرة، وتحد، وحدها له أصولٌ، ويعرفه أهله، فإنه لابد أن يكون كذلك، فاستدل بهذا على أن كل ما كان له اعتبارٌ ويؤتى من خلال أصله، فإنه لا يتجاوز أصله، ولا ينتقل إليه ما فيه إلى ما عداه، حتى في الأمور الإدارية، حتى في الأمور المالية والاقتصادية، هذا الحديث دالٌّ على أنها تؤتى على وجهها، ويطلب لها أسبابها، ولذلك أشار النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى شيءٍ من ذلك، في الذابح، أو القصاب، أو الجزار، الذي يذبح ذبيحته، ويأتي على ما يريد الخلاص منه من الذبيحة ونحوها.

الحديث الثامن عشر.

{عن أبي ذر جندب بن جنادة، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل -رضي الله عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «اتقِّ الله حيثما كنتَ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالقِ الناس بخلقٍ حسنٍ» ، **رواه الترمذي،** وقال: حديثٌ حسنٌ، وفي بعض النسخ، حسنٌ صحيحٌ}.

لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ بن جبلٍ وأبي ذرٍّ: «اتق الله حيثما كنت»

- ففيه إشارةٌ إلى أن أعظم ما يكون هو الوصية بتقوى الله ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131]، والوصية بتقوى الله -جلَّ وعلَا- أوصاها النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ الذي هو أعلم الناس بالحلال والحرام، فإن الوصية بتقوى الله لا ينفك عنها أحدٌ، إن كان ملكًا، إن كان عالمًا، إن كان رئيسًا، إن كان وزيرًا، إن كان من الصلحاء والعباد، إن كان من الفجار أو الفساق، فكل مطالب بأن يتقي الله -جلَّ وعلَا- في حاله وفي نفسه، ولا نجاة له في كل يوم من أيامه ولياليه إلا بتقوى الله -سبحانه وتعالى-. فلأجل ذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت» وعلى هذا تتابع الصحابة، أبو بكر في كتابه قال: أوصيكم بتقوى الله، وقال لعمر لما حضرته الوفاة: اتق الله يا عمر، وكتب عمر إلى ابنه عبد الله اتق الله، وجاء عن عليٍّ -رضي الله تعالى عنه- مثل ذلك، وجاء عن عمر بن عبد العزيز، فهي طريقة الأولين والآخرين ممن أرادوا السلامة في الدنيا والدين.

- وتقوى الله -جلَّ وعلَا- حقيقتها جعْل وقايةٍ بينك وبين عذاب الله، وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد تنوعت عبارات السلف في التعريف بها، كلها تدور على معنى متقاربٍ ودلالةٍ واحدةٍ، فلما يقول بعضهم التقوى هي إخلاص العبادة لله وترك الإشراك به، وهذا رأسها وهذا أسها، لا يكون إلا بتقوى الله -جلَّ وعلَا- بتوحيده والإيمان به، وتحقيق ذلك في كل حياة المرء حتى يلقى به ربه ويخلص به من دنياه.

- جاء طلق بن عليّ لما قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، أن تترك معصية الله على نورٍ من الله، تخاف عقاب الله. جاء عن عليٍّ -رضي الله تعالى عنه- أيضًا كلمة جميلة في تعريف التقوى هي: العمل بالتنزيل والخوف من الجليل والاستعداد ليوم الرحيل والرضا بالقليل، يعني في الدنيا.
- وجاء عن ابن مسعود أنه قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يذكر فلا ينسى، التقوى لله والتقوى من الله -جلَّ وعلَا- من عقابه، ومن عذابه، ومن شرِّ نكاله، ومن وعيده -سبحانه وتعالى-، ولذلك كان الملجأ إلى الله والمرتجى هو الله، والخوف والفزع من الله -سبحانه وتعالى.
- أكثر ما تكون التقوى في البعد عن المعاصي والسيئات، لكنها تكون هنا وهناك، ولو تكلمنا عن التقوى لطال بنا الحديث في فوائدها وعظيم أجرها، فهي النجاة في الآخرة ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: 72]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70] فأصل القول السديد هو التقوى ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: 71] ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201] كلها تدل على عظائم أثر التقوى، اتقوا الله ويعلكم الله، فما يحصل للعبد من النجاة والخلاص والفكاك في الدنيا وفي الآخرة إنما هو بتقوى الله -سبحانه وتعالى.

ثم قال: «اتق الله حيثما كنت»

- كل الأعمال تدخل فيها، كل الأوامر تدخل فيها، كل النواهي تدخل فيها، فالتقوى الأوامر باقتفائها والمسارعة إليها، والنواهي باجتنابها ومباعدتها، والتقوى تتعلق بالمرء في خاصته وبأهله وبكل من حوله ومن تحت يده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6].
- لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت» يعني أن التقوى ملازمةٌ للعبد في كل شئونه وفي كل أحواله، إن كان في برٍّ أو في بحرٍ أو في جوٍّ، إن كان في حضرٍ أو كان في سفرٍ أو كان في ليلٍ أو كان في نهارٍ أو في حربٍ أو في سلمٍ، في خاصته أو مع زوجه أو مع ولده أو مع والده أو مع عدوه أو مع صاحبه، في كل ذلك كله أو في جلوته أو في خلوته، حتى إذا ما خلى بنفسه، ولذلك قال: «التقوى في سرك وعلنك» ، كما جاء في بعض الأحاديث، فلابد أن يكون الإنسان كذلك، وجاء عن السلف التحذير عن الانتهاك للحرمات في حال الخلوات، ولذلك يقول سليمان التيمي: ما أسر عبدٌ ذنبًا إلا أظهره الله عليه مذلته في نهاره أو في كل أحواله ، وجاء في بعض الآثار ما أثر عبدٌ سريرةً إلا ألبسها الله إياه أو ألبسها رداءًا إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ.
- «اتق الله حيثما كنت» فينبغي للإنسان أن يعلم أن هذا من أعظم ما توزع به النفوس على حفظ العبد في حقوق الله -جلَّ وعلَا- في كل أحواله وشئونه، ولهذا يقول إذا ما خلوتَ الدهر بريبةٍ فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيبٌ، ولا تظن أن الله يغفل ساعةً ولا أنما يخفى عليه يغيب -سبحانه وتعالى- ومن استحضر ذلك في كل شئونه، فإنه يوشك أنه لا يستعدي أو يتعدى حرمات الله -سبحانه وتعالى- وما أكثر الحرمات التي ننتهكها في الخلوات، وجاء في هذا وعيدٌ عظيمٌ، إن أناسًا يأتون يوم القيامة بحسناتٍ كجبال تهامة، فيجعلها الله هباءً منثورًا، فلما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، فقال: «إنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها» ، فما أكثر ضعفنا في ذلك الأمر وإسرافنا على أنفسنا، لذلك بعض السلف يقول: ما تخاف أن تفعله في نادي القوم أو في اجتماع القوم، فلا تفعله في خلوتك أو فاجتنبه في سرك.

لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»

- هذا من أعظم التعابير ومن أكملها ومن أحسنها، أن أتتْ هذه بعد هذه، لما كان حال المتقين أنهم يجتهدون في ذلك، ومع ذلك لا ينفك الإنسان من أن يقع في خلةٍ أو يقع في عذرةٍ أو يوافق سيئةً، أو تضعف نفسه في ساعةٍ أو في خلوةٍ أو جلوةٍ، فأمره الله -جلَّ وعلَا- بأمرٍ يسيرٍ، أن يتبع السيئة بالحسنة تمحوها، فيذهب عنه بلاؤها ويحصل لها خير الحسنة وأجرها عند الله -جلَّ وعلَا-. وأتبع السيئة الحسنة تمحها فيه إصلاح للنفوس، وإعانة لها على الخير. وفي ذلك يقول الله -جلَّ وعلَا: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114] وهذه الآية نزلت في ذلك الرجل الذي قبَّل امرأةً، فقال للنبي -صلى الله عليه وسلم: إني قبَّلتُ امرأة، فقال: «صلِّ معنا» فلما صلى معه أنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، قال: لي خاصةً؟ قال: بل للناس عامةً أو كما جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض ألفاظه وروايته.
- وأتبع السيئة الحسنة، ما المقصود بالحسنة هنا؟ ربما يراد بها التوبة ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [مريم: 60] وهذه قد جاء فيها ما يدل عليها في آياتٍ كثيرةٍ من كتاب الله -جلَّ وعلَا- والتوبة تجب ما قبلها، أذنب عبدي ذنبًا ثم سأل ثم يستغفر، فيغفر الله له، كما جاء ذلك، حتى قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «ولا يمل الله حتى تملوا»، وهذا معنى ظاهرٌ لا غبار عليه ومقصودٌ، في أن الإنسان يتوب من السيئة، فيكون ذلك محوها وذهابها، وأيضًا يكون ذلك بفعل الحسنة، بدليل الآية التي معنا ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، وكما جاء في الوضوء، أن الإنسان إذا توضأ خرجت ذنوبه مع قطر الماء أو مع آخر قطر الماء، «من توضأ فأحسن وضوءه ثم صلى ركعتين، غفر له» فيه أحاديث كثيرةٌ تدل على ذلك.
- لكن هل السيئة المقصود بها مطلقًا أنها تذهبها الأعمال الصالحة سواءً كانت صغائر أو كبائر؟ أما الصغائر فتذهبها الأعمال الصالحة، وهذا قد جاءت به الأحاديث «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، والعمرة إلى العمرة، ورمضان إلى رمضان مكفراتٌ لما بينها إذا اجتُنبت الكبائر» ، لكن هل تُكفَّر الكبائر بفعل الصالحات؟ المشهور عند عامة أهل العلم، بل نقل ابن عبد البر إجماع أهل العلم، أن الكبائر لا تُكفَّر إلا بالتوبة، استثنى من ذلك ما نقل عن أهل الظاهر، وإلا فعامة أهل العلم على ذلك، فلا بد من أن واقع كبيرةً أو اقترف سيئةً عظيمةً أن يتوب إلى الله -جلَّ وعلَا.
- ثم ذكر بعض أهل العلم ما يدل على أنه قد يذهب بعضها، لكن ليس في ذلك شيءٌ صريحٌ، بل قال أهل العلم أن المقصود بذلك أنه تكون الموازنة، لا أنها تكفرها لكن تكون الموازنة، فتقابل السيئات بهذه الحسنات، فما يساويها يسقط، وما يبقى يثاب عليه الإنسان من الحسنات، وإلا فلا.

«وخالقْ الناس بخلقٍ حسنٍ»

- يقول أهل العلم: إنه لما كان أهل التقوى أو بعض من يظن أن التقوى إنما هي في فعل الأوامر وأداء حق الله جلَّ وعلَا، ثم لعل بعضهم أن يخلط أو أن يسيء أو أن يجفو الناس ويسيء إليهم، ولا يحتمل أذاهم، ولا يحترم جوارًا، أو لا يحترم صحبةً، أو لا يحترم حقًّا، أو لا يحترم ما يكون للمسلم على المسلم، أو عهدًا أو غير ذلك.
- فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين أن مخالقة الناس بخلقٍ حسنٍ هي داخلةٌ في حقيقة الإيمان، فلا يتكثر الناس فقط بفعل الصلوات والواجبات، ويتركون الأخلاق، ومعاملة الناس بالحسنى، فإن هذا من أعظم أبواب البر، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقًا» ، «بيتٌ في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»، «أثقل ما يوضع في الميزان: الإيمان وحسن الخلق».

- ولذلك جاء في الحديث: «إن المؤمن ليبلغ بإيمانه درجةً، وإنه لينقص بشيءٍ من خلقه» أو كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم.
- ما أحسن أن يتفقد الإنسان نفسه، وليس جمال الأخلاق في أن تبادل من صنع لك أحسن الألفاظ وأجملها، وعاملك.. بل من أساء إليك وأخطأ في حقك، فاحتملت أذاه وقابلته بضد ذلك، وأحسنت إليه، ولذلك قيل أو جاء في بعض الأثر: أفضل الأعمال أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتحسن إلى من أساء إليك.

قال: «وخالق الناس بخلقٍ حسنٍ»،

- فما أحسن أن يصبر الإنسان على الأخلاق وأن يتجمل فيها، وأن يطلب تمامها وحسنها، ذاك بابٌ واسعٌ، ذاك بابٌ عظيمٌ، يطلب للقلة القليلة من الناس، فهنيئًا لمن دخل بابه، وهنيئًا لمن حمل لوائه، وهنيئًا لمن كان بين الناس مضيئًا بحسن خلقه، وطيب فعله، وجميل منطقه، وكرمه، وصلته لأحبته والإحسان لمن حوله جميعًا.

الحديث التاسع عشر.

{عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال: «يا غلام إني أعلمك كلماتٍ، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعتْ الأقلام وجفَّتْ الصحف» رواه الترمذي وقال حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وفي رواية غير الترمذي: «احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا».}

- هذا الحديث حديثٌ عظيمٌ، وهو وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس، وكان ابن عباس صغيرًا، مما يدل على أنه ينبغي أن توجه الوصايا والعظات والتنبيهات والتأديبات للصغار كما توجه للكبار، وأن في ذلك لركيزةٌ لهم ترتكز في قلوبهم، وتقوم بها نفوسهم، ويحيون بها، ويشبون عليها.

«يا غلام إني أعلمك كلماتٍ»

- والمقصود بالكلمات جملٌ يسيرةٌ، وهي جملٌ يسيرةٌ في لفظها عظيمةٌ في معناها،

قول النبي صلى الله عليه وسلم: «احفظ الله يحفظك»

- فالجزاء من جنس العمل، حفظ العبد لله جلَّ وعلَا، المقصود به حفظ أوامره، المسارعة إليها، وإتيانها، وفعلها غير ناقصةٍ ولا مخلٍّ بها، ولا مضيعٍ لها، واجتناب النواهي، والبعد عن حدود الله جلَّ وعلَا، وحرماته أن ينتهكها أو أن يواقعها أو أن يرتكس فيها.
- فالله جلَّ وعلَا يحفظ من حفظه، وقال أهل العلم إن حفظ الله جلَّ وعلَا لعبده الذي حفظ أمور دينه أن يحفظه في أموره الدينية وفي أموره الدنيوية، ولذلك يقول الله جلَّ وعلَا: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 11]، فهذا فيه إشارةٌ إلى حفظ الله للعبد في مصالحه ودنياه.

- لما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث البراء بن عازب: **«واحفظني فيما تحفظ به عبادك الصالحين»**، فدل على أن لهم حفظًا في صلاحهم واستقامة دينهم، ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]، فدل على أن الصلاح والإخلاص، وأن الاستقامة وإتيان الأوامر سببٌ للحفظ في الدين وصرف الفحشاء والمنكرات والخطايا والسيئات، وأي حفظٍ أعظم من ذلك الحفظ، أن يُحفظ على العبد دينه، وأن يُحفظ من شهواته، وأن يُحفظ من شبهاته، فيبقى قلبه صافيًا، وإلى الله متوجهًا، وله مخلصًا، وإنما ذلك بأن يحفظ العبد حق الله جلَّ وعلَا، وأعظم ما يدخل في توحيده الصلاة بر الوالدين صلة الأرحام حق الجوار، ما يكون أيضًا من الحقوق المالية، ما يتبع ذلك من حقوق الناس بعامةٍ، وحق الطريق، أداء الأمانات في الأعمال إلى غيرها، حتى حق المعاهدين والكفار فإن العبد لا يضيع من ذلك شيئًا قليلًا ولا كثيرًا.
- **«احفظ الله يحفظك»**، وحفظ الله لعبده أتم ما يكون، ولأجل هذا مَن حفظ الله فإنه يوشك أن لا يذهب في بلاءٍ، لا يحصل له شرٌّ، فيذكر أن أبا الطيب الطبري رحمه الله تعالى وقد بلغ المائة، قفز قفزةً بعيدةً، فلما قيل له، قال: تلك جوارح حفظناها في الصغر، فحفظها الله لنا في الكبر.

قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك».

- وفي الرواية الثانية: **«تعرَّف على الله في الرخاء يعرفْك في الشدة»** كل ذلك يدل على معنى واحدٍ أو معنى متقاربٍ، وأنه مهما كان الإنسان مع الله جلَّ وعلَا فإن الله معه، معية الله لعبادة معيةٌ عامةٌ تقتضي الإحاطة، ومعيةٌ خاصةٌ لأهل الإيمان تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة والتسديد، ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194]، إن الله مع المحسنين، فتلك معيةٌ أخص وحفظ لعباده المحسنين، ووقايةٌ لهم من البلايا والشرور، وهذا هو الذي في هذا الحديث لما قال: **«احفظ الله تجده تجاهك» «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».**
- ومعرفة الله بمعرفة حدوده، وأحكامه، وأيضًا تزيد بأن يكون الإنسان يعرف الله جلَّ وعلَا بعظيم لطفه، وبقوة انتقامه، فيكون أكثر مراقبةً له، وملاحظةً لأمره ونهيه، وحفظًا لحق الله سبحانه وتعالى في كل أحواله.

ثم لما قال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك: «وإذا سألتْ فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله».

- هذه قول الله جلَّ وعلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، هي السؤال سواء سؤال العبادة أو سؤال الدعاء، فكل ذلك إلى الله، وكل ذلك إنما يرفع إلى الله، وإذا سألتَ فاسأل الله، ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، كل مسألةٍ لغير الله ففيها مذلةٌ، وكل مسألةٍ لغير الله ففيها انقطاعٌ، وكل مسألةٍ إلى الله جلَّ وعلَا فهي عزٌّ وفرحٌ وخيرٌ وإجابةٌ وأجرٌ ومثابةٌ عند الله سبحانه وتعالى.

  فأي الأمرين تختار؟ ولذلك جاء عن بعض السلف أنه قال: لا تسأل من أغلق دونك بابه، وأظهر بين ذلك حجابه، واسأل من بابه مفتوحٌ كل وقتٍ وكل حينٍ إلى يوم القيامة.
- وإذا كان الناس يسأمون بدعائهم، فإن الله يفرح بدعاء عباده، ويجيبهم ويعطيهم، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].
- والله سبحانه وتعالى يجيب من سأله، وكل ما تعرض الإنسان لأسباب ذلك وطلب ما يكون سببًا مقتضيًا للإجابة فيكون ذلك أدعى إذا جاء في ثلث الليل فإن الله ينزل إلى السماء الدنيا يقول: **«هل من داعٍ فأستجيب له، هل من سائلٍ فأعطيه، هل من مستغفرٍ فأغفر له»**، من أدى حق الله فإنه يوشك أن يكون أسرع لإجابته، إذا دعى

الله بقلبٍ حاضرٍ لا غافلٍ، من يعرف الله ويدعوه في الرخاء فإن الله يجيبه في الشدائد بدلالة هذه الجمل وهذه العبارات.

«وإذا استعنت فاستعن بالله»

- كم من الناس الذين يستحضرون في أيامهم وحياتهم ما يكون عندهم من عدةٍ أو عددٍ ومن سلاحٍ ومن قوةٍ ومن مالٍ أو صحةٍ، فيذهبها الله جلَّ وعلَا. لكن من يستعين بالله ومن يستحضر أنه لا إعانة إلا من الله جلَّ وعلَا، فإن الله يسدده ويوفقه ويبارك له في قوته، وصحته، وعافيته، وماله، وولده، وكل أحواله، وفي أوقاته وشؤونه، حتى يغنيه قليل المال عن كثيره، وحتى يفرح بقليل الأمور عن كثيرها، وحتى يسعد في كل حالٍ من أحواله، لأن المستعان هو الله، والله هو المعين لعباده، ولذلك يقول القائل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى .:. فأول ما يجني عليه اجتهاده

- فهذه من أعظم مسائل التوحيد أن السؤال لله، سواءً سؤال العبادة بالدعاء والذبح والصلاة وأنواع العبادات من التوكل والخوف والرجاء، أو دعاء المسألة الذي هو سؤالٌ واستغاثةٌ وتوجهٌ وانقطاعٌ لله سبحانه وتعالى.

وكذلك الاستعانة إنما تكون بالله، فمن توجه إلى غير الله جلَّ وعلَا فإنه توجه إلى ضعفٍ، فيكون أمره في وبالٍ وخسرانٍ، سواء توجه إلى قبرٍ، توجه إلى وليٍّ، إلى صالحٍ، إلى أحدٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، «من تعلق شيئًا وُكِل إليه».

فما الفرق بين من يتوجه إلى مسبب الأسباب، ورب الأرباب، الله سبحانه وتعالى خالق الأرض والسموات، وبين من يتوجه إلى مخلوقٍ ضعيفٍ مربوبٍ لله سبحانه وتعالى.

الفرق بينهما كالفرق بين الخلق والحق، كالفرق بين الخالق والمخلوق، كالفرق بين الله وعباده سبحانه وتعالى.

ثم قال: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك»

- فيه إشارةٌ عظيمةٌ بليغةٌ جميلةٌ إلى أن الخلق أضعف ما يكون، وأن العبد أسعد ما يكون بتعلقه بالله، وارتباطه به في كل ضوائقه، وفي كل شؤونه، وفي كل أحواله، المرأة إذا طلقت، والعبد إذا أحاط به الدين، والمرء إذا سجن، والأمور إذا اشتدت، والجسم إذا سقم، فاعلم أن الأمر بالله، واعلم أن الأمر من الله، فلا تتوجه إلى إلا الله، وما أسهل ذلك على قلوب أهل الإيمان، أن تخلص عقيدتها وتوجهها ويصفو قلبها في التعلق بالله سبحانه وتعالى.
- وهنيئًا لمن انقطع عن البشر والخلق والأسباب المادية وانقطع إلى الله سبحانه وتعالى، وكان ذلك هو مجأره في ليله ونهاره وجميع أحواله.

ثم يقول: «رفعت الأقلام وجفت الصحف»

- وهي إشارةٌ إلى القدر، وإيمان العباد به، وأن ما من شيءٍ إلا قد كتبه الله جلَّ وعلَا وقدره، وهي كنايةٌ لطيفةٌ في أن الأمور بيد الله، وأن الله قد كتبها، وأحاط بها، وقدرها، فما أصابك وما نزل بك من ضر، وما اشتد بك من حالٍ، فإن ذلك مكتوبٌ عند الله جلَّ وعلَا، فلم يبق إلا الرضا والتسليم.

- والرضا هي أعلى الدرجات في درجات الإيمان بالقدر، فإن ذلك يكون من أعظم خصال أهل الإيمان، ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11]، قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.
- أما الدرجة الثانية فهي الصبر، وذلك بأن يحبس نفسه عن الجذع والتسخط، والشكاية والاعتراض على حكم الله جلَّ وعلَا، وقضائه وقدره.
- إن من أعظم ما جاء به الشرع هو الإيمان بالقدر، فهو يورث النفوس من الطمأنينة ما لم يجده الإنسان في شيءٍ من الأشياء.
- فلتطب نفوس أهل الإيمان بالإيمان بالقدر، ولا يكون ذلك معيقًا لهم عن العمل، فإن الله جلَّ وعلَا أمرهم به، وحثهم عليه، والله جلَّ وعلَا يثيبهم ويجزيهم به،

ثم قال: «واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك».

- فإذا كان الإنسان قد تجرد حتى علم هذه الأمور فذلك تمام العلم وما يكون من أحسن الفقه، أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، واعلم أن النصر مع الصبر، النصر مع الصبر ليس شيءٌ أعظم من المصابرة، لذلك أمر الله بالصبر والمصابرة والمرابطة، قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 189]، فجعل ذلك سبب الفلاح، ولذلك قال عليّ: رأس الأمر الصبر.
- وجاء الأمر بالصبر في كتاب الله جلَّ وعلَا في آياتٍ كثيرةٍ، فالصبر سواءً كان على جهاد الأعداء، أو جهاد الشيطان، فإنما يحصل للإنسان الخلاص والتغلب بالصبر والمصابرة، ولذلك ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 249]، و ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: 65]، وآيات في كتاب الله جلَّ وعلَا كثيرةٌ، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا.
- ما أعظم هذا الكلام لو تأمله المكلومون، والموجوعون، والملهوفون، والمدينون، والمسجونون، وكل الخلق أجمعين، فإنهم لو تأملوا ذلك لعلموا عظمه، واعلم أن الفرج مع الكرب،اقترانهما أعظم ما يكون في النفوس، لأنه كلما اشتد الكرب وتناهى تخلصت النفوس من التعلقات الدنيوية وتوجهت إلى خالقها، فيكون الله جلَّ وعلَا أقرب لعبده لأنه أخلص في التوجه إليه.
- ولذلك كان الله جلَّ وعلَا مع عباده وأصفياء خلقه، وأنبيائه من رسله، فكان مع نوحٍ حتى أنجاه، وكان مع إبراهيم الخليل حتى خلصه من عدوه، وأنجا ابنه من الحكم بذبحه، وحصل ذلك لموسى حتى أنجاه من عدوهم، وكان ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم في أحوالٍ كثيرةٍ، ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]، وأن مع العسر يسرًا، جاء ذلك في سورة الانشراح، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الشرح: 5، 6]، قال أهل العلم: لن يغلب عسرٌ يسرين، يقولون: حتى لو دخل عسرٌ جحر ضبٍّ لظننا أن اليسر يلحقه، لعظم ما يجعل الله جلَّ وعلَا من الفرج واليسر بعد حصول العسر.

الحديث العشرون.

{عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخاري}.

- هذا الحديث في خصلةٍ من الخصال الحميدة، وخصال الأخلاق، وواحدٍ من أعظم أنواع الأخلاق وأتمها. فجاء فيه أحاديث كثيرةٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم، لما ذكر أن من خصال الإيمان الحياء وجاء أيضًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«إن الحياء لا يأتي إلا بخيرٍ»** ، **«إن فيك خصلتيْن يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة»**، والأناة فيها شيءٌ من ذلك.
- الحياء من أعظم ما جاءت به الشريعة، ولأجل ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى»** مما يدل على أن هذا مما ظهر وتكلم به الأنبياء قبله لعظم فضله، وكبير ما يتعلق به من درجته.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم هنا: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»

- ما المقصود بذلك، قال أهل العلم: فيه إشارةٌ إما إلى أن هذا يعني تنبيهٌ إلى من يتخلص أو يتخلى عن الحياء فإنه متوعدٌ بالوعيد الشديد، فتكون تلك **«إذا لم تستح فاصنع ما شئت»** فإنه وعيدٌ وتهديدٌ في ذلك، وفي هذا جملٌ كثيرةٌ في الشرع دالةٌ على هذا المعنى، فيكون كالوعيد، وأن الذي لا يستحي يصنع ما يشاء من الرذائل والفواحش ويجاهر بها، ولا يستنكف عنها.
- وقالوا: في المعنى الثاني أن يقصد أنه إذا لم يكن الأمر داخلًا في حدود الحياء، فإن للإنسان فيه سعةً أن يفعله، وأن يأتيه، وأنه لا غضاضة عليه في ذلك ولا حرج، وكلا المعنيين صحيحٌ، وداخلٌ في دلالة هذا الحديث، فينبغي للإنسان أن يحمل نفسه على الحياء، وما دخل الحياء في قلب امرئٍ حتى حمله على الخير، وحجبه عن كثيرٍ من الشرور.
- وقد يكون ذلك جبلةً جبله الله جلَّ وعلَا عليها، فذلك من عظيم مننه، كما ينعم على هذا بالمال وهذا بزوجه، وهذا بكذا وهذا بكذا، وقد يكون شيئًا يكتسبه، فكلما زاد الإنسان من صلاحه، وأقبل على الله جلَّ وعلَا بكليته، رزقه الله جلَّ وعلَا الخشية منه والحياء من أن يفعل شيئا يزري به.
- وأبواب الحياء كثيرةٌ، مبنى ذلك أن يحافظ على الأوامر، وأن يتقي الله جلَّ وعلَا أن يقطع رحمًا، أو أن يسيء إلى قريبٍ، أو أن يفعل شيئًا من الأمور التي تذري به، من فاحش القول، أو غير ذلك.
- جاء عن السلف، أنهم يقولون إن العبد إذا لم يستح أو أنك إذا كنت تكره أن يراك عليه القوم في علانيتك، فلا تفعله في سرك، فإن هذا من الحياء.
- وأعظم ما يستحي العبد منه، أن يستحي العبد من ربه، وأن يستحي من خالقه، وأعظم ما يكون فيه ذلك، أن يحقق ما يكون به صلاح إيمانه، وألا ينتهك حرماته، فإن الله جلَّ وعلَا مطلعٌ على العبد في خلوته، وأن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عليه شيءٌ من أمر عبده، فإذا كنتَ تخشى من الناس ولا تخشى من الله، يستحيون من الناس ولا يستحيون من الله، ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 108] سبحانه وتعالى.
- فلا شك أن العبد مأمورٌ بأن يكون أحق أن يحرص عليه أن يكون حياؤه من ربه، وإقباله على مولاه، ولذلك كم من الناس الذين ربما كان لهم بعض سوءٍ، لكن عندهم شيء من الحياء، فستر الله عليهم، فغفر لهم وعفا عنهم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

تابع الحديث العشرين.

- وبين يدي هذا الحديث أريد الحقيقة أن أشير إلى حديث «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت» ، كنت قد ذكرت حديثًا وأظن أن بعض الإخوة استدركه عليه، «إن فيك خصلتيْن يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة» ، هو جاء في بعض رواياته عند أحمد وغيره «الحلم والحياء» ، وهذا هو محل الشاهد لكن ربما سبق اللسان بالرواة المشهورة التي في الصحيحين، فأردت التنبيه على ذلك.
- أيضًا مما ينبغي أن يختم به هذا الحديث أن ما جاء في الحياء، فإن الحياء كله منبع الأخلاق، فإن الإنسان إذا أُلبس لباس الحياء لم يكن نمامًا، وإذا ألبس لباس الحياء لم يكن فاحشًا، وإذا ألبس لباس الحياء مغتابًا، وإذا ألبس لباس الحياء فإنه لا يكون فظًّا غليظًا، وإذا لبس لباس الحياء فإنه يكون أكثر ما يكون طمأنينةً وهدوءًا وسكونًا، فلا يكون مستعجلًا ولا يكون غضوبًا، ولا يكون متعجلًا إلى أمورٍ تفوت به كمال الأخلاق وتمام السنن.
- ولذلك لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل يعظ صاحبه في الحياء، قال: «دعه فإن الحياء خيرٌ كله» . أو «فإن الحياء لا يأتي إلا بخيرٍ»، كما جاءت بذلك الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم.
- والمقصود هنا بالحياء الذي هو محل الكلام، إنما هو الحياء الذي يحمل على الفضائل، لا الذي يعيق الإنسان عن فعل مكارم الأخلاق، والإتيان بالواجبات، وبذل الحقوق والانتهاء عن المحرمات.

فإذا كان الإنسان مثلًا حياءه الذي يسمى عند الناس الخجل، وحتى يمنعه أن يأتي بواجبٍ، أو أن يسابق إلى فضيلةٍ أو أن يفعل من مكارم الأخلاق وجيدها، فإن ذلك ليس مما هو حديثنا، فالحياء الممدوح الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، الذي يلبس على النفوس، ويكون مفيضًا عليها بأنواعٍ من الخلال والخصال الطيبة.

الحديث الحادي والعشرون.

{ أورد النووي رحمه الله الحديث الحادي والعشرين
عن أبي عمرو وقيل أبي عمرة سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «قل آمنتُ بالله ثم استقم »رواه مسلم}

- ينبغي على المرء أن يعلم أنه بحاجةٍ إلى الوصية، فإذا وجد أهلًا لأن يوصيه، فلا يتردد في أن يطلبه الوصية، أن يحثه على شيءٍ من أمور الدنيا إذا كان في إقبال عملٍ، أو إقبال دراسةٍ، أو رجوعٍ إلى بلده، أو استقبال نكاحٍ، أو غير ذلك من الأمور التي تستوجب أو تستدعي ما يكون فيها خيرٌ يحتاج الإنسان إلى غيره أن يعينه عليه ويبصره به، كان ذلك مناسبًا.
- إن أبا عمرو هنا طلب من النبي صلى الله عليه وسلم كلمةً ووصيةً في الإسلام، ولذلك كانت هذه من أعظم الوصايا، مع اختصار لفظها.



لما قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»،

- وفي هذا إشارةٌ إلى أن الإيمان أهم ما طلب من العبد، وأولى ما سعى إليه، وما ملأ به وقته، وما اشتغل به في حياته، وما كان طلبه في كل أحواله، وهو سابقٌ إلى أمور الدنيا، فإذا تعارض أمر من أمور دنياه، وأمور إيمانه وعقيدته، فإنه لا يقدم على العقيدة والإيمان شيئًا، فإن الإيمان مقدمٌ على ذلك كله، وهو أولها وأولاها وأعظمها وأنجحها وأنجعها وأنفعها وأصلحها للمرء في الدنيا وفي الأخرى.
- ومن طلب الدين وقدمه، فإن الله يقدمه، وإن الله يتولاه، ومن قدم غيره فيوشك أن يكون ذلك عنوان خسرانه ووباله في الدنيا والآخرة.
- «قل آمنتُ بالله ثم استقم» هو قولٌ وعملٌ ليس قولًا مجردًا، وليس تزينًا بالألفاظ ولا تكثرًا بالكلام، وإنما هو شيءٌ ينعقد به القلب ويلفظ به اللسان، وتستقيم عليه الجوارح أبد الدنيا.

ولذلك قال أبو بكر في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «قل آمنت بالله ثم استقم»، قال ألا يشرك بالله شيئًا.

وقال بعض السلف: ألا يلتفت إلى غير الله سبحانه وتعالى.

وجاء عن عمر قال: في قول الله جلّ وعلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: 30]، يعني لم يروغوا روغان الثعالب.

- ففي هذا إشارة في قول أبي بكر إلى الاستقامة الباطنة، وفي هذا الاستقامة الظاهرة، يعني أو العكس، هنا الظاهرة وفي قول عمر الاستقامة الباطنة، أن يقر في قلبه الاستقامة الحقيقية وألا يكون محتالًا وألا يكيد، وألا يقتنص الفرص حتى يفعل ما فيه نفسه وما في هواه، وما في أموره التي هي اتباعًا للهوى وللشيطان.
- ولأجل ذلك كان من أعظم ما يكون به الاستقامة ترك الهوى، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا﴾ [هود: 112]، ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: 15]، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: 6].
- في هذه الآيات الثلاثة إشارةٌ إلى أعظم أصول وأسباب الاستقامة، فمن أعظمها ترك الهوى، فمن شغل بهواه يوشك أن يحرفه ويوشك أن يضله، ويوشك أن يذله، ويوشك أن يحصل به بلاؤه في الدنيا والآخرة، هذا واحدٌ. الثاني أنه لا يطغى ولا يغلو ولا يتجاوز ولا يظلم ولا يتعدى، ولا تطغى، فأصل الاستقامة والإقامة عليها والتوبة إلى الله جلَّ وعلَا، والحفاظ عليها، ثم عدم الطغيان والظلم والمجاوزة الحد والتعدي فيه.
- ثم قال: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ قال أهل العلم: فإن المستقيم لابد وأن يحصل له عثرةٌ، وأن يكون منه هفوةٌ، وأن تجري منه الزلة، فيحتاج في ذلك إلى ترميم ذلك وتكميله بالاستغفار لله جلَّ وعلَا والتوبة إليه في كل أحواله.

- ولأجل ذلك كانت الاستقامة هي طلب الصراط المستقيم غير المعوج الذي لا يميل عنه يمينًا ولا شمالًا، ولأجل هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «سددوا وقاربوا»، «سددوا وإنكم لن تحصوا»، السداد هو الإتيان بالأمر على تمامه، ولما قال: «قاربوا» لما عُلم أن المرء لكثرة مسائل الشرع وأحكامه وما جاء به، فإن المرء لا ينفك أن يكون منه شيءٌ من النسيان، أو الضعف، أو التضييع أو غير ذلك، فيحتاج في ذلك إلى المقاربة إذا حصل الفوات، أو حصل التقصير أو حصل النقص في ذلك بوجهٍ من الوجوه.
- وينبغي للإنسان أن تكون استقامته في كل أحواله، وفي كل أموره، وفي كل شؤونه، يبدأ بأعظم ذلك وأجله وأكبره وأولاه كما قلنا هو توحيد الله والإيمان به، كما جاء ذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «قل آمنت».
- والإيمان إذا جاء في قولٍ واحدٍ فإنه يدل على الاثنين، على الأعمال الظاهرة والباطنة، ولذلك لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم قل لي في الإسلام، فقال: «قل آمنت بالله» فدل ذلك على أن الإيمان والإسلام شيءٌ واحدٌ، يرتبطان ويتفقان، ويتحدان، ويتكاملان، فكان ذلك هو الأمر بالإتيان بالأمور الظاهرة والباطنة ، الاستقامة تكون بفعل الأوامر واجتناب النواهي، فإنه لا يتأتى للإنسان أن يكون مستقيمًا حتى يؤدي ما أمر الله سبحانه وتعالى ثم يترك النواهي وإلا فإنه لا يستقيم.
- والاستقامة أيضًا متعلقةٌ بالإنسان في قلبه، ومتعلقةٌ به في لفظه، ومتعلقةٌ به في فعله، والاستقامة متعلقةٌ بحق الله وحق العباد، والاستقامة متعلقةٌ بالعبد في ليله ونهاره، والاستقامة متعلقةٌ بالعبد في حضره وسفره، وفي شبابه وفي مشيبه، وفي كل أحوال حياته وتقلبات أيامه، نسأل الإعانة والتوفيق.



الحديث الثاني والعشرون.

{عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما أن رجلًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت إذا صليتُ الصلوات المكتوبات، وصمتُ رمضان، وأحللتُ الحلال وحرمتُ الحرام، ولم أزد على ذلك شيئًا، أدخل الجنة، قال: «نعم». رواه مسلم

ومعنى حرمت الحرام اجتنبته، ومعنى أحللت الحلال فعلته معتقدًا حله}

- كما قال المؤلف أو الجامع رحمه الله تعالى أحللتُ الحلال وحرمت الحرام، قال: جماعةٌ من أهل العلم إن المقصود بذلك أن يعتقد حل الحلال وحرمة الحرام، وبعضهم قال: أنه لما يقول أحللتُ الحلال يعني فعلته وأتيته وتعاطيته، وحرمتُ الحرام يعني ابتعدتُ عنه وامتنعتُ وجانبته.
- إن المرء إذا أحل الحلال فاعتقد حله، فإن ذلك موشكٌ بأن يكون أدعى لقبوله والاستمساك به وإتيانه، والبعد عن الحرام واجتنابه.
- ويقولون إنه إذا قيل بأن أحللتُ الحلال يعني فعلته، فيدخل في ذلك ما يتعلق بالحلال الذي هو مباحٌ وبالمستحب ويدخل في ذلك الواجب، فيكون كله داخلًا في هذا، ومتعلقًا به.

وجاء في أحاديث كثيرةٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم بل نزلت بذلك الآيات فيمن حرم ما أحل الله سبحانه وتعالى فإن ذلك مجانبٌ للصواب.

- فإن الثلاثة النفر لما جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أما أنا فأقوم فلا أنام، والآخر يقول أصوم فلا أفطر، والآخر يقول أما أنا فلا أتزوج النساء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أما أني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».
- ولما جاء أقوامٌ قد حرموا بعض ما أحل الله لهم، أنزل الله جلَّ وعلَا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]، فأمرهم بأكلها وتعاطيها وعدم الامتناع منها.
- وعاتب الله جلَّ وعلَا نبيه في ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: 1].

لما قال: أرأيت إذا صليتُ الصلوات المكتوبات، وصمتُ رمضان، وأحللتُ الحلال.

- كأن ظاهر هذا الحديث أنه يقتصر على ذلك ولا يزيد عليه، فما المقصود بعدم الزيادة عليه، ليس المقصود بعدم الزيادة عليه أنه لا يأتي إلا هذه الشعائر، والشرائع، وإنما المقصود بذلك أنه لا ينتقل من الواجبات إلى المستحبات، وما لا يتعين عليه فِعْله.

وهذا ظاهرٌ عند أهل العلم وإلا لأدى ذلك إلى أن يُفوِّت كثيرًا مما أمر الله جلَّ وعلَا به، ورتب عليه الأجر، ورتب على تركه من الوعيد، وذلك بلا شك أنه غير مقصودٍ.

- فلأجل ذلك قال أهل العلم كما في حديث ضمام بن ثعلبة وغيره، لما قال: والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص، قال: «أفلح إن صدق»، قال أهل العلم: إنما أراد في ذلك أنه لا ينتقل من الواجبات إلى المستحبات، لا أنه يقتصر على هذه الواجبات التي جاءت في هذا الحديث.
- هذا من جهةٍ، من جهةٍ ثانيةٍ أيضًا وهو مكملٌ لهذه الجهة، أن الإتيان بالواجبات هنا، لا يعني ذلك أنه يقتصر عليها، فيعفى من فعل المحرمات، وأنه لا يحاسب على ذلك، بل ترتيب الثواب هنا كما هو مقررٌ في قواعد أهل العلم، أن ذلك حاصلٌ لمن كمَّل الشروط وانتفت الموانع، وانتفاء الموانع يأتي في أحاديث كثيرةٍ في ترك ما جاء به الوعيد في أن فاعله يمنع من الجنة، «لا يدخل الجنة قاطع رحمٍ» «لا يدخل الجنة مدمن خمرٍ».
- فلا شك أن الشرع والأدلة إنما تؤخذ بالنظر إلى مجموعها، لا بالنظر إلى آحادها، فمن حرص على إتيان الواجبات، وهذه الشعائر والشرائع فإنه أحرى بأن يكون بإذن الله جلَّ وعلَا من أهل الجنان، كما أن المحافظة على هذه على وجهٍ صحيحٍ حاملةٌ لصاحبها إلى ما يكون به رضوان الله ودخول جنته، والامتناع عن محرماته ومعاصيه.
- فإن كل من حرص على الصلوات المكتوبات وصام رمضان كما أمر الله، وكما حث الله سبحانه وتعالى، فإن ذلك أدعى لأن يكون أقوم على الحق، وأكثر استقامةً عليه.
- ولأجل هذا جاء في الحديث الآخر لما قال بمعنى هذا الحديث: يا رسول الله دُلني على عملٍ يدخلني الله به الجنة، وينجيني به من النار، أو يباعدني به عن النار، فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج بيت الله الحرام» بما هو أكمل من ذلك، وقد جاءنا ما جاء في الأحاديث المختصرة ثم يجيء ما هو أكمل منها.
- ولأجل ذلك تعرفون أن أهل العلم يعني مما يدل على هذا ما يتعلق بكلمة التوحيد فإنها من أعظم ما جاء بها الوعد بالجنة، فهل هذا مقتصرٌ على قولها، بإجماع أهل العلم أن ذلك لا يكون، ولأجل هذا قال الزهري بعد رواية حديث عِتبان «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» قال فإن الله قد

فرض بعد ذلك فرائض، وشرع بعد ذلك شرائع، فلا يغتر بذلك مغترٌّ، يعني فلا يغتر أحدٌ بأنه قال لا إله إلا الله فسيدخل الجنة.

والحسن قال: إن لها حقوقًا وضوابط لابد أن يؤتى بها، وقال مرةً للفرزدق: لا إله إلا الله لها حقٌّ فإياك وقذف المحصنات.

- هذا حديثٌ عظيمٌ جاء في الدلالة على بابٍ من أبواب الجنة، وطريقٍ من طرائق تحصلها، وحصول الخير فيها، وذلك لمن أدى هذه الصلوات المكتوبة وصام رمضان، واستقام على أمر الله جلَّ وعلَا بفعل الحلال والعلم به، والقبول له، والبعد عن الحرام واجتنابه، وتصديق النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء عنه في تحريمه وتجريم فاعله، والتشديد عليه.



الحديث الثالث والعشرين.

{عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نورٌ، والصدقة برهانٌ، والصبر ضياءٌ والقرآن حجةٌ لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها» رواه مسلم.}



لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الطهور شطر الإيمان»

- لأهل العلم في معنى هذه الجملة كلامٌ كثيرٌ، فمنهم من رأى أن الطهور شطر الإيمان يعني الشطر هو النصف، والطهور هنا ما يتطهر منه الإنسان ويتنزه، فيتعلق ذلك بكل من ترك رذائل النفوس والمعاصي والسيئات ونحوها، فيكون بابه باب التروك، فيكون بابٌ في الأوامر والامتثال، وبابٌ في الاجتناب، فيكون هذا نصفه، إلا أن هذا المعنى مستدركٌ عند أهل العلم من حيث أنه جاء في بعض ألفاظ الحديث، «الوضوء شطر الإيمان» ، فبناءً على ذلك قالوا من أن المقصود «الوضوء شطر الإيمان» ، والإيمان تطلق على الصلاة، لأن الله جلَّ وعلَا لما قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة: 143]، نزلت في الصلاة لما كانوا يصلون إلى بيت المقدس، ثم توجهوا إلى الكعبة، فنزلت هذه الآية في الدلالة على ثبات أجرهم وبقائه وحفظ صلواتهم المتقدمة ومجازاتهم عليها.
- فالطهور شطر الإيمان، فإذا كان الطهور شطر الصلاة، فما المقصود بذلك، الشطر في الأصل يطلق على النصف، لكن قد يراد به جزء الشيء، ولأهل العلم في هذا كلام كثير، يعني بوجه من الأوجه، وهذا لما كان الطهور كما يقول بعض أهل العلم أنه يحصل به المرء الخلاص من الأشياء الظاهرة، وتتنقى النفس من درنها، ومن نجاساتها، ومن قذرها، وأيضًا يحصل له التخلص من الذنوب بالوضوء كما جاء ذلك في الأحاديث الدالة على فضله.
- فالصلاة يحصل بها تزكية النفس والقلب بالأقوال والأعمال، والذكر لله جلَّ وعلَا، فكان كالجزأين، وهذا وجهٌ من أوجه كيف كان شطر الإيمان.

ولهم في ذلك كلامٌ كثيرٌ، ومن ذلك أن الصلاة لا تصح إلا بطهورٍ، **«لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»** ، وقلنا من أن الشطر جزء الشيء، وليس بالضرورة أن يكون نصفه من كل وجهٍ، فيكون على ذلك المعنى صحيحًا.

وأيضًا من جهة أن الطهور والصلاة يحصل بهما أو يعلق بهما بعض الأجور أو كثيرٌ منها،فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«ما من عبدٍ يتطهر أو يتوضأ فيحسن الوضوء فيصلي ركعتين لا يحدث بهما نفسه إلا غفر له ما تقدم من ذنبه»**، فعلقها على إحسان الوضوء والصلاة.

- في الحديث الثاني: **«إلا فتحتْ له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء»** ، فدل ذلك على أن الطهور له مدخلٌ في الصلاة ظاهر.

قال: «والحمد لله تملأ الميزان».

- الحمد لله، الحمد هو الثناء على الله جلَّ وعلَا، و "ال" دالةٌ على الاستغراق، فالمحامد والثناء هو لله سبحانه وتعالى، هو المستحق له لذاته، ولصفاته، ولأفعاله، ولإحسانه إلى عباده، وهو المحمود في ذلك بكل حالٍ وآنٍ.
- وقوله **«تملأ الميزان»** على ذلك توافرت الروايات، وكيف تملأ الميزان، بعض أهل العلم يقول: لو كانت جسمًا لكانت مالئةً له، وبعضهم يقول: إن الأعمال يوم القيامة تكون أجسامًا، بدليل: **«كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان»**، وجاء أن البقرة وآل عمران تأتيان يوم القيامة كغمامتيْن تحاجَّان عن صاحبهما.

قال: «وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض»

- هنا قوله: **«تملآن أو تملأ»** فيه ترددٌ أو شكٌّ في هذه الرواية، وفي روايةٍ أخرى قال: **«وسبحان الله والتسبيح والتكبير تملآن أو تملأ»** ، وكأن ابن رجب رحمه الله تعالى قال: هذه الرواية أشبه أو كأنه يقدمها، وذلك لأن الحمد جاء ما يتعلق به، فكيف يقال من أن سبحان والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، هل كل واحدٍ منهما يملأ ذلك، أو تملأه بوحدها.
- فقد جاء في التكبير روايةٌ أخرى تدل على أنه يملأ ما بين السماء والأرض، فتكون التسبيح تملأ ما بين السماء والأرض، ويقول ابن رجب -رحمه الله تعالى- ومع ذلك كله فإن الحمد أعظم من التسبيح، وذلك لأن الحمد مشتملٌ على الإثبات، والإثبات أعظم، أما التسبيح فإنه تنزيهٌ من النقائص، فلا شك أنه دون ذلك، والثناء على الله -جلَّ وعلَا- بالإثبات والأصل وهو الذي جاءت به دلالات الكتاب ودلالات السنة في الأكثر والأعم، وإنما جاء النفي في مسائل خاصةٍ، ولذلك قال أهل العلم: إن النفي أيضًا مع إثبات كمال ضده ليكون إثباتًا ولتكون دلالة مدحٍ، كما هو مشهورٌ ومقررٌ عند أهل السنة والجماعة، وهو ظاهرٌ أيضًا في دلالات النصوص والأدلة من الكتاب والسنة.
- ثم قال: بعضها التكبير والتهليل، وتكلم أهل العلم أيهما أفضل التحميد أو التهليل؟ مع أن التهليل من أفضل ما جاء وقد تقدم حديث موسى، لو أن السماوات والأرض عمرهن غيري في كفةٍ، ولا إله إلا الله في كفةٍ مالت بهن لا إله إلا الله، ولا إله إلا الله تفتح له أبواب السماء حتى تدخل إلى العرش، وتلج إلى العرش ما لم تُجتنب الكبائر، كما جاء ذلك في فضلها، تكلم عليها أهل العلم، وكأنه لا يقطع في ذلك بشيءٍ، وإن كان بعضهم يقول الحمد لله أفضل من جهة أنها مشتملةٌ على التهليل الذي هو قول لا إله إلا الله، وعلى كل حالٍ مما يحتمل الكلام.

قال: والصلاة نورٌ،

- الصلاة نورٌ للمؤمن، لمن صلاها على وجهها، لمن أقامها بشروطها، لمن أدى واجباتها، لذلك جاء في بعض الأحاديث الصلاة نور المؤمن وهي تنير قلبه وتريح نفسه، وتذهب همه، وتجلي عنه تعبه وتجلب إليه الخير، وتذهب عنه الشياطين، فكيف لا تكون نورًا؟! لمن رعاها ولمن حفظها وحافظ عليها واستقام عليها، وهي نورٌ للإنسان في الآخرة، ولذلك من حافظ عليها كانت له عند الله نورًا وبرهانًا ونجاةً يوم القيامة، كما في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-

قال: «والصدقة برهانٌ»

- البرهان في أصله ما هو؟ البرهان هو الشعاع الذي يكون على حجاب الشمس، وذلك لظهوره وقوته، ولذلك يسمى أيضًا الدليل برهانًا، ولأجل ذلك قيل هنا في إن الصدقة برهانٌ، يعني أن المتصدق كأن ذلك برهانٌ ودليلٌ وحجةٌ قاطعةٌ على صدق إيمانه وصحة معتقده، لأن النفوس شحيحةٌ ولأنها في الأموال قابضةٌ ولا تكاد تبذل ذلك إلا لمن عقد في نفسها من الإقبال على الله -جلَّ وعلَا- والفرح به والإيمان به، فيكون ذلك كالدليل على صحة إيمانها وظهور حسن اعتقادها، ولأجل ذلك لما حصل من العرب ارتدادٌ إنما أول ما كان مظهرًا لذلك هو بذل الزكاة وأدائها.

قال: والصبر ضياءٌ،

- ما الفرق بين قوله ضياءٌ وقوله نورٌ؟ يقول أهل العلم في أن الضياء هو إنارةٌ وفيه نورٌ لكن فيه حرارةٌ، ولذلك وُصفت الشمس بأنها ضياءُ ووصف القمر بأنه نورٌ، لما كان الصبر لا يتأتى للإنسان إلا مع شيءٍ من المشقة والتعب، فإنه يعقب العبد ضياءٌ، يعقبه نورٌ، يعقبه صلاحٌ، لكن مع ما يلحقه في نفسه من المشقة والتعب.
- يقول والكلام على الصبر وحاجة الإنسان إليه من أعظم ما ينبغي الحديث عنه، وليس للإنسان غنيةٌ عن الكلام على الصبر، صبرًا على أقدار الله، وصبرًا على طاعة الله، وصبرًا على معصية الله، ويجتمع ذلك كله في الصيام، فإن الصيام صبرًا على الطاعة وصبرًا عن المعصية، لأنه يجتنب فيه المعاصي، وصبرًا على الأقدار لأنه قد يلحقه جوعٌ وعطشٌ وتعبٌ، فلا يزال محتسبًا الأجر عند الله -سبحانه وتعالى.

ثم قال: والقرآن حجةٌ لك أو عليك،

- هذا الكلام قد جاء في قول الله -تعالى- ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82]، يقول بعض أهل العلم: إنه لا يكون القرآن إلا نافعًا لصاحبه أو تبعةً عليه وبلاء، إذا لم ينتفع به وإنه لا يخرج من ذلك سالم، ولذلك جاء في بعض الآثار أن القرآن يأتي يوم القيامة يدفع صاحبه، يقول يا ربي تعدى حدودي وترك طاعتي واغترف نهي، فيخلي الله -جلَّ وعلَا- بينه حتى يكبه القرآن في النار، ويأتي الآخر ويقول يا ربِّ إنه امتثل أمري وصدق خبري، وابتعد عن حدودي أو استقام عليها، فيكون سببًا لنجاته عند الله -جلَّ وعلَا-، ولذلك قال: والقرآن حجةٌ لك أو عليك، ما أكثر الذين يحتجون بالقرآن وهو بلاغٌ عليهم لأنهم لا يعملوا، وهم أكثر ما يكون تزين به في مثل أحاديثه وقنوات وغيرها، لكنهم لا يستقيمون على ذلك.

يقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها».

- هذا حال الناس في هذه الدنيا، لا يخلو الإنسان إما من أن يخرج إلى خيرٍ أو يخرج إلى شرٍ، فليعلم المرء أن ذلك هو نجاته أو هلاكه، لذلك جاء في بعض الروايات، الناس غاديةٌ، فمعتقٌ نفسه أو موبقها، وجاء ذلك أيضًا في قول الله -جلّ وعلَا- ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7- 10]، ربما لا يشعر الإنسان حينما يسري أو يمشي إلى فاحشةٍ أو إلى جريمةٍ أو إلى فعل ربا أو قتل مسلمٍ أو شرٍّ من الشرور، لكنه يوبق نفسه ويهلكها، وأما الذين يمشون إلى الصلاة والصلاح ومجالس الذكر ومجالس العلم ويحفظون أنفسهم، فإنهم يوشك أن يكونوا معتقي أنفسهم، ولأجل ذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]، وفي المقابل قال الله -جلّ وعلَا: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15]، جاء عن بعض السلف أنه يقول: حفظت في شبابي أن رجلًا قال لي أعتق نفسك في هذه الدنيا للآخرة، فإن رق الآخرة يوشك أن لا يحصل له فكاكٌ، نسأل الله أن يعتق نفوسنا ويصلحها.

الحديث الرابع والعشرون.

{عن أبي ذر الغفاري -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن الله -تبارك وتعالى- أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا. يا عبادي»}.

- حديث أبي ذر هذا من أعظم الأحاديث، ويذكر أن أبا إدريس الخولاني كان إذا حدث به جثا على ركبتيه، من عظم ما فيه من المعاني وما فيه من الدلالات التي هي صلاحٌ للمؤمن لو نظرها ولو تأملها، ويقول الإمام أحمد: هو من أعظم أحاديث أهل الشام، وهو حديثٌ قدسيٌّ.

يقول الله -تعالى: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي»

- قد جاءت بها آياتٌ كثيرةٌ في كتاب الله -سبحانه وتعالى- ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49] وجاءت في ذلك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46] ، والظلم هو جعل الشيء في غير موضعه، والله -سبحانه وتعالى- حرم الظلم على نفسه لماذا؟ لتمام عدله وتمام فضله وكمال رحمته وإحسانه لعباده، لا لعجزه تعالى الله -سبحانه وتعالى- فله القدرة الكاملة وله الفعل التام، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لكن لتمام رحمته وفضله وعدله حرم الظلم على نفسه، ولذلك جاء في بعض الآثار، لو عذب الله أهل السماوات والأرض لعذبهم وهو غير ظالمٍ لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته أوسع من أعمالهم، جاء ذلك عن بعض الصحابة ونقله زيد عن النبي -صلى الله عليه وسلم.

يقول: «إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»

- الظلم بين العباد محرمٌ، فالظلم ظلم العبد يكون ظلمه لنفسه، وذلك قد يكون بالإشراك بالله -جلّ وعلَا - ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13] وقد يكون بالإسراف على نفسه بالمعاصي ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: 32]، وقد يكون الظلم ظلمًا بين العباد في أخذ الحقوق والتسلط عليها، وقد جاءت في ذلك أحاديث كثيرةٌ «الظلم ظلماتٌ يوم القيامة» ، فينبغي للإنسان أن يحفظ نفسه «لا يحل مال امرئٍ مسلمٍ إلا بطيبة نفسٍ منه»، فينبغي للإنسان أن يمتنع عن الظلم ويحفظ نفسه منها.

{قال: «كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائعٌ إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم»}.

لما يقول الله -سبحانه وتعالى: «يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم».

- فالهداية فضلٌ من الله -جلّ وعلَا- ونعمةٌ، ورحمةٌ منه ومنةٌ، من هداه الله فهنيئًا له صلاحه في هذه الدنيا وفلاحه عند الله -سبحانه وتعالى.
- لقائلٍ يقول: كيف يكون كل العباد ضالٌّ إلا من هداه الله، مع أنه جاء أنه خلق العباد أو فطروا على أو خلقوا على الفطرة، «فطرة الله التي فطر الناس عليها» فالفطرة لا تعني الدلالة، فإن الإنسان يفطر على الخير لكن لا يعرف سبله وأحكامه ودلائله، ولذلك قال الله -جلّ وعلَا- عن نبيه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: 7] والهداية هنا هدايةٌ إلى أصل الشريعة والإسلام، وهدايةٌ إلى تفاصيل الأحكام، كما قال الله -جلَّ وعلَا- ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] قال أهل العلم: لو لم يكن العباد يحتاجون إلى الهداية في كل أحوالٍ من أحوالهم وفي كل شئونهم الدينية والدنيوية، لما كان ذلك أو من أعظم ما كان في سورة الفاتحة لحاجتهم إلى ذلك في كل حانٍ وآنٍ.

«فاستهدوني أهدكم»

- والله -جلّ وعلَا- لا يظلم عباده ولا يعطي هذا ولا يمنع هذا إلا لاستحقاقه له، فإن الله -سبحانه وتعالى- يعلم من هذا أنه يقبل على الخير ويرغب فيه، فيزيده إعانةً وتسديدًا، ويعلم من ذلك إعراضًا فيخلي بينه فيكون سببًا لخذلانه وضياعه، نسأل الله السلامة والعافية.
- وقد تقدم ما يتعلق بأنه ليس فيه من الله -جلَّ وعلَا- جبرٌ ولا ظلمٌ، وقلنا مثال ذلك -تقدم معنا- قلنا مثلًا لو أن شخصًا اشترى لولده سيارةً ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: 60]، وأعطاه السيارة وقال له هذه السيارة تستعين بها إلى الجامعة وإلى عملك وإلى طلب رزقك وإلى ما يكون فيه صلاحك، وإياك أن تذهب إلى غير ذلك مما يسوؤك، ثم أعطاه إياها، أليس الوالد هو الذي مكنه وهو الذي أعطاه وهو الذي أعانه وهو الذي يسر له، وهو الذي جاء له بما ينقله إلى ذلك؟ نعم ومع ذلك لو أنه أخطأ فذهب مذهب سوءٍ فعاقبه، هل يكون ظالمًا له؟ فكذلك الله -سبحانه وتعالى- وله المثل الأعلى، بيَّن للعباد ما يكون فيه صلاحهم وما يكون فيه بلاؤهم وشرهم، وخلق أفعالهم ويسر لهم طريق الخير والشر، فمن طلب ذلك يُسر له وأُعين، ومن طلب غير ذلك خلي بينه وبين نفسه، فحصل بذلك ضلاله واستولى عليه شيطانه.

«يا عبادي كلكم جائعٌ إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم».

- والجملة التي بعدها تدل على عظيم فضل الله وغناه، وعظيم فقر العباد وشدة حاجتهم إلى الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، فإذا كان الحال كذلك، أليس هذا أدعى لأن يكون العباد أكثر توكلًا واعتمادًا وطلبًا للأرزاق من الله -سبحانه وتعالى- واستمساكًا بحبله، واستهداء بهدي نبيه، وامتثالًا لأوامره واجتنابًا لنواهيه، فإن الأمر كله لله والأمر كله بيد الله، والأرزاق من عند الله، والرحمة من عند

الله، والفضل من عند الله، حتى ما يكون من لباسٍ وما يكون من معاشٍ، وما يكون من نفسٍ، وما يكون من شربٍ، وما يكون من حالٍ إلا من الله -سبحانه وتعالى.

يقول: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم».

- أحوج ما يكون العبد إلى أن يستغفر الله، وأن يؤوب إلى الله، وأن يتوب إلى الله، النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أبي هريرة يقول: «إنه ليستغفر الله ويتوب إليه في اليوم سبعين مرةً»، في حديث الأوراغي المزني **«يأيها الناس استغفر الله وتوبوا إليه، فإني استغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من مائة مرةً»** ، ويقول الصحابة: لم يكن أحدٌ أكثر من النبي -صلى الله عليه وسلم- استغفارًا، فينبغي للعبد أن يلذ بالاستغفار وأن يملأ وقته بالأوبة إلى الله -سبحانه وتعالى.

{قال: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فأعطيتُ كل إنسانٍ مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم}.

«يا عبادي أنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني»

- الله -جلَّ وعلَا- غني لكمال ذاته وكمال صفاته، وكمال أسمائه ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: 100] أما الله -سبحانه وتعالى- فإنه ينفق ويعطي ويتفضل ويمن على عباده ولا ينقص ذلك من ملكه شيئًا، ولأجل ذلك لم يكن العباد ليضروه، ولن يضروك وإنهم لن يضروا الله شيئًا، وجاءت في ذلك آياتٌ كثيرةٌ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ما كان من طلبٍ للعباد أن يمتثلوا أمره أو يجتنبوا نهيه، فإنما ذلك رحمة من الله -جلَّ وعلَا- بعباده، ويحب ذلك منهم، لا أن ذلك يزيد في ملكه، ولا عصيانهم ينقص من قوته وقدرته -سبحانه وتعالى-.

ولأجل ذلك قال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، ولو كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ ما زاد ذلك في ملك الله شيئًا»

- وفي ذلك دلالةٌ على كمال غنى الله -سبحانه وتعالى- هو الغني عن عباده وخلقه، لا يزيده طاعة طائعٍ ولا تضر معصية عاصٍ، وفي هذا إشارةٌ أيضًا إلى أن ملاك الأمور ومبدأها هو صلاح القلوب أو فسادها، فلأجل ذلك ينبغي للإنسان أن يعنى بقلبه وأن يكون ذلك مبدأ حاله، وأن يراجع نفسه ، ولن يكون ذلك بأعظم من ذكر الله وتوحيد الله وعبادة الخلوات والصلوات والاستقامة على قراءة القرآن وذكر أوراد الصباح والمساء، والبعد عن ضغائن النفوس وفسادها وحظوظها وأهوائها.

ثم يقول: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فأعطيت كل إنسانٍ مسألته»

- يد الله ملئ لا تغيضها نفقةٌ سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإن ذلك لم ينقص من ملكه شيئًا، فإنها لا تغيظ بذلك خزائنه -سبحانه وتعالى- كما جاءت بذلك الأحاديث، ففيه دلالة أيضًا على أن العباد ملجؤهم إلى الله ومفزعهم إلى الله، ومرتجاهم عند الله، ورحمتهم من عند الله -سبحانه وتعالى-، إن نزل بهم ضرٌّ، أو اشتد بهم سقمٌ، أو كثر عليهم دينٌ، أو تكالب عليهم عدوٌّ أو عظمت بهم النكبات، أو اجتمع لهم ذلك كله، فإنه لا مفزع لهم إلا الله، أو فسدت قلوبهم أو كثرت ذنوبهم، فإنه لا ينجيهم من ذلك إلى الله -سبحانه وتعالى-، منه المهرب وإليه الملجأ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك -سبحانه وتعالى.

ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم- قال الله -تعالى: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم»

- هذه هي الخلاصة، فإن الله لا ينتفع بذلك ولا يضره عصيان العاصي **«فإنما هي أعمالكم أحصيهم لكم، ثم أوفيكم إياها»** والتوفية في الدنيا وفي الآخرة، ولذلك قال الله -جلَّ وعلَا: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، ﴿إِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 185] فالآية الأولى من يعمل سوءً يجزى به في الدنيا، وهذه في الآخرة، ولذلك ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97] فيحمد الله ويستقيم على الطاعة، ومن وجد غير ذلك فليستعتب ليتوب إلى الله -سبحانه وتعالى-، وهي أيضًا توفي في الآخرة فيحمد الله -سبحانه وتعالى- عند لقاء ربه ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: 74] والآيات في ذلك كثيرةٌ جدًا.

الحديث الخامس والعشرين.

- وهو حديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- لما شكا بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ذهب أهل الدثور بالأجور، يعني ذهب أهل الأموال بالأجور من حيث أنهم يتصدقون ويبذلون وينفقون ونحن لا نستطيع ذلك، وفي هذا هل هو حسدٌ من الصحابة لغيرهم الذين كانوا أصحاب أموالٍ، وإنما باب ذلك أن الصحابة شكوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم لا يجدون ما يتصدقون به، فيريدون أن ينافسوا في الخير ويسابقوا في الصالحات، فإن الله -جلَّ وعلَا- قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: 133] فاستبقوا الخيرات، فمن أجل هذا ذهب هؤلاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يطلبون توجيهًا وأمرًا لما يكون فيه استدراكٌ ما يفوتهم من البذل والنفقة والإعطاء والصدقة التي سبقهم بها أهل الدثور وأهل الأموال وأهل الثروات، وفي هذا أن الصحابة كانوا يظنون أن الصدقة إنما تكون بالأموال لا غير، فأراد أن يوجههم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن باب الصدقة واسعٌ، وأن منها الصدقة بالأموال وربما لا يكون هو أكثرها أو أعظمها ، فلأجل ذلك في هذا الحديث إشارةٌ إلى أن الصدقة والبذل والعطاء يكون بالأموال ويكون بغيرها، ودلت على ذلك دلائل كثيرةٌ سيأتينا كل سُلَّامةٍ من الناس صدقةٌ، وفيها أنواعٌ من الصدقات، وأيضًا لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- قال أنه لا يستطيع الإعتاق، قال: فما تأمرني؟ قال: تعين صانعًا أو تصنع لآخرتك، قال: فإن لم أفعل؟ قال: فتكف أذاك عن المسلمين فإنه لك صدقةٌ، فدل إذن على أن أبواب الصدقة كثيرة، ما يعطيه الإنسان صدقةٌ، وما ينفقه على ولده صدقةٌ، وإماطة الأذى عن الطريق صدقةٌ، تبسمك في وجه أخيك صدقةٌ، أمر بالمعروف صدقةٌ، نهي عن المنكر صدقةٌ، كل ذلك يدل على أن أبواب البر كثيرةٌ جدًّا، فكل بابٍ من أبواب الإحسان صدقةٌ، بل حتى ما يكون من الله -جلَّ وعلَا- على عباده فهو صدقةٌ، في قصر الصلاة للسفر

صدقةٌ تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته، ولما ذكر الرجل ينام عن صلاة كان يعتادها، قال: كتب الله له أجرها وكان نومه صدقةً عليه من الله -جلَّ وعلَا-.

- في هذا الحديث أشار النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أن أبواب البر كثيرةٌ لمن أرادها ولمن طلبها، ولمن أراد أن يعملها.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الحادى عشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



الحديث الخامس والعشرون.

- حديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حين سأله الصحابة، ذهب أهل الدثور بالأجور يا رسول الله، فذكروا ما يكون منهم، يقولون يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، كان الحديث في مثل هذا الحديث العظيم هو مبدأه أن الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- أسرع ما يكون إلى التنافس في الطاعات، كما قال الله -جلَّ وعلَا: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26] فاستبقوا الخيرات ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: 133]، إذا تنافس أهل الدنيا في دنياهم، وأهل الأموال في أموالهم، وأهل التجارات في تجارتهم يتفاخرون بما عندهم وبما جمعوا وبما حصلوا، فإن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتنافسون فيما قدموا وفيما عملوا، وفيما تقربوا إلى الله -جلَّ وعلَا- فيه بالقربات.
- ولا يظن ظانٌّ أن ذلك كان من الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- أنهم كان منهم حسدٌ أو غيرةٌ مذمومةٌ لمن تفضل الله عليهم بالأموال -حاشا وكلا- إنما أرادوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينظروا في بابٍ من أبواب الخير يستدركون به ما فاتهم أو ما لم يحصلوه بأموالهم وصدقاتهم.
- وهنا لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به» ، الصدقة في أصلها هي النفقة، سواءً كانت نفقةً واجبةً أو نفقةً مستحبةً، وتطلق الصدقة ويراد بها كل أعمال البر والإحسان، لأن الصدقة من إظهار الصدق في الإيمان، وأحق ما يكون الإنسان في تحصيله، وأصدق ما يكون في عمله، فالصدقة إذن هي كل الأعمال، وذلك أنهم في أول الأمر كانوا يظنون أن الصدقة إنما تكون بأموالهم، ولأجل ذلك مما يدل على هذا لما كان في قصر الصلاة للمسافر قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «صدقةٌ تصدق الله بها عليكم» يعني أحسن بها عليكم، فدل ذلك على أن الصدقة كل ما كان من أنواع البر والإحسان.
- هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أشار إلى بابٍ من أبواب الصدقة، فأولهما ما يكون مما يتعدى إلى الغير، وذلك في قوله: «وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ» وهذا بابٌ واسعٌ لا حد له.

- الباب الثاني من أبواب الصدقة وهي الصدقة القاصرة المتعلقة بالإنسان في نفسه، وهذا مثل ما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «في كل تسبيحةٍ صدقةٌ، في كل تكبيرةٍ صدقةٌ، في كل تحميدةٍ صدقةٌ، في كل تهليلةٍ صدقةٌ» ذكر الله -جلَّ وعلَا- من أعظم ما يتصدق به الإنسان وما يستبق به الخيرات، ولذلك جاء في حديث معاذ عند أهل السنن، لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وخيرٌ لكم من إنفاق الذهب والفضة» أو «الذهب والورق» ، «وخيرٌ لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم» قلنا: بلى يا رسول الله قال: «ذكر الله -جلَّ وعلَا» ، فهذا أدل ما يكون على أن التصدق والصدقة تكون بذكر الله -جلَّ وعلَا- كما تكون بالأموال، بل هي أولى وأفضل.
- أيضًا جاء مثل ذلك في أحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كثيرةٍ، فكل ذلك يدل على ما ذكرنا أن الصدقة تكون بسائر أعمال البر والإحسان، لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قديرٌ عشر مراتٍ، كان كمن أعتق عشر أنفس أو أربع أنفس من أنفس ولدي إسماعيل» كما في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم.
- فهذا إذن إشارةٌ من نبينا -صلى الله عليه وسلم- إلى فتح أبواب البر والإحسان، وأن الإنسان لا يكاد يعجز عنها، وأنه إن انغلق في ذلك بابٌ، فإن الله -جلَّ وعلَا- يفتح له به بابًا.
- لكن لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «وفي بضع أحدكم صدقةٌ» البضع المقصود به أي بعض الإنسان، ويكنى به عن الفرج ويراد به إذن الجماع، لأنه هو محل الجماع وما يأتي الرجل من امرأته فيه، فكنى به، كان للإنسان أجرٌ في جهة ماذا؟ من جهة أن قول النبي -صلى الله عليه وسلم- «أرأيتم لو وضعها في حرامٍ» ، فكان إذن انتهاء الإنسان عن المحرم، وقصده ما عند الله -جلَّ وعلَا- هذا له به أجرٌ، أيضًا هي بابٌ من أبواب الإحسان، فإنها إحسان الإنسان إلى نفسه، بأن يعفها، وفي ذلك اعتدال مزاجها وإقبالها على طاعة ربها، ففيها بلغةٌ له في الخير، أيضًا فيها من جهةٍ أخرى إحسانٌ له إلى زوجه، وأداء لحقها، فكان ذلك كله مما يزيد به الأجر عند الله -جلَّ وعلَا- ويطلب به الثواب من الله -سبحانه وتعالى.
- جاء في بعض روايات الأحاديث، أنه لما علم بذلك أهل الدثور من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فعلوا كما فعلوا، فجاء أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشتكون إليه، قالوا: فعلوا ما فعلنا، قال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: 54]، فكلٌّ ييسر الله له من أعمال البر، وكلٌّ يفتح له من أبواب الخير، لكن من طرق بابًا من أبواب الخير يوشك أن يفتح له، ومن نواه فإن الله -جلَّ وعلَا- يبلغه إياه، ولذلك كان لمن نوى الخير مثل أجر من فعل كما صحت بذلك الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.



الحديث السادس والعشرون.

{قال النووي: الحديث السادس والعشرون، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال: رسول الله -صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وتُعِين الرَّجُلَ في دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عليها أو تَرْفَعُ لهُ متَاعَهُ صَدَقَةٌ، والْكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقَةٌ، وبكُلِّ خَطْوَةٍ تَمشِيها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، وتُمِيطُ الأَذَى عنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ». رواه البخاري ومسلم}.

- هذا الحديث وهو حديث أبي هريرة عند مسلمٍ في صحيحه من الأحاديث العظيمة، من الأحاديث الجليلة، وفيها من نشر الخير وإظهار الإحسان وبذل المعروف، وأن يملأ العباد أوقاتهم وأيامهم وأحوالهم، في دخولهم وفي خروجهم وفي أنفسهم، ومع أهليهم، ومع الناس أجمع، بأنواعٍ من الخير أينما كانوا، في السوق أو كانوا في عملٍ أو كانوا في مسجدٍ، أو كانوا غير ذلك، فتملأ الحياة بأنواعٍ من الصدقات والإحسان، ولذلك لم تكن شرعةٌ ولا دستورٌ ولا منهاجٌ ولا ثقافةٌ ولا قانونٌ بأعظم مما جاء في شرع الله -جلَّ وعلَا- من أن يحمل الناس على الخير في كل أحوالهم، سواءً كان ذلك في إتيان الواجب أو كان ذلك في فعل مستحبٍ، أو كان ذلك في كف الشر، وكل ذلك جاء في مثل هذا الحديث ودلت عليه هذه النصوص، وتأمل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقَةٌ» ما المقصود بالسلامى؟ السلامى في الأصل هو المفاصل، وأصلها أنها تطلق على ما يكون بين فرس البعير، وشيءٍ صغيرٍ، وكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول إن مفاصل الإنسان ونعم الله -جلَّ وعلَا- عليه كثيرةٌ، فيحتاج أن يشكر الله فيها، وكان لكل مفصلٍ فيها حقٌّ وشكرٌ، فوجب عليه أن يؤديها، وإذا نظرنا إلى مفاصل ابن آدم أو عظامه أهل العلم يقولون هي ثلاثمائة وستون مفصلًا، فكل واحدٍ منها يحتاج فيه إلى بذل الصدقة فيه، فتأملوا لو كان كل واحدٍ يتصدق في كل يومٍ ثلاثمائة وستين، فكم من الصدقات والإحسان والبر الذي يكون عند الناس، وهذا ديننا وهذا هو شرعنا.
- مما يدل ذلك أنه جاء في حديث أبي ذر الذي في الصحيح، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «في كل إنسانٍ ثلاثمائة وستون عظمًا أو مفصلًا عليه فيها صدقةٌ» قالوا: أو يقدر يا رسول الله، أو يطيق ذلك أحدٌ، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: «حتى النخامة يدفنها في المسجد صدقةٌ، فإن عجز فيجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»، فهذا مما يدل على عظم ما يتعلق بمثل هذه الأعمال، وإتيانها والقيام بحقها، وفي حديث أبي موسى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لما ذكر الصدقة والإحسان، فقال: «يعين الملهوف ويقضي ذا الحاجة» فقيل: يا رسول الله فإن لم يفعل؟ قال: «فليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر» قال: فإن لم يفعل؟ قال: «فيكف شره عن الناس، فإنه له صدقةٌ» فهذا يدلنا على عظم إتيان الأعمال الصالحة، وهو الذي ذكرناه لكم من نشر الصدقات والإتيان بها، وعظم ما يملأ الإنسان وقته وحياته بها.
- وجاء في ذلك أحاديث عظيمةٌ وأحاديث كثيرةٌ في تنويع أنواع البر، لكن حسبك أن الكلمة الطيبة صدقةٌ يقولها الإنسان لمن وجده مصابًا، أو وجده متعبًا أو وجده مريضًا، أو وجده مرهقًا، أو كان ذا قربى منه، أو كان له والدًا، أو كان له مدرسًا، أحسنت إلينا في تدريسك أيها الأستاذ، أو مازلنا نتعلم من خيرك، كل هذا كلامٌ طيبٌ وكله صدقةٌ، إماطة الأذى صدقةٌ، سواءً كانت حجرةً تنحيها عن الطريق أو كان بعض الأذى، فكيف بالذين يؤذون الناس في طرقاتهم؟ ، والنبي -صلى الله عليه وسلم- فتح هذا الباب للناس جميعًا، ولذلك جاء في الحديث الذي في الصحيح «ما من مسلمٍ يغرس غرسًا فيأكل منه طيرٌ ولا سبعٌ ولا أحدٌ، إلا كان له به صدقةٌ حتى من يأرزه» أي يأتي ويستظل بظلها أو يسكن فيه، يكون له فيها أجرٌ.
- يا أيها الإخوة لا تمر علينا هذه الأحاديث مر الكرام، ولا ينبغي أن يكون حظنا منها هو الدراسة والكلام، وإنما لابد أن يكون للإنسان فيها حياةٌ تملأ وقته وتملأ حياته، فليكن كل أيامه وكل أحواله صدقةً يتصدق لله -جلَّ وعلَا- بها.
- يجب على الإنسان أن يعلم أن أبواب البر والصدقة كثيرةٌ، وأن مبنى ذلك هو شكر الله -جلَّ وعلَا-، فإن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي خلقه، وهو الذي سواك، وهو الذي عدلك ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ *

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: 6- 8] والله -جلَّ وعلَا- يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78] يعني أمر الله -جلَّ وعلَا- بشكر العبد لله -جلَّ وعلَا- على ما أقام له، ولذلك لما شكى بعض الناس لأحد السلف حاجته، قال: أتود لو أن ببصرك مائة ألفٍ؟ قال: لا، قال: أتود لو أن لك بيدك مائة ألفٍ؟ قال: لا، وهكذا، قال: فإن عندك مئين ألوفٍ كثيرةٍ، فهذا مما يدل على عظم فضل الله -جلَّ وعلَا- وشكرنا منه ما يكون واجبًا، وذلك بإتيان الواجبات وفعل الطاعات والبعد عن المحرمات، وربما جاء في بعض هذه الأحاديث ما يدل على ذلك، لأن جاء في بعضها فعل المستحبات وبعضها فعل الواجبات، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فعل الطاعات وفروض الكفايات ومنها ما هو مستحبٌ، وكمال ذلك وتمامه بفعل المستحبات والسنن والبعد عن المكروهات.

- وقوله: «كُلَّ يَوْمٍ» المقصود به اليوم الخاص، لأن اليوم قد يطلق في بعض الأحوال ويراد به مجموعةٌ من الأيام كما قال الصحابة يوم صفين، فإنه مجموعةً من الأيام التي حصل فيها القتال والاقتتال.
- ثم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال هنا وأشار إلى بعض الروايات «ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى» وعندنا هنا **مسألتان**.

❖ **الأولى**: أن من أبواب البر كف الأذى، «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وأن ترك الشرور وحبس النفس عن أذى الناس، هذا بابٌ من أبواب الصدقة والإحسان، لأنه من أعظم ما يكون، أن يسلم الناس من شرك، يسلم الناس من بلائك، يسلم الناس من كلامك، يسلم الناس من سوء أخلاقك، يسلم الناس مما يكون منك مما اعتدته في حياتك، فإنك إذا حبست الناس عنك فإن الشر قد انحبس، وإذا انحبس الشر انفتح للناس باب الخير، هذا شيءٌ،

❖ **الثانية**: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد حث على ركعتي الضحى وأنها تجزئ عن ذلك، يقول أهل العلم وإن في هذا إشارةً إلى أن الصلاة يحصل فيها حركة الأعضاء كلها، وكانت في صلاةٍ، وكانت أداءً لحق الله، فيكون بها فعل ما يتعلق بأداء شكر هذه الأعضاء جميعًا.

- لو نظرنا إلى هذا الحديث، ففي جملته يدل على الصدقة المتعدية، والصدقة التي تنتشر إلى الغير إن كان قريبًا أو رحيمًا أو جارًا أو بعيدًا أو غير ذلك، وفي ذاك الحديث أكثر ما ينصب إليه هو في الصدقة القاصرة، وإن كان فيه إشارةٌ إلى الصدقة المتعدية، فيكون الحديثان بمثابة المكمل لبعضهم لبعضٍ، ويكون ذلك تمام الأجر والثواب عند الله -جلَّ وعلَا.
- لابد أن يعلم أن متعلق مثل هذه الأعمال، إنما يكون في إخلاص القصد لله -جلَّ وعلَا-، فإن الناس من يحب بذلك الثناء أو يحب بذلك الشهرة، فإن ذلك لا يجزئ عليه شيئًا، ولأجل هذا إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله، حتى ما تضع في فيِّ امرأتك، فيقول أهل العلم: فمما يدل عليه هذا الحديث وما في معناه، أن لا يكون للإنسان عملٌ صادقٌ وصدقةٌ حتى يكون له نيةٌ خالصةٌ.

الحديث السابع والعشرون.

{الحديث السابع والعشرون، عن النَّوَّاسِ بنِ سِمْعانَ -رَضِي اللهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليْهِ النَّاسُ» رواه مسلم.

وعن وابِصَةَ بنِ مَعْبَدٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: أتيتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقالَ: «جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ» قُلْتُ: نَعَمْ.

قالَ: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ: الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ» . حَديثٌ حَسَنٌ رُوِّينَاهُ في مُسْنَدَيِ الإمامَيْنِ أحمدَ بنِ حَنْبَلٍ والدَّارِمِيِّ بإسنادٍ حَسَنٍ}.

- هذان الحديثان، حديث النواس بن سمعان، وابصة بن معبد، ذكرهما المؤلف -رحمه الله تعالى- وهما من الأحاديث العظيمة، وهي مكملٌ لحديث النعمان بن بشير، وفيه فوائد جليلةٌ لمن فتح الله -جلَّ وعلَا- بصره وبصيرته، وفتح الله -جلَّ وعلَا- قلبه وجعله من الموفقين للخير القائمين عليه.
- بداية أول ما ذكر في حديث النواس بن سمعان، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- فسر البر، وقال أنه من حسن الخلق، والبر جاء في آيات كثيرة وفي دلالات من دلالات السنة أيضًا، فالله -جلَّ وعلَا- قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: 2] والله -جلَّ وعلَا- قال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 177]، فالبر قد يطلق ويراد به جميع الأعمال الصالحة، ويطلق البر ويراد به فعل الطاعة ويكون التقوى يراد بها اجتناب المعصية، كما في قول الله -جلَّ وعلَا- ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ ، فبهذا فرق أهل العلم قالوا: الأول في الفعل، والثاني فيما يتقى ويدرك، وقد يأتي البر هنا وقال من أنه حسن الخلق، فيكون هذا أن من أعظم أبواب البر حسن الخلق، وقال بعض أهل العلم أن المراد هنا بحسن الخلق، أنه يطلق ويدخل فيه جميع الأعمال، لأن الخلق لا يخلو من إما معاملةٍ للخلق والإحسان إليهم والقيام بحقهم، أو قيامٍ بحق الله -جلَّ وعلَا- وفعل ما أمر الله به، وذلك معاملةٌ وخلقٌ يتخلق بها العبد لله -سبحانه وتعالى- ويتوجه بها إلى الله -سبحانه وتعالى-. فلم يخرج بذلك البر عن المعنى الذي جاء في سياق الآيات ودلالات الأدلة الكثيرة.
- وعلى كل حالٍ فلا شك أن حسن الخلق من أعظم أبواب البر، ومما يجب أن يعنى به، وقد ذكرنا جملةً من الأحاديث الدالة على أهمية ذلك والعناية به، وما يحصل من إخفاق كثيرٍ من الناس في القيام بالتزام الأخلاق الطيبة، خاصةً إذا كان في ذلك شيءٍ من المماحكة أو شيءٍ من السوء أو المغاضبة أو المنازعة أو وردت على الإنسان من النقيصة أو الزلة، أو الخطيئة، أو الهفوة، أو الغيبة أو النميمة، والله -جلَّ وعلَا- هو الذي يتولى العباد في حسن الخلق، وأعظم ما يكون من بذل الندى وكف الأذى، فلأن استطاع أناسٌ كثيرٌ بذل الندى والإحسان، فقليلٌ منهم الذي يكون منه كفٌ لأذاه واحتمالٌ لأذى الناس، وهذا بابٌ عظيمٌ من فتحه الله عليه، فإنه قد فُتح له بابٌ كبيرٌ، قد يحسن ثم قد يحتمل الأذى أو يكف أذاه عن الناس، لكن من الذي يحتمل أذى الناس، ومن احتمال الأذى أيضًا أن يبادلهم بالإحسان أو أن يراجعهم بحسن الأخلاق وطيب الأعمال، فيكون ذلك تم، ولأجل هذا كان لما عاتب الله -جلَّ وعلَا- أبا بكر حين أمسك عن الصدقة على مسطح، قال الله -جلَّ وعلَا: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: 22] فأعاد الصدقة التي كان قد منعها، وجاء في بعض الروايات أنه ضاعفها ضعفين.
- فإذن هنا قال: « والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » ، وفي حديث وابصة، قال: « استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس ».
- هل النفس مناطٌ للعلم بالأوامر والأحكام ونحوها؟

- اتفق أهل العلم، وأهل السنة والجماعة، على أن متلقى الأحكام إنما هو من الكتاب والسنة والقياس الصحيح، فلا مجال إلى أخذ الأحكام من الرؤى، أو المنامات، أو الإلهامات، أو اختصاص بعض الناس بمنزلةٍ يلقي بها أحكامًا، أو يظهر بها معانيَ، فإن ذلك ليس لأحدٍ، فإذا قيل ذلك، فما معنى هذا الحديث بهذا المعنى؟ معنى هذا الحديث عند أهل العلم،

❖ **أولاً:** أن أهل العلم أدخلوا في ذلك أن الله -جلَّ وعلَا- من عظيم فضله ومنه على عباده، أن المستقيمين على طاعته، المستمسكين بحبله، المقيمين على طاعة الله -جلَّ وعلَا-، فإنه لا يزال لهم في قلوبهم ما يحملهم على الخير، ويحرك قلوبهم إليه، ويدعوهم إلى الاستمساك به، وينفرهم من الشر، ولا يزال يتحرك قلبهم نفرةً وخوفًا وخشيةً، مهما ظهر من الأمور المسوغة، أو المقربة، أو المسهلة إلى ذلك الشر، وهي التي تكون بها الفراسة، ويكون بها التوفيق من الله -جلَّ وعلَا-، فضد ذلك الخذلان، فأهل الإيمان أهل توفيق من الله، وأهل الشر والكفر والطغيان أهل خذلان من الله -سبحانه وتعالى.

❖ **ثانياً:** أن بعض المسائل يكون فيها اشتباهٌ، أو يكون فيها بين أهل العلم اختلافٌ، فلا يزال المرء يطلب بذلك لنفسه النجاة، فإنه إذا سلك مسلكًا من هذين المسلكين، فإنه ربما يجد في نفسه، ما يحمله على التورع، ويمنعه من الولوغ والدخول، وذاك بابٌ من الأبواب التي جاءت في هذا الحديث، وحملها عليه أهل العلم.

❖ **ثالثاً:** أن الإنسان قد يستفتي فيُفتى، وإنه لا يزال يعلم بجواز ذلك أو حله أو بالإذن فيه، لكنه يعلم في نفسه أنه ليس كذلك، لماذا؟ لا لأن المفتي قد أخطأ، لكن لأن المفتي قد بنى الأمور على ظاهرها، وظاهرها مكتملٌ، لكن في نفس هذا المكلف ما يكون به ما يدل على خلاف ذلك.

- الإثم حواز القلوب، كما جاء عن ابن مسعود، وتتردد فيه النفس، فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم: « وإن أفتاك الناس وأفتوك » ، وأيضًا مما يدخل في هذا ما يكون من فتوى أهل العلم، لأنه قد يجد من يفتيه بالجواز، لكنه يعلم أن من هو أكثر علمًا، وأعظم ورعًا، أفتى بغيره، فإذا ذهب إلى من يفتيه بالجواز، فإنما ذهب لهوى نفسه، فهو يعلم ذلك منها، ولا تبرأ ذمته عند ربه يوم لقاه، ولا يكون في ذلك مؤديًّا للأمانة.



الحديث الثامن والعشرون.

{الحديث الثامن والعشرون: عن أبي نجيح العرباض بن سارية -رضي الله عنه- قال: وعظنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موعظةً وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودعٍ، فأوصلنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله -عزَّوجلَّ-، والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبدٌ، فإنه من يعش منكم، فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعةٍ ضلالةٌ»، رواه أبو داود والترمذي، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ}.

- لما قال: وعظنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موعظةً بليغةً، هذا الذي يقوله الصحابة، والفاعل له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فليس قلبٌ من قلوب الخلق مهما ارتفع، ومهما عظم، ومهما اختص به من خصائص العلم والفضل والدرجة والمنزلة، إلا وهو محتاجٌ إلى ما تحرك به القلوب، وتثقل به النفوس، وتصلح به الصدور، ويطلب به رضا الله -سبحانه وتعالى-، ولذلك لم يكن النبي -صلى الله عليه وسلم- ليترك أصحابه من الموعظة، وهم أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، التي جاءت بمدحهم الآيات، ودلت على ذلك

الدلالات، وتواترت وتكاثرت الأدلة في مدحهم، وعظيم منزلتهم، منهم المبشر بالجنة، ومنهم المبشر بالمغفرة، ومنهم المبشر بعظيم المنزلة، وعالي الدرجة عند الله -سبحانه وتعالى-، وما ذلك ليكون بمغنٍ عن أن يستمعوا إلى الموعظة، وأن تحرك بذلك القلوب، وتصلح بذلك النفوس، ولذلك قال الله -جلَّ وعلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: 57]، فكل الناس أيًّا كانوا، لابد لهم من المواعظ، التي تحرك نفوسهم، ذكر الموت، ذكر الجنة، ذكر النار، التخويف من عذاب الله، التخويف من انتهاك حرمات الله، الحث على فعل الطاعات، إيراد الأحاديث الدالة على ذلك، ولأجل هذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتخول الصحابة بالموعظة، بين الفينة والأخرى، فإن القلوب تصدأ، وإن النفوس تعرض، وإن الإنسان يمل، وإن النفس تهدأ وتصد، حتى إذا جاءها الواعظ، وتحركت بالقرآن، وبدلالة السنة، وبمثل هذه المواعظ، عادت، وآبت، ورجعت، ونجحت، وأفلحت، وأبعدت عنها الشياطين، والخطرات، والوساوس، فكل ذلك كان من أعظم ما ينبغي لنا أن نحرص عليه، ولذلك لم يزل أهل العلم يعنون بهذا، ويؤلفون فيه المؤلفات، اقتداءً بنبينا -صلى الله عليه وسلم-، موعظةً بليغةً، وجلت منها القلوب، فتحركت وخافت وخشيت ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، فتوجل القلوب وتخاف، وذرفت منها العيون، بان ذلك في آثارهم، وفي جوارحهم؛ لأن القلب إذا صلح، صلح سائر الجسد، وإذا خشع لله -جلَّ وعلَا- دمعت مع ذلك العين، وسكنت مع ذلك الجوارح، واستقامت على طاعة الله -جلَّ وعلَا-، وأبعدت عن معصية الله.

- من الذي يستغني عن المواعظ؟ وقد وعظ النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه. من الذي يستغني عن المواعظ؟ وهو يرى أنواعًا من الشرور التي تحمله على الشر، وتصده عن الخير، وتقربه إلى دواعي الشيطان. فإذن هذه هي المواعظ، وهذه سنة نبينا -صلى الله عليه وسلم-، فلتنشط النفوس، ولتحرك القلوب، ولنجتمع لمثل هذه المواعظ، ولندعو إلى الخير، وليكن لذلك نصيب في حلقنا، وفي جمعنا، وفي اجتماعاتنا، وفي تقلبات أيامنا، حتى لا يكون منا الضعف والإعراض.
- هذه الموعظة كانت موعظةً بليغةً، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا وعظ تحرك قلبه، احمر وجهه، وارتفع صوته، ولذلك جاء في الحديث، يقول: كأنه النذير العريان، النذير العريان، يعني الذي سرقت ثيابه، فيقول: العدو خلفكم، وقد سرقت ثيابه، فهذا دليلٌ ظاهرٌ على أن العدو حاصلٌ، فكذلك ينبغي أن يكون الواعظ صادقًا، وأن يكون متحمسًا، قائمًا بحقها، بعض أهل العلم يقول: إن رفع الصوت إنما يكون عند ذكر الساعة ونحوها؛ لأنه جاء في بعض رواية الحديث: «إذا وعظنا فذكر الساعة، احمرت عيناه، وعلا صوته -صلوات ربي وسلامه عليه».
- ثم قالوا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودعٍ، يعني هذه الموعظة اختصت من غيرها من سائر المواعظ، بمزيد معانٍ بليغةٍ، ودلالاتٍ كثيرةٍ، وذلك أن المرء إذا كان في إدبار حالٍ، أو انقطاعه عن أصحابه، إن كان ذلك بسفرٍ، أو كان ذلك بموتٍ، أعظم ما يكون في إخلاص الموعظة لهم، وذكر ما يحتاجون إليه في أمورهم، إن كان صغيرًا أو كبيرًا، فمن يودع أهله، منتقلًا من هذه الدار، فإنه لا يزال يذكر في وصيته، كل ما يحتاجون إليه من أمورٍ قليلةٍ أو كثيرةٍ، فكأن الصحابة أحسوا من ذلك، فطلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- وصيةً يوصيهم بها، فقال: «أوصيكم بتقوى الله».
- الوصية بتقوى الله، هي وصية الله للأولين والآخرين، والمتقدمين والمتأخرين، وكل أحدٍ لا يستغني عن هذه الوصية ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131].

- والسمع والطاعة، يقول أهل العلم في الجمع بين هذين الأمرين، ما يحصل بهما الفلاح، أما التقوى، ففيها فلاحٌ ونجاحٌ في الآخرة، وأما السمع والطاعة، ففيها حفظ مصالح العباد في الدنيا، وذلك أنه من أصول أهل السنة والجماعة السمع والطاعة للولاة، في أي حالٍ من أحوالهم، ولذلك حتى لو حصل منهم تأخرٌ عن الصلاة، ولو حصل منهم نقضٌ لبعض عرى الدين، ماداموا مستمسكين بأصله، وداعين إلى لوائه، فإنه وإن حصل منهم هناتٌ كبيرةٌ، وأخطاءٌ عظيمةٌ، فإن ذلك لا يعني الخروج عليهم، أو عدم بذل الطاعة لهم، فإن هذا مما أمرنا الله -جلَّ وعلَا- به، فكما أمر الله بالصلاة، وأمر بالزكاة، أمرنا بالسمع والطاعة، فحينما نمتثل، فنمتثل كما نمتثل في الصلاة والزكاة، ولا ذلك على سبيل المقابلة، أو سبيل المعاوضة، بل هو أمرٌ من أوامر الله -جلَّ وعلَا-، التي جاءت في كتابه، وبعض الناس يظن أن هذه عقدٌ، وأن العقد مبناه على المعاوضة، يعطيني وأعطيه، ويبذل لي وأبذل له، لا وكلا، بل هي بيعةٌ، وبيعةٌ معقودةٌ في الأعناق، يجب على أهل الإسلام بذلها، والسمع والطاعة فيها، ولأجل ذلك جاءت في كل الأحوال، حتى في حصول الأثرة، كما في حديث عبادة بن الصامت، وهنا قال: «وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشيٌّ »، مع أن العبد المملوك لا ولاية له؛ لأنه مملوكٌ لسيده، فكيف تكون له ولايةٌ؟ وهنا قال: «عبدٌ حبشيٌّ»، يعني «مجدع الأطراف» في الروايات. ما المراد بذلك؟ ليس في مثل هذا انتقاصٌ لهذا، وإنما لما كان مثل العرب، وأهل قريش، الذين هم ساداتٌ، يأنفون عن مثل ذلك، فأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يبين أنه مهما كرهت صدورهم، ومهما كرهت نفوسهم، من السمع والطاعة، فإن ذلك واجبٌ عليهم، وأن ذلك ليس إلى هواهم، وليس إلى إرادتهم.
- السمع والطاعة هذه أصلٌ من أصول أهل السنة والجماعة، جاء بها هذا الحديث، وحديث عبادة بن الصامت، وغيره من الأحاديث، والله -جلَّ وعلَا- يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: 59]، يقول أهل العلم في هذه الآية: دلالةٌ على أن طاعة الولاة، تابعةٌ لطاعة الله، وطاعة رسوله، ولأجل هذا جاء في الحديث: «إنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق» ، فيكون هذا أصلًا معروفًا، وأمرًا ثابتًا، وهذا يقرره علماء أهل السنة والجماعة.
- هنا ما يتعلق بالطاعة في المعروف، يعني سواءً كان ذلك في ما أوجب الله تعالى، فيكون أمرهم تأكيدًا وحثًّا، وحملًا على الخير، وإن كان ذلك فيما كان من المباحات، فأمرهم بهذا يستوجب الطاعة، لاختصاصه بأمر ولي الأمر، وأما ما كان فيه معصيةٌ فإنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق، لكن حصول ذلك لا يعني الخروج عليه، ولا يعني أنه قد ذهب حقه، بل لا يأتمر بأمره في ذلك ويبقى على حقه فيما سواه، كما ذكر ذلك أهل العلم وقرره أهل السنة والجماعة.
- السمع والطاعة هما كالشيء الواحد، يسمع ويطيع كأن السمع سابقٌ والطاعة لاحقةٌ، فإذا سمع المرء استجاب ثم أطاع، وقد يقال من أن السمع أن يسمع في ما يكون من النواهي فينتهي عنه، والطاعة فيما يكون من النواهي فينتهي عنه، والطاعة فيما يكون من الأوامر فيتمثلها، على كل ذلك داخلٌ فيها لا محالة، ومتعلقٌ بها أمر ظاهرًا لا غضاضة فيه، إذا كان من ولي الأمر أنه عرف منه العدل والصلاح، فهل أو كان دون ذلك من أهل الجور والظلم، هل ما كان من الأوامر التي لا يعلم، هل هي معروفٌ أو ليس بمعروفٍ، كيف يفعل فيها؟ بعض أهل العلم يقول الأصل أن طاعته معروفٌ، فيأتم بها، بعضهم يقول إنه إذا كان مما عرف بعدله، فحتى لو ظهر في العدل سوى ذلك، فالأصل أنه عادلٌ وأن أمر على وجهٍ صحيحٍ، فإذا قال مثلًا يؤخذ مال هذا، فالأصل أنه يؤخذ بوجه حقٍّ وأن هذا معتدٍ في ذلك المال أو نحوه فيستجاب، وبعضهم يقول: إذا كان الأمر من ولاة الجور

فإنه إذا كان الأمر فيه شيءٌ من الغبش وعدم الظهور، فإنه يطلب التحقق ولا يدخل في ذلك حتى يتبين، والأمر في هذا محتملٌ، والأصل هو الإبقاء على طاعتهم ما لم تظهر أن الأمر لهم وأن أمرهم معصيةٌ، فيترك.

- ثم قول النبي -صلى الله عليه وسلم- «فإنه من يعش منكم فيرى اختلافًا كثيرًا» ، وذلك أن المرء مطالب بالاستقامة والاستجابة مهما رأى من الاختلاف، كما قلنا في أنه يؤدي الحق لله -جلَّ وعلَا-، ولذلك لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «كيف بكم بأئمةٍ يؤخرون الصلاة عن وقتها» ، قالوا: ما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «صلوا الصلاة لوقتها، فإن أدركتموها معهم فصلوها» ، لم يأمر بمنازعتهم ولا بمخالفتهم ولا معاداتهم، أليس هذا من الاختلاف الكثير! تأخير الصلاة عن أوقاتها، وعدم الخروج إليها، هذا من أعظم الشنائع، ومن أعظم البلايا، فمع ذلك لما كان أمر الخروج والاختلاف عليهم، ومعارضتهم ومنازعتهم، بلائه أكثر، فإنه يطلب الاستقامة على ذلك وعدم الخروج، ولأجل هذا يقول أهل العلم أو بعض أهل السنة، يقول: الولاة لهم ذنوبٌ كالجبال، كبيرةٌ، يقولون: ولهم حسناتٌ كالليل، فإذا جاء الليل غطى الجبال، فكذلك حسناتهم، ولذلك ما خرج أقوامٌ على إمامهم إلا كان بسبب ذلك بلاءٌ كثيرٌ وشرٌّ مستطيرٌ، خرج بعض التابعين على الحجاج في فتنة ابن الأشعث، فيقولون الذي قُتل في تلك الليلة أكثر من الذين قتلهم الحجاج في سنةٍ كاملةٍ، مع اختلال الأمن وتسلط السفهاء وحصول شرورٍ كثيرةٍ، ولأجل ذلك كان طلب الاستقامة على الولاة، إنما هو به صلاح الحال.
- وإياك ومحدثات الأمور، هذه وصيةٌ من النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في الاستمساك بالسنة، وضدها المحدثة والبدعة ، فعلينا بالاستمساك، وعلينا بالإتباع، وعلينا بالاهتداء، وإياكم والبدعة، وإياكم والضلالات، وإياكم بأهواء الناس ومخترعاتهم ومبتدعاتهم، فلا عبادة ولا استقامة ولا استنان إلا بسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم- «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ ضلالةٌ» كل محدثةٍ تكون ضلالةً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا يدلنا على ما يجب من الاستمساك بطاعة الله -جلَّ وعلَا.
- هنا قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » السنة منسوبةٌ إلى من؟ إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- والمقصود كل ما جاء عنه من أقوالٍ وأفعالٍ وتقريراتٍ، سواءً كان ذلك في أصول الشرع أو كان ذلك في الفروع، سواءً إن كان ذلك في الأقوال أو كان ذلك في الأفعال، فنحن مقتدون متبعون، لا نزيد من عند أنفسنا، يقول الله -جلَّ وعلَا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: 3] وهذا هو الواجب على المرء، والواجب على أهل الإسلام «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ بدعةٌ، وكل بدعةٍ ضلالةٌ» فسبب الوقوع في هذه البدع سببٌ للضلال وترك الهداية والاستقامة على أمر الله -جلَّ وعلَا- فكان مما ينبغي على المرء أن يحفظها.
- ثم نبه النبي -صلى الله عليه وسلم- على سنة الخلفاء الراشدين من بعدي، الخلفاء الراشدون هم أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- جاء مدحهم في أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر أنه تكون بعده خلافةٌ على منهاج النبوة ثلاثون عامًا، وهي التي جاءت عن هؤلاء الأربعة، علي ست سنواتٍ، ثم تتمة ذلك في الحسن ستة أشهرٍ فكانت ثلاثين عامًا، وأبو بكر سنتان، وعمر اثنان وعشرون عامًا، وعثمان ستة أعوامٍ، وبذلك يكتمل الثلاثون عامًا، فيها تقاطيع تكمل بها الثلاثون كما عدها أهل العلم.
- ففي هذا إشارةٌ إلى ما ذكرنا من أنه جاء تزكيتهم ومدحهم، وهم من المبشرين بالجنة، واتفق أهل السنة والجماعة على أنهم هم الخلفاء الراشدون المهديون كما جاء ذلك في دلالات الأحاديث.

- على كل حالٍ ما نريد أن نقوله هنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد زكى الخلفاء الراشدين، فما كان من سنتهم فهي متبعةٌ، ولذلك أقر أهل العلم مثلًا ما جاء من الحكم بالخلوة من أنها في مثل الدخول، قضى الخلفاء الراشدون أن من أرخى سترًا وأغلق بابًا فعليه المهر ووجبت العدة، وأيضًا مثل ما جاء في الأذان الأول، فإنه مما سنه عثمان -رضي الله تعالى عنه- واتبعه المسلمون واقتدوا به على مر العصور والأزمان واختلاف الأماكن، لم يختلفوا في ذلك لأنها من سنة الخلفاء الراشدين، كذلك حين جمع أبو بكر القرآن والمصاحف ونحوها، ثم أيضًا جاء عثمان فكتب المصحف ووحده في ذلك ونشره في الأمصار، فكانت كل ذلك من سننهم -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الثانى عشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



الحديث التاسع والعشرون.

{عن معاذِ بنِ جَبَلٍ -رَضِي اللهُ عَنهُ- قالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ، أَخبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُني الجَنَّةَ ويُباعِدُني عَنِ النَّارِ. قال: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ» . ثم قَالَ: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ» . ثُمَّ تَلاَ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بَلَغَ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثُمَّ قالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» .

قُلْتُ: بَلَى يَا رسولَ اللهِ.

قالَ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ». ثمَّ قالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟».

قلتُ: بلى يا رسولَ اللهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وقالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا».

قُلْتُ: يا نَبِيَّ اللهِ، وإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ به؟

فقالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أو عَلَى مَنَاخِرِهِم إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»).

رواه التِّرمذيُّ ، وقالَ: حديثٌ حسنٌ صَحيحٌ}.

- هذا الحديث وهو حديث معاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- من الأحاديث العظيمة، وذلك أنه سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُني الجَنَّةَ ويُباعِدُني عَنِ النَّارِ، ما أعظم هذا السؤال، ولذلك أثنى عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ» حينما يكون الإنسان همه ومبتغاه وطلبته، ليس عرضًا من عرض الدنيا، ولا شيء من حطامها، ولا طلبًا من شهواتها ورغباتها مهما كبرت وعظمت، فإنه لا يساوي في الآخرة شيئًا، ولذلك جاء في الحديث، أنه يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، فيغمس غمسةً في النار ثم يخرج، فيقال: هل مر بك خيرٌ قط؟ هل رأيت خيرًا قط، فيقول لا يا ربي، فإذن كانت كل هذه الدنيا هباءً منثورًا ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: 23] كل ما هذه الدنيا وما فيها يكون هباءً إلا ما كان من عمل صالح، فإنه يطلب به الأجر والثواب والرفعة عند الله -جلَّ وعلَا.

فقال: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ»

- فينبغي لكل مؤمنٍ أن تكون الجنة نصب عينيه، وأن تكون النار أمام ناظريه، فيخاف من هذه، فيكون مقبلًا على الله -جلَّ وعلَا- خائفًا من النار، وراجيًا للجنة، طالبًا لها، متعلقًا بالله -جلَّ وعلَا-، فيكون ذلك الرجاء والخوف الذي به يطيب، وبه بإذن الله -جلَّ وعلَا- يوفق، وبه يعان على الطاعة ويخلص من المعصية.
- ولما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- إنه لعظيمٌ من جهة عظم هذا الأمر، من جهةٍ متعلقةٍ وهي الجنة والنار، ومن جهةٍ أنه ليس باليسير من جهة الأعمال التي تطلب لذلك، والأوامر التي لابد أن يمتثلها، والنواهي التي يباعدها، وإنه ليسيرٌ على من يسره الله عليه، وفي هذا إشارةٌ إلى أن التوفيق من الله -جلَّ وعلَا- والإعانة والتسديد، ولذلك قال الله -جلَّ وعلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] فلا إعانة إلا من الله، ولا توفيق إلا بالله، ولا تسديد إلا من عند الله، فالعبد المؤمن كلما كان أكثر تعلقًا بالله -جلَّ وعلَا- يسر الله له الخير وأعانه عليه، فما يتلكأ فيه أناسٌ كثير فإنه يتقدم إليه أسهل ما يكون على قلبه بتوفيقٍ من الله، حتى لربما أرخص دمه ولربما أنفق ماله، ولربما قضى جميع ليله أو جميع أيامه في طاعة الله -سبحانه وتعالى-، الجميع المقصود به يعني لياليه في مدى عمره، لا جميع الليل من حيث مبتداه ومنتهاه.
- ثم ذكر أن أول ما يكون هو الإتيان بالأركان الخمسة، وهي السبيل والباب إلى الجنة كما في حديث ضمام بن تعلبة، وكما في حديث جابر الذي مر بنا، فكلها أحاديث دالةٌ على أن هذه الأركان هي التي توصل إلى رضوان الله، وتوصل إلى جنة الله -جلَّ وعلَا- ويعصم بها العبد من النار.

ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟».

- الخير له أبوابٌ وله مسالك، وله طرقٌ، وله عرصاتٌ من أرادها فإنه يوفق إليها، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «الصَّوْمُ جُنَّةٌ» يعني مع كونه بابًا من أبواب الجنة إلا أنه أعظم ما يكون وقايةً للعبد من عذاب الله ووقايةً له من المعاصي، ولذلك جاء في بعض الروايات الصيام جنةٌ وحصنٌ حصينٌ من النار، ولأن الجنة يعني الوقاية، فكأنه يحفظ من المعاصي فإذا حفظ من المعاصي حفظ من النار، ولذلك يكون في شهر رمضان تصفد مردة الشياطين، وتفتح أبواب الجنة وتغلق أبواب النار، لما يكون من كثرة إقبال الناس على الخير، وسهولتها عليهم وتيسير الله -جلَّ وعلَا- لهم، فهذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم- «الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ» ، ما يكون من الخطيئة فإنها تغضب الله -جلَّ وعلَا-، فيكون من الصدقات والأعمال الصالحة، ما يذهب ذلك الغضب ويطفئ أثر تلك الخطيئة كما يطفئ الماء النار، والماء يقضي على النار، فكذلك هذه الأعمال وهذه الصدقات، تذهب الخطيئة والمعصية والسيئة. ما المقصود بالصدقة هنا؟ قد يقال إنها الصدقة بالمال، وهذا المعنى الخاص لها وقد يراد بها الصدقة بعمومها، ولأجل ذلك هذا يدل عليه «واتبع السيئة الحسنة تمحها» فكانت الحسنة تابعةً للخطيئة، مطفئةً لها، ماحيةً لها، فهناك محوٌ وهنا إطفاءٌ لها، وكلاهما دالةٌ على حصول الخير وانقطاع الإثم -بإذن الله جلَّ وعلَا.

قال: «وَصَلاَةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»

- هذا فيه فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، كان أحسن ما يكون وتر الإنسان آخر الليل، ولذلك أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالصلاة في الثلث الأخير من الليل، وانتهاء وتر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى آخر الليل، وبين

أنه ينزل فيه ربنا، فيقول هل من سائلٍ فأعطيه، هل من مستغفرٍ فاغفر له، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على هذا، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن أفضل الصلوات، قال: «صلاة الرجل في جوف الليل الغابر» أو في نصف الليل كما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ومثل ذلك جاء في قيام داود -عليه السلام- فإنه كان يقوم نصفه وينام سدسه، كما في الحديث الذي في الصحيح.

ثُمَّ تَلاَ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16].

- كما قلنا الخوف والطمع، الرجاء هو الخوف من الله -جلَّ وعلَا- هو أعظم ما يكون سائقٌ للعبد إلى رضوان الله ومغفرته، والخشية والبعد عن عقابه وعذابه، ولا يكون ذلك إلا بمحبة الله -جلَّ وعلَا- حين يسكن في النفس، ويكون مستقرًا في القلب، وبذلك أركان العبادة. فالعبادة لها ثلاثة أركانٍ، المحبة والرجاء والخوف ، وهذا قد جاء في قول الله -جلَّ وعلَا- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 2- 4] فبالحمد تحصل المحبة، وبالرحمة يحصل الرجاء، وبمالك يوم الدين يحصل الخوف، فهي أركان العبادة، ولذلك قال الله -جلَّ وعلَا- بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للدلالة على ذلك.

ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟».

- فذكر أن رأس الأمر هو الإسلام، ولا يصح للإنسان في الدنيا عمل ما لم يكن له قد قام في قلبه الإسلام، نطق بذلك وآمن بالله -جلَّ وعلَا-، وهنا المقصود بالإسلام أيضًا يدخل فيه الإيمان على ما تقدم لنا، من أنه إذا ذكر أحدهم شمل الآخر، وعموده الصلاة، فهذا فيه دلالةٌ على عظم أمر الصلاة، ولا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة، كما جاء بذلك الأثر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» إلى غير ذلك من الأحاديث.

«وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ».

- فالجهاد من أعظم أعمال البر والإحسان، أصله قد جاءت به السنن، ودلت عليه الأحاديث وجاءت بمدح فاعلها من الدلائل الكثيرة، لكن لا ينبغي أن يفسر ذلك في أن كل من طلب الجهاد سلكه وفعله، فإن الجهاد إنما يكون مع ولي الأمر، وإنما يكون بشروطه واعتباراته، فلا يفتات عليه، فيكون البلاء على الإسلام والمسلمين أشد من ذلك، كما حصل في الأزمنة المتأخرة حينما تزعم مثل ذلك من لا يعرف الأحكام ولا يقدر المسائل ولا يعرف النصوص، فخلطٌ وتلطخٌ بالدماء ووقع في البلايا العظام.

ثُمَّ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمِلاَكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟».

- قلتُ: بلى يا رسولَ اللهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، كف عليك هذا، والكف يكون بالشيء الشديد، حتى إنه لا يزال مسترسلًا إلا أن يكفه ويمنعه ويحبسه ويمسكه، لأجل هذا جاء عن أبي بكر، ما شيءٌ أحوج إلى طول حبسٍ من اللسان، هذا الذي أوردني الموارد، وقد تقدم ما يتعلق بهذا كثيرًا في الأحاديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وتكلمنا على أن أكثر ما تكلم أهل العلم عليه، ما يكون من الكلام فيما لا يعني.

ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمِ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

- هذا فيه دلالةٌ على أن الألسنة أكثر ما يورد العباد النار، وذلك أن العباد ربما يستصعب أن يفعل الزنا أو يفعل السرقة أو يشرب الخمر، لكنه ربما وقع في الكبائر وهو جالسٌ في أكثر من كبيرةٍ بلسانه من حيث لا يشرب، ولغ في غيبةٍ، ولغ في نميمةٍ يعني لعنٍ وسبٍّ، وذلك كله عند بعض أهل العلم قد ذكروا أنها من الكبائر ولهم في ذلك التفصيل، لكن كله كلماتٌ يسيرةٌ تورد الإنسان في الموبقات العظيمة.
- ولأجل ذلك قال النبي - صلى الله عليه وسلم-: **«حصائد ألسنتهم»** إنما يحصدون ما تكلمت به أنفسهم، ولأجل ذلك تمسك الجوارح باللسان وتقول: إنما نحن بك فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا، فينبغي الانتباه لذلك، ولهذا يقول الإمام الشافعي:

احفظ لسانك أيها الإنسان	**لا يلدغنك إنه ثعبان**
كم في المقابر من لديغ لسانه	**كانت تهاب لقاءه الشجعان**

- والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تبلغ به أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تهوي به أبعد ما بين المشرق والمغرب»** فإنما هي كلمةٌ واحدةٌ، نسأل الله السلامة والعافية، ونسأل الله أن يحفظ علينا ألسنتنا.



الحديث الثلاثون.

{عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ جُرْثُومِ بن نَاشِر -رضي الله عنه- عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا».
حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ، وَغَيْرُهُ}.

- حديث أبي ثعلبة هذا من الأحاديث العظيمة وفيه إشارةٌ إلى ما جاء في الشريعة وهو أن الشرائع قد تمت والأحكام قد كملت وأن الله -جلَّ وعلَا- قد بين ذلك ووضحه فمن أراد الاستقامة والإقامة عليه وفقه الله -جلَّ وعلَا- ومن نكس أو ذهب يمينًا أو شمالًا فقد ضل، فالحدود محدودةٌ، والأوامر معلومةٌ، والنواهي معروفةٌ، ومن طلب غير ذلك فإنما يحاسب على ما جرى عليه وفعله، ومن تكلف أشياء مسكوتًا عنها فقد تكلف ما يكون به عليه الشر، ويلحقه به التبعة، لذلك كان هذا الحديث من أعظم الأحاديث التي فيها إشارةٌ إلى ما يجب على المسلم من الإتباع والاهتداء، وأن الشرائع مبينةٌ موضحةٌ، وهذا قد مر بنا إشارةٌ إلى شيءٍ من ذلك في الأحاديث. حديث عائشة **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»**.



فقول النبي -صلى الله عليه وسلم- «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا»

- الفريضة إنما هي من الله، وقد جاءت في كتاب الله -جلَّ وعلَا- هل الفريضة والواجب شيءٌ واحدٌ أو هما شيئان متقاربان؟ لأهل العلم كلامٌ طويلٌ ، من أشهر ذلك ما يكون عند الحنفية أن الفرض هو الذي ثبت بدليلٍ مقطوعٍ به، والواجب ما ثبت بدليلٍ فيه اجتهادٌ ونحو ذلك.
- لكن أكثر أهل العلم لا يفرقون بناءً على هذا وهم جمهور أهل العلم، وإن كانوا يقولون: إن الفرائض تطلق على الشرائع الكبار أو هي بمثابة الأركان؛ ولذلك ابن رجب وغيره قال: كالصلاة والزكاة والصيام والحج، فيجعلون

مرتبة الفريضة أعلى كمرتبة الركن مع الواجب، وبعضهم يقول: إن الواجب ما يكون قد ثبت على وجهٍ في غير القرآن، والفريضة: ما كانت في القرآن، وهذا يعتمدون فيه على ما جاء عن بعض السلف أنه لما قيل عن مثل بر الوالدين قال: إنه واجبٌ وليس بفرضٍ، مبناه على شيءٍ من الاختلاف في الدليل أو في قوته من جهة أنه كما قلنا من الشرائع الكبار أقرب من القول من أن هذا في القرآن، أو هذا في السنة.

- الله تعالى فرض فرائض سواءً كانت هذه الفرائض هي الأركان أو قلنا من أنها الشرائع العظام، ويدخل في ذلك أيضًا ما دونه من الواجبات فإن هذه مما جاءت به الدلائل وصحت بها الأحاديث «فَلَا تُضَيِّعُوهَا» لماذا قلنا من أن هذا في الفرائض الكبار فقط؟ لأنه قال بعده «وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا» فبعضهم يجعل ذلك في المستحبات والمندوبات ، لكن على كل حالٍ الفرائض في الأصل أن تطلق على أو يدخل فيها الواجبات، فهنا لما قال: «فَلَا تُضَيِّعُوهَا» تضييعها يكون إما بتركها وهذا ظاهرٌ لا إشكال فيه، أو بأدائها على وجهٍ لا تبرأ به الذمة. ولذلك قال الله -جلَّ وعلَا-: ﴿فويلٌ للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ فهم فعلوا لكنها لم تبرأ بها ذمتهم من جهة أنهم فعلوها بعد خروج وقتها، أو كانوا مخلين ببعض أركانها كما جاء ذلك في تفسير الآيات، ومثل ذلك سائر الأركان أو سائر ما أمر الله -جلَّ وعلَا- به من الشرائع والواجبات.

وهنا قال: «وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا»

- الحدود جاءت في كتاب الله -جلَّ وعلَا- في دلالات كثيرةٍ. ما المقصود بها؟ ذكر ابن رجب وغيره معاني مقربةً لها فيقول: إنها تطلق ولها معانٍ، فلما قال الله -جلَّ وعلَا-: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [النساء: 13] فيقولون: إن الحدود هنا هي الواجبات والطاعات، ولما يقول الله -جلَّ وعلَا-: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229] أنها يدخل فيها المأذون فيه من المباح والمستحب، وأن المنهي عنه هو التجاوز إلى الأمر المحرم فيدخل في ذلك كل ما أذن فيه، وأما قول الله -جلَّ وعلَا-: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: 187] فهذا يدل على أن هذه متعلقةٌ بالنواهي والمحرمات، لأنه نهى عن قربانها أو إتيانها فدل على أن هذه الحدود هي المحرمات.
- الحدود لها اصطلاحٌ عند الفقهاء قد تطلق ويراد بها العقوبات المقدرة وهذا هو الغالب عند الفقهاء ، ولذلك يقولون: كتاب الحدود، وقد يريدون بها أيضًا ما يكون به التعزير إلا في حدٍّ من حدود الله لا يجلد فوق عشرة أسواطٍ إلا في حدٍّ من حدود الله فيجعلون لذلك تفسيرًا هل هو في التعزيرات أو في ما سبيله التعزير لهم.
- فإذًا قال: «وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا» فيدخل في ذلك كل ما أُذن فيه من مباحٍ أو مستحبٍ، لأن الكلام الأول على الفرائض، ودخل في ذلك الواجبات.

«وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا»

- المحرم الذي جاءت به الشريعة منه ما هو قد دلت الأدلة صريحةً ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: 23] ونحو ذلك، وقد يأتي أيضًا في السنة ما جاء به النهي عنه، وهل النهي دال على التحريم على وجه الإطلاق أو مع الوعيد الشديد؟ للأصوليين فيه كلامٌ وكان السلف يتقون بعض الألفاظ على سبيل الورع ولما جاءت الأزمنة المتأخرة كان الناس أكثر ما يكونون يطلبون بذلك الحد المحدود وهذا لا ينبغي، ينبغي للناس أن ما جاء به الشرع يأتمرون به، وما جاء النهي عنه ينتهون عنه حتى ولو كان فيه ما يمكن أن يكون فيه نوع سعةٍ، يعني بأن لا يصل إلى المحرم أو ما يكون به العقاب

والعذاب.



ثم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»

- هذا جاء فيه الحديث الذي في الصحيح «إن أعظم المسلمين جرمًا الذي يسأل عن المسألة فتحرم لأجل مسألته» ما المقصود بذلك؟ هل هو نهي الصحابة عن السؤال؟ قال أهل العلم: لا، المقصود بذلك ما يكون من التكلف والتنطع الذي حصل في بني إسرائيل في أنهم كانوا يتكلفون في بعض الأسئلة حتى يحرجوا أنفسهم ويضيقوا عليها، فكان ذلك هو المنهي عنه ﴿لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101].
- هذا هو المنهي عنه والتنطع والتكلف في الأسئلة لا ما يحتاج إليه المرء، ولذلك جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «هلك المتنطعون قالها ثلاثًا» يعني المتكلفون، وهنا قال أهل العلم: «وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا» هذا يدل على ماذا؟ على أن المسكوت عنه الأصل فيه البراءة الأصلية لدلالة الأدلة العامة، والمقصود بالمسكوت عنه يعني ما لم يدخل في دلالة حديث عام أو يشمل بقياس علة ونحوها فيكون ذلك داخلاً في عمومات الأدلة الدالة على الإباحة

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13]، فهذه وما في معناها دالةٌ على الإباحة الأصلية وهي مشهورةٌ عند علماء الأصول.



الحديث الواحد والثلاثون.

{عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ -رضي الله عنه- قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ؛ فَقَالَ: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّك اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّك النَّاسُ».

حديثٌ حسنٌ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَغَيْرُهُ بِأَسَانِيدَ حَسَنَةٍ}.

- فلما قال الرجل: «يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ» ، وهذا ينبغي للإنسان أن يكون هذا غايته وطلبه أن يطلب ما يكون به رضا الله -سبحانه وتعالى- وما يكون فيه حصول المحبة، وانتشار الألفة معه ومع غيره من عباد الله -جلَّ وعلَا-؛ فإن ذلك به تمام حياته، وسعادته في يومه وليلته، ويحصل بها الإعانة بها على طاعة ربه، فإن المرء إذا كرهه الناس أو كرههم لم يزل في ضيق نفسٍ، وربما حمله على الإساءة، وربما حمله على سوء الكلام، أو النميمة أو الغيبة أو غيرها.
- لكن أصل ذلك هو محبة الله، ولذلك قال: «إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ» ومحبة الله -جلَّ وعلَا- لعباده ثابتةٌ وأهل السنة مُقرّون بذلك مثبتون لها لدلالات الأدلة عليها من الكتاب ومن السنة، فإن الله جلَّ وعلَا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آلعمران: 76]، و﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

وفي حديث عليٍّ رضي الله تعالى عنه، لما قال النبي صلى الله عليه وسلم «لأُعطينَّ الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

- وإثبات محبة الله جلَّ وعلَا لعباده محبةً تليق بجلال الله سبحانه وتعالى من غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، فلا نقول محبة الله كمحبة الخلق، من أنها بعاطفةٍ وميلٍ ونحو ذلك. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، فكما أن له ذاتًا لا تشبه ذوات المخلوقين، فله صفاتٌ تليق بجلاله لا تشبه صفات المخلوقين.

قال: أحبني الله وأحبني الناس، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «ازهد في الدنيا».

- الزهد لأهل العلم فيه كلامٌ كثيرٌ، منهم يقولون الثقة بما عند الله جلَّ وعلَا، حتى يكون الإنسان أوثق مما عند نفسه، وهذا لا شك أنه بابٌ عظيمٌ وترك المكروهات والمباحات والتفرغ للطاعات، لكن بلا شك أن الزهد في الدنيا الثقة بالله جلَّ وعلَا والتعلق به من أعظم ما يكون به الزهد في الدنيا وعدم التعلق بها.
- ولذلك يقول ابن مسعود وجاء عن غير واحدٍ من الصحابة أنه يقول: إذا قيل ليس في البيت دقيقٌ فهو أكثر ما يكون رجاءً لتحصيل الرزق؛ لأن الرزق من عند الله جلَّ وعلَا، والله تعالى يرزق عباده إذا دعوه وإذا احتاجوا إليه، أما ما في يد العبد فمهما كثر ومهما عظم يمكن أن يذهب في ساعةٍ من نهارٍ، ويمكن أن يتلف، ويمكن أن يأتي عليه البوار والخسران.
- وأجمع ما قيل في الزهد، كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، قال: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، فكل ما لا ينفع الإنسان في الآخرة فإن العبد يزهد فيه، والزهد حقيقته التقلل، والإعراض وعدم الإقبال على ذلك الشيء.
- والزهد في الدنيا إذا كان مبناه التعلق بالله جلَّ وعلَا لأن الدنيا والآخرة ضرتان، فمن زهد في الدنيا يوشك أن يتعلق بالآخرة، أما لو افترضنا أن شخصًا يزهد في الدنيا لكن لا يتعلق بالآخرة، فهذا لن يجديه شيئًا، أو كان زهده في الدنيا لضعفه، أو لكسله، أو نحو ذلك فلا يجديه شيئًا.

لكن من كان يزهد في الدنيا ليقبل على الآخرة، يقبل على الله جلَّ وعلَا، فهذا أسعد ما يكون في الفرح بلقاء الله وبمحبة الله وبطاعة الله جلَّ وعلَا. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال: 67]، فدل على أنه ضرتان، من أعرض عن هذه يوشك أن يتمسك بهذه.

فالمقصود هنا ازهد في الدنيا يعني بتركها ليكون أسعد بالإقبال على الآخرة، وأسرع في الامتثال لأمر الله، والعمل على طاعة الله سبحانه وتعالى.

فهذا هو المطلوب، وهذا هو المأمور به، وهذا الذي يحث عليه الإنسان أن يكون أكثر حرصًا على أوامر الله وطلبًا لطاعة الله، وتعلقًا بالله جلَّ وعلَا.

- وما امتلأ قلب عبدٍ بالدنيا إلا ذهبت منه الآخرة، وهذا في كلام السلف كثيرٌ، أن العبد إذا أحب الدنيا خرجت الآخرة، لأجل هذا تأمل قول الله جلَّ وعلَا في أمره بعدم الركون إلى الدنيا ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: 131]، فإذا كان مد العين واستطراف ذلك، والتطلع إليه، سببًا لضعف القلب وإعراضه عن الله جلَّ وعلَا فكيف بالسعي إلى ذلك والتفرغ لها، فإنها أكثر ما يكون بلاءً على العبد وإعراضًا عن رضا الله سبحانه وتعالى.

- فالراغب فيما عند الله ينبغي أن يزهد في دنياه، وأن يقبل على الله، وأن يقبل على آخرته، وأن يكون حرصه على دنياه بقدر ما يبلغه آخرته، بحيث لا يطلب حرامًا، أو يقع في سوءٍ، أو يقعد عن طاعةٍ، ما يقوم بواجب النفقة على نفسه وعلى أهله ومن حوله، كفى بالمريء إثمًا أن يضيع من يعول.

حصول الدنيا للعبد ليس منافيًا للزهد، بل لربما كانت عنده دنيا لكن قلبه ونفسه لم تتعلق بها ولم تلتفت إليها، ولم تنشغل بها.

ولذلك كان سليمان عنده ما عنده، حتى إذا رآها قد أشغلته أمر بنحر تلك الخيل كلها، حتى يقبل على الله جلّ وعلَا، ويتفرغ لطاعته.

- ازهد في الدنيا إذن هذا من أعظم الأوامر أن يكون الإنسان متقللًا منها، غير راغبٍ في شهواتها، أو متكثرٍ من رغباتها، وما منا إلا وقد عظمت عنده الدنيا وكبرت وكانت ملء عينه، وملء يومه، وملء ليلته، حتى لربما أضرت بأعظم الواجبات وأكبر أو أهم الطاعات ولا حول ولا قوة إلا بالله.

«وازهد فيما في أيدي الناس يحبونك».

- لأن النفوس مبناها على الشح والبخل والضيق، فكلما أعرض الإنسان عن حاجته عن الناس فإن ذلك أسعد بأن يحبوه، وألا يستثقلوه. فلأجل ذلك كانت وصيةً عظيمةً بليغةً من النبي صلى الله عليه وسلم فيما يكون تقريبًا لك عند الناس، وإن الناس إذا أحسوا منك أنك تطلب بعض أمورهم أو تتطلع إليها، فلا يزالون يستثقلون مجلسك ويعرضون عنك ويطلبون الخلاص من لقائك، فلأجل ذلك كان هذا من أعظم ما يكون به فلاح العبد ونجاحه في الدنيا والآخرة، أن يبعد عما في أيدي الناس، ولذلك الناس يحزنون لسؤالك إياهم وطلبك منهم، لكن الله جلّ وعلَا يفرح بدعاء عبده وطلبه ورغبته فيما عنده، وإقباله عليه، إن كان ذلك من أمر الدنيا، أو كان ذلك من أمر الدين.
- هذه وصيةٌ عظيمةٌ نافعةٌ لمن أراد النجاة ولمن أراد الفلاح، ولمن أراد الخير في الدنيا وفي الآخرة، ففيهما أصلان عظيمان، محبة الله التي بها حصول الأنس والسعادة في الدنيا والفوز في الآخرة، ومحبة الناس التي فيها الأنس بهم، والفرح بلقائهم، وعدم حصول المشاحة معهم في نفوسهم وفي أحوالهم، ولا يكون ذلك إلا بترك ما عندهم، والله جلّ وعلَا الموفق.

الحديث الثاني والثلاثون.

{عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا ضرر ولا ضرار» حديثٌ حسنٌ رواه ابن ماجة والدارقطني وغيرهما مسندًا، ورواه مالك في الموطأ مرسلًا، عن عمر بن يحي عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم فأسقط أبا سعيد وله طرقٌ يقوي بعضها ببعضٍ}

- هذا الحديث من القواعد الخمس الكلية أو الكبرى عند أهل العلم والتي هي عليها مناطٌ من مناط الأحكام الشرعية، وذلك أن الشريعة جاءت في أصلها بتحصيل المصالح ودفع المفاسد، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا ضرر ولا ضرار».

وهنا لما جاء بلفظ «لا ضرر ولا ضرار»

- أولًا نفيٌ والنفي دالٌّ على قطع مادة الضرر في أصل الشريعة، والتكاليف والأحكام، وما جاء به أمر الله جلَّ وعلَا وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

فهذا ينبغي أن يكون متأكدًا عندنا جميعًا، وما ينظر إلى أنه ضررٌ حاصلٌ في ذلك فإنما مبناه على رؤية الإنسان القاصرة ونظره الخاطئ، وإلا فأصل الشرع محصلٌ للنفع دافعٌ للضرر، ولا شك.

هذا من جهةٍ، ولأجل ذلك تتكاثر النصوص، الشريعة جاءت بما يحصل به حفظ أموال العباد، ومنع الاعتداء عليها، جاءت الشريعة بحفظ أنسابهم وجاءت بما يكون فيه حفظ نسلهم، ونسبهم، وما يكون فيه تحصيل شهواتهم، ولا يكون فيه ضررٌ على المجتمعات، ولأجل ذلك حرمت الزنا، جاءت الشريعة بأن تعطي المرء حقه مما يكون فيه من ما يحتاج إليه من نومٍ أو شهوةٍ أو غيرها وطلب منه ما لا يكون مضرةً عليه، من قيامه بحق الله جلَّ وعلَا إن كان من صلاةٍ أو غيرها، إلى غير ذلك كثيرٌ.

- ولأجل ذلك قال أهل العلم ما معنى قوله «لا ضرر ولا ضرار» ، من أهل العلم من يقول هاتان كلمتان دالتان على شيءٍ واحدٍ، الضرر والضرار تأكيدٌ لذلك فنفي للضرر جميعًا، وهذا لا شك أنه معنى مقصودٌ، ولذلك يقول أهل العلم لم يأتِ في الشريعة ما فيه ضررٌ على العباد من جهة التكاليف، فإنها ميسرةٌ سهلةٌ، ممكن تحصيلها، ولذلك قال الله جلَّ وعلَا: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فرفع عنهم حتى الخطأ والنسيان ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: 286]، والله جلَّ وعلَا يقول قد فعلتُ كما في حديث مسلم الذي في الصحيح، فهذا دالٌّ على نفي الضرر في التكاليف وفي الأحكام.

وأيضًا جاء ذلك في المعاملات، فإن الشريعة قد جاءت بحفظ ما يكون فيه صلاح معاملات الناس، فمنع من الربا، ومنع من الغرر، ومنع من الغش، ومنع من بيوعاتٍ كثيرةٍ فيها إضرارٌ بالناس، ومنع من الاحتكار، ومنع من التسعير، ومنع من تلقي الحاضر للباد، ومنع من التصرية، وما يكون فيها من الغش، إلى غير ذلك، فإذن هذا لا إشكال فيه، بل جاء ما هو أعظم من هذا، وهو أنه جاءت الشريعة بالتنصيص على نفي الضرر في مسائل خاصةٍ لماذا؟ لأهميتها من جهة أنها متعلقةٌ ما يكون فيه ضعفٌ عند الناس فقد يكون فيه الضرر.

- فانظر إلى الوصية نهى الله جلَّ وعلَا عن الإضرار بالوصية، لأن الوصية فيها جانبٌ من الضعف ورثة والضعفة والأيتام ونحوها، فنهى عن الجنف والميل فيها، ما يتعلق الزوجات، ﴿ولا وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ﴾ [البقرة: 231]، لأن هذا مما يتعاظم فيه الرجال، فجاء بالنص عليه، تأكيدًا لهذا الأصل العام، وأيضًا من فروعه والمسائل المتعلقة به، مما يدل على عظم ما جاءت به الشريعة في نفي هذا الضرر.

ولذلك تكلم أهل العلم على ما يتعلق بالضرر الذي يحصل على الغير، سواءً كان ذلك في ضرر الجار أو نحوه، فبعض أهل العلم أي أمرٍ يكون به ضررٌ على الغير فإنه ممنوعٌ، والحنابلة والحنفية يقولون إنه ما كان ضررًا معتادًا فإنه لا يمنع، وأما ما كان زائدًا على القدر المعتاد فإنه هو الذي يمنع.

- ولذلك بناء الإنسان بجوار جاره فيه ضررٌ عليه، لكن ضررٌ معتادٌ، كل الناس يحتاجون إلى ذلك، لكن إذا كان بناؤه على وجهٍ يمكن أن يضر بجاره، إما لرفع مكانه، أو لاستعماله في صناعةٍ يعظم فيها الغبار أو الدخان أو نحو ذلك، فإن هذا مما منعه أهل العلم لما يحصل به من الضرر، ولذلك أمثلةٌ كثيرةٌ ذكروها فيما يتعلق بفصلٍ في أحكام الجوار، بعضهم يذكرها في بابٍ خاصٍّ، وبعضهم يذكرها تبعًا لباب الصلح.

بعضهم يقول إن الضرر يختلف عن الضرار، من جهة أن الضرر في نفسه، والإضرار فعل فيكون إما فعلًا متعلقًا بالغير، ويدخل في ذلك ما يكون فيه إضرار الإنسان على غيره، سواءً كان له فيه نفعٌ، أو لا نفع له فيه.



الحديث الثالث والثلاثون.

{عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجالٌ أموال قومٍ ودماءهم، ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر» حديثٌ حسنٌ رواه البيهقي وغيره هكذا وبعضه في الصحيحين}

- هذا الحديث وهو حديث ابن عباس من أعظم الأحاديث من جهة أنه متعلقٌ بفصل الخصومات وما يكون به القضاء، وما يكون به حفظ الحقوق ومنع الاعتداء أو الادعاء على أقوامٍ بما لا يكون عليهم، ومطالبتهم بما لم يتعلق بذممهم.
- فلأجل ذلك جاء مثل هذا الحديث فيصلًا وحدًا وحاسمًا وطريقًا واضحًا في أن الحقوق لا يمكن أن تثبت بمجرد المطالبة بها، وأنه لا يمكن أن تلزم بمجرد الكلام، وإنما مبنى ذلك على الإثبات، ومبنى ذلك على البينة، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجالٌ أموال قومٍ ودماءهم» فيقول هذا قتل أبي أو هذا أخذ مالي، أو هذه المزرعة كانت لوالدي أو لأخي، فلو يعطى الناس بهذه الدعوى، لأخذنا أموال هذا وهذا أخذ أموال هذا، وهذا استولى على هذا، فأي شيءٍ يكون للناس مثبتًا لحقوقهم.
- فالنبي صلى الله عليه وسلم منع ذلك، هل هو منعٌ بغير بابٍ مفتوحٍ، لا، لأن الشريعة جاءت بما يكون فيه صلاح الناس، فلو منعنا أيضًا الدعوة مطلقًا لأيضًا اعتدى أقوامٌ فأخذوها غصبًا وظلمًا ثم لم يكن لأصحاب الحقوق أن يطالبوا بها أو أن يتحصلوا على أموالهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لكن البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه.
- **البينة ما هي؟**

يقول أهل العلم إن البينة كل ما أبان الحق، فما أبان الحق وأظهره وبينه بدليلٍ ثابتٍ، فإنه يكون بينةً يحكم بها، وما سوى ذلك فلا. فإذن البينة على المدعي، فمن ادعى هذا المال له أو أن هذه السيارة سيارته، أو أن هذه الأرض أرضه، أو أن هذا الثوب ثوبه، فعليه البينة، ومن ادعى أن هذا قد قذفه، فعليه البينة، ومن ادعى أن هذا قد قتل والده واستحق دمه، فعليه البينة.

- فإذا أثبت ذلك استحق، البينة على المدعي، والقاضي هو الذي ينظر في هذه البينة وفي ثبوتها، وفيما يتعلق بتحرير كل ما يكون موصلًا إلى الحق وموضحًا له، فلا تقبل من الشهود مثلًا إلا ما كانوا عدولًا، ولا يطلب من البينات إلا ما كان مؤديًا للحق مثبتًا له، والمقصود عند أهل العلم بالبينة كل ما أبان الحق، ولا يختص ذلك بالشهادة، بل ما كان به قطعٌ لثبوت ذلك بوجهٍ من الوجوه، فإنه يكون طريقًا للقاضي لأن يحكم بمقتضاه، وأن يثبته به، وأن ينقله أو يرده إلى صاحبه المدعي له.



ثم يقول: «واليمين على من أنكر»

- من أنكر فإنه إما أن نخليه بدون يمينٍ، لكن في بعض الأمور أن أصحاب الحقوق قد يكون له حقٌّ ولا بينة له، فلو أننا خليناه بدون يمينٍ لأفضى ذلك إلى فوات حقه، ويمكن إثباته من وجهٍ آخر، ولو أننا أثبتناه له بدون بينةٍ لأفضى ذلك إلى الاعتداء وأخذ الحقوق منه.
- فلأجل ذلك لم يكن لما جاء في السنة بنقل الحقوق بمجرد الدعوى والمطالبة، ولم يكن أيضًا بإغفال حقوقهم لعدم البينة، بل جعل اليمين على من أنكر، فإذا أنكر الشخص أن هذا الحق حقٌّ لفلانٍ فليحلف بالله أنه ليس بحقّ فلانٍ، ثم ليكون ذلك الأمر بينه وبين الله جلَّ وعلَا، ففي هذا إذنٌ ثبوت الأمور على أصولٍ صحيحةٍ.

لقائلٍ أن يقول إن النفوس قد تحمل على ما يسهل عليها اليمين، نقول إنما جعلنا اليمين صحيحًا أنها في جهةٍ، لكنها في جهةٍ أقوى الجهتين، لما كان المدعى عليه الأصل براءة ذمته، فنحن دائر الأمر بين تخليته وبين أن نأتي بيمينٍ تحمله على ألا يحلف إلا بيقينٍ أو بصدقٍ أو بأن الحق ليس بثابتٍ عليه، أو أن الأمر ليس كما ذكر المدعي.

فلأجل ذلك جاءت الشريعة بمثل هذا، فكان في ذلك حكمًا عدلًا، وقولًا فصلًا.

ثم لأهل العلم تفاصيل فيما يتعلق بذلك، إذا لم يحلق المدعى عليه، فهل ترد اليمين إلى المدعي، وهل ترد في كل حالٍ، أو يقضى بمجرد الامتناع والنكول، هل يقضى في بعض المسائل دون بعضٍ، لهم فيها تفاصيل.

لأهل العلم في مثل هذه المسائل مباحث طويلةً في الحكم في الشاهد واليمين، وفي النكول والحكم بها، أو رد اليمين ونحو ذلك من التفصيلات، ثم اليمين هل تكون على الإثبات أو تكون على النفي، أو في بعض الأحيان تكون على نفي العلم، وفي بعضها على القطع ونحو ذلك.

- أن حكم الحاكم وقضاء القاضي إنما هو في الظاهر، حتى ولو ثبتت بمائة بينةٍ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما أنا بشرٌ أقضي لكم بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق امرئٍ مسلمٍ فإنما هي قطعةٌ من نارٍ فليحملها أو ليدعها»، ثم إن البينة إذا خفيت ثم ظهرت بعد ذلك للمدعي بعد ذلك أن يطالب بها، حتى ولو كان من المدعى عليه يمينٌ وحلف، لأن البينة تثبت في كل حالٍ، إلا أن يكون منه ما يكذبها فيما مضى، فلا تقبل منه بعد ذلك فيما يأتي.



الحديث الرابع والثلاثون.

{عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع بلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم}

- هذا الحديث وهو حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه وأرضاه، من أعظم الأحاديث وفيه معنى من المعاني الكبيرة، فلو رأيتم فيما مضى أنه جاءت أحاديث دالةٌّ على نشر الخير، وبذل الإحسان، والصدقة، وإماطة الأذى، إعانة الملهوف ونحو ذلك من الأمور، ثم أيضًا جاء الأمر بكف الشر وإمساك الشر من أنه صدقةٌ، «والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، فهذا بابٌ آخر، من أبواب منع الشرور وحصول الخيرات.
- أيضًا جاء في الحديث المتقدم «الدين النصيحة» والنصح هو الحث العام وحمل الناس على الخير، وهنا ما هو أخص من ذلك مما فيه منع المنكر إذا حصل، ورد الشر إذا وقع، ليكون ذلك قاطعًا وحاسمًا لمادة الشر أن توجد في مجتمعات المسلمين.



ولأجل ذلك قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده».

- لما يحمل الناس أنفسهم على الخير، ويتعاونون عليه ويتناصحون فيه، ويمسكون عن الشر، فيكيف سيكون صفاء المجتمعات وحصول الخير فيها. ثم إذا تتابعوا وتحاملوا على أنهم إذا رأوا المنكر منعوه، فكيف أو فأي خيرٍ سيصلون إليه، وسينتشر في المجتمعات، وسيمنع الشر، ويقطع دابره، أو يضيق نطاقه، حتى لا يكاد يحصل إلا في الخفاء، أو في بعض الأمور.
- ولأجل ذلك كان هذا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أبواب الخير، بل ذلك أن بعض من لم يعرف الإسلام أو من لم يؤمن بالله واليوم الآخر، من يرى أن هذه الشعيرة وهي شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم ما يكون بها صلاح الأمم والمجتمعات، ويدعون إليها، وينادون بها.
- ولم يزل أهل الشرور والكفر تحصل عندهم البليات والموبقات لا يجدون من يتعاون على صدها، أو يحمل الناس على البعد عنها، أما أهل الإسلام فإنهم لم يزالوا يطهرون مجتمعاتهم مما يلحق بها، ويمنعون ما يدنسها، ويتعاونون على ما يبعد بلاءها، فلا تزال نقيةً طاهرةً سليمةً بعيدةً عما يكون فيه الشر، وما يكون فيه السوء، وما يكون فيه من المنكر، وما يكون فيه مما يؤذي العباد في أمور دينهم أو أمور دنياهم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.



تابع الحديث الرابع والثلاثون.

- كنا ابتدأنا حديث أبي سعيد الخدري في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده» ، وقلنا إن هذا من الأحاديث العظيمة التي بها تمام الأمور، وصلاح المجتمعات، ونقائها، وذهاب بلائها، وأيضًا هو تمام ما تقدم من النصيحة التي مر الحديث عنها، والفرق بين النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن باب النصيحة بابٌ أوسع، فربما يكون في المستحبات، وربما يكون في المكروهات، وربما يكون في أشياءٍ من الأمور الدينية، وربما يكون في الأمور الدنيوية.
- أما باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو أخص من ذلك، وهو فيما يتحتم بالأمور الواجبة، أو الأمور المحرمة هذا من جهةٍ ثانيةٍ أن باب النصح إنما هو توجيهٌ، وباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه حملٌ على الواجب ومنعٌ من الشر وقطعٌ لدابره، فيكون ذلك على سبيل الإلزام إذا كان باليد، وعلى سبيل القوة إذا كان باللسان، وربما كان فيه شيءٌ من اللين على ما يأتي الإشارة إليه.



هنا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكرًا»

- فالمنكر ما تنكره النفوس، وإنكار النفوس إنما مناطه ما جاءت به الشريعة. فكان إنكار النفوس إما بترك أوامر الله وأوامر رسوله، أو فعل المحرمات والمنهيات من الموبقات والمعاصي والسيئات.
- وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكرًا» يقول أهل العلم: أن تعلق الحكم إما بالرؤية البصرية أو ما يكون قائمًا مقامها وهو التحقق والتيقن، فبناءً على ذلك لا ينبغي التنقيب والتفتيش والتحسس والتجسس بما يوصل إلى المنكرات ونحوها.
- فما ظهر من ذلك أنكر وما خفي من ذلك ترك، إلا أن بعض أهل العلم يتكلم على مسألة إذا كان محلًا للفساد ووكرًا من أوكاره وتحقق حصوله، ولا يمكن إنكاره إلا بالتسوّرِ عليه.

- جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنما تؤخذ العامة بأمور الخاصة إذا ظهر فيهم المنكر وهم قادرون على أن يغيروه فلم يغيروه أخذ الله الخاصة والعامة» ، أنهلك وفينا الصالحون؟، قال: «نعم إذا كثر الخبث» ، فكل ذلك يدل على تمكين الخبث وعدم إنكاره، وظهوره وعدم استتاره، وعدم قيام الناس بما يجب عليهم فيه.

هنا جاء في الحديث التدرج، التغير باليد، ثم باللسان، ثم بالقلب، وينبغي أن يُعلم أن التغير باليد واللسان مناطه القدرة على ذلك، فمن لم يقدر فيكون بالقلب، والقلب لا مناص عنه لأن كل واحدٍ قادرٌ على ذلك، ولا أحد يتعذر عليه هذا الأمر.

وإنكار القلب يكون بكراهية هذا المنكر، وإرادة تغييره عند القدرة على ذلك، وبذل ما يمكن أن يُبذل في هذا وترك هذا المكان، إذا كان المنكر بحضرته، فإنه يقوم ما دام المنكر باقيًا.



وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «وذلك أضعف الإيمان»

- المقصود أن الإنكار من خصال الإيمان، فمن لم ينكر بقلبه، فإنه لم يحصل عملًا يمكن أن يكون مما يزيد في إيمانه، ويكتب في درجاته وحسناته، وليس المقصود من ذلك أن من ترك الأمر بالمعروف فإنه ذهب إيمانه بالكلية فلم يبق له شيءٌ من ذلك، فإن هذا معنى ليس بصحيحٍ، ولا مقصودٌ كما نبه على ذلك أهل العلم.
- الإنكار على الولاة، هذه مسألةٌ من المسائل التي تكلم عليها أهل العلم، الأصل أن الإنكار للمنكر على سبيل الإطلاق، لكن ينبغي أن يعلم هنا أنه إذا ترتب على الإنكار على الولاة، إذهابٌ لهيبتهم وتسلُّط السفهاء عليهم، أو حصول منكرٍ أكبر من ذلك فإنه لا ينكر، ومثل ذلك الخروج عليهم، فإن أهل العلم قد نصوا على أنه لا يخرج عليهم، ولأجل ذلك كان من طرائق أهل الأهواء كالمعتزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويقصدون بذلك الخروج على الولاة، أما أهل السنة والجماعة فلا يرون ذلك طريقًا صحيحًا البتة، لما يترتب عليه من المفاسد العظام.
- من المسائل المشهورة عند أهل العلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يحصل المعروف وإنكار المنكر ولا يحصل مفسدةٌ أعظم من ذلك، ولا يكون على الإنسان فيه مضرةٌ، فإذا كان عليه فيه مضرةٌ لم يجب عليه في ذلك الإنكار، فإن كان مما يحتمله فله أن يفعل، وإن لم يحتمل فله مندوحةٌ في ذلك ومعذرةٌ عند الله سبحانه وتعالى، ولذلك كان الإنكار بقلبه في مثل تلك الحال.



الحديث الخامس والثلاثون.

حديث أبي هريرة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض» .

- هذا الحديث أعظم ما يكون بعد حديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما بين أهل الإيمان من المحبة والتآخي فمع ما هم منكرون للمنكرات فإن بينهم من الإخاء والمحبة وإذهاب الضغائن ودغائل النفوس وفسادها ما يحمل على بقاء الإخوة والمحبة الإيمانية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تحاسدوا».
- ومن أعظم الأدواء الحسد، وهو تمني زوال نعمة المحسود، سواءً تمنى الإنسان حصولها لنفسه وزوالها لغيره، أو مجرد زوالها عن الغير، فكل ذلك من الحسد، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «وداء الأمم قبلكم الحسد

والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»، ولذلك كانت من أعظم ما يكون به ذهاب الحسنات كما جاء ذلك في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم.

- أما من يجد في نفسه الرغبة في هذه النعمة مع عدم كراهيته لأخيه أو ما عند أخيه، فإن ذلك من الغبطة، ولا يكون من الحسد، ودليل ذلك أن يكون فرحَ لأخيه بما عنده أو يدعو لأخيه أن تكون بينهم المحبة ولا تحصل بينه وبينه الغيرة، فإن هذا دليلٌ على أنه لم يحسده، من يدير الحسد في قلبه ويكتمه ويحاول دفعه فإن هذا لا يدخل في هذا، وهو من حديث النفس الذي يطرد فلا يكون على الإنسان فيه شيءٌ.

أما من مكَّن للحسد في نفسه، ولم يزله، ولم يعارضه، فيخشى عليه أيضًا أن يدخل في ذلك أو ينتقل إلى ما هو أشد منه.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ولا تناجشوا»

- النجش هو نوعٌ من البيوعات، يعني بأن يزيد في السلعة من لم يريد شرائها إضرارًا بأحد المشترين أو إرادةً النفع للبائع في تلك الحال، وقال بعض أهل العلم أن النجش يدخل في كل ما يكون فيه حيلةٌ واحتيالٌ ومكرٌ وخديعةٌ، حتى ولو كان في غير البيع، فهذا مما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

«ولا تباغضوا»

- نهى عن البغضاء، وحصول ذلك بين أهل الإيمان، مما يحصل بينهم التباعد والتنافر، وأهل الإيمان كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ولذلك مُنع من كل ما يكون سببا للبغيضة كالنميمة والغيبة والفحش وتناجي اثنين دون الثالث، إلى غير ذلك مما جاءت به الشريعة، أمر بالصلاة والاجتماع لها، والزكاة والصيام، كله يكون فيه اجتماعٌ وائتلافٌ ويمنع من التباغض.
- يستثنى من أن يكون البغض لأجل أمرٍ شرعيٍّ كأن يكون متلبسًا بفسقٍ أو فجورٍ، فإن هذا له حكمٌ خاصٌّ، ولأهل العلم في هجر المبتدع أو المجاهر بالفسق والعصيان أحكامٌ تخصه، فإذا كانت المصلحة في ذلك فليفعل، كما جاء ذلك في الآثار والسنن عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: «ولا تدابروا»

- والتدابر منزلةٌ لاحقةٌ للتباغض، بعد أن تحصل البغيضة بينهم وتفسد القلوب، يتدابران، ويصد الواحد عن صاحبه، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: **«لا يحل لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»**.
- ما أشد النفوس التي تعرض، وما أقبح النفوس التي تصد، وما أبعدها عن أهل الإيمان، وخلق النبي عليه الصلاة والسلام، ولأجل هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«لا تدابروا»** مهما كان في قلبك من الشر، ومهما كان في نفسك من حملٍ على أخيك، أو مهما أساء إليك بكلمةٍ أو وشى إليك أو وشى عنك، أو فحش في القول عليك، أو نحو ذلك فلا يزيدك إلا رغبةً في الخير وتحملًا للخطأ والخلل، ولأجل ذلك يقول أهل العلم وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.

لكن إذا بدأ بالسلام فهل ينتفي التدابر، بعض أهل العلم يقول إذا كان بينهما مودةٌ فلا ينتهي التدابر إلا بعودهما كما كانا، ولا ينقطع ذلك بالسلام، وأما إذا لم يكونا فيكفي السلام في ذلك، كما لو كانا متباعدين أو نحوهما من الأصل.

لكن مع ذلك حتى ولو قلنا إن التدابر ينتفي بحصول السلام، إلا أنه ينبغي على الإنسان أن يحمل نفسه على ما يكون به صلاحٌ ما بينه وبين أخيه.

ثم قال: «ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ»،

- هذا إذا استقر البيع كما لو كان مزايدةً، ثم قام هذا وزاد عليه لما رآه سيعطيه هذا، فهذا مما يحمل على الضغينة ومثل ذلك الخطبة على خطبة أخيه.
- قال أهل العلم وهذا مختصٌ بأهل الإسلام فلو كان مع غيرهم فلا يتعلق به ذلك حكمٌ لأنه قال: «على أخيه».

«وكونوا عباد الله إخوانًا»

- هذا ما جاءت به الشريعة، الإخوة والمحبة، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، وجاءت في ذلك أحاديث كثيرةٌ، «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»، ونهى الشرع عن كل ما يعكر على هذه الإخوة أو يقلل من درجتها، وجعل لها منزلةً بها يدخل أهل الإيمان الجنة وبها يرتفعون، وبها يستظلون بظل الرحمن كما جاءت بذلك الأحاديث «سبعةٌ يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهما رجلين تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه.
- المسلم أخو المسلم بينهما أخوةٌ ولهم حقوقٌ، وكل يدفع لأخيه أو يبذل لأخيه حقه، لا يظلمه ، ونهي عن الظلم كما تقدم معنا في حديث أبي ذر، «ولا يخذله» لا بد للمسلم أن ينصر أخاه، ولأجل هذا جاء في الحديث: «ما من مسلمٍ يخذل أخاه في موطنٍ يجب أو يحق له في نصرته إلا خذله الله جلَّ وعلَا في موطنٍ يحب أن ينتصر له فيه، وما من أحدٍ ينصر أخاه في موطنٍ خذل فيه، إلا نصره الله جلَّ وعلَا في ذلك» أو كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم.

«ولا يحقره»

- لأن ازدراء الناس وحقرانهم مما يحصل به فساد القلوب، ولذلك كان من أعظم الكبر غَمط الحق وازدراء الناس، ولذلك نهي عن الحقران، مهما كان الإنسان وضيعًا في عمله، أو وضيعًا في شهادته أو في علمه أو نسبه أو غير ذلك فإن ذلك لا يزيد أهل الإيمان إلا تماسكًا.

«التقوى ههنا»

- فإنما يرتفع الناس بالتقوى، ولأجل ذلك لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى ، ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل سألهم عنه قالوا: حريٌّ إن خطب أن يزوج، وإن شفع أن يُشفَّع، إلى غير ذلك، ثم رؤي رجلٌ لا يُعبأ به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هذا خيرٌ من ملء الأرض من هذا».
- ولذلك قال الله جلَّ وعلَا: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾[الواقعة: 3]، قال: تخفض يوم القيامة أناسًا كانوا مرتفعين في الدنيا، وترفع أناسًا كانوا مخفوضين فيها، ويشير إلى صدره ثلاثًا «بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه

المسلم»، ما أعظم أن يحقر المسلم أخاه، «كل المسلم على المسلم حرامٌ، دمه وماله وعرضه» وهذا جاء في حديث خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة، «إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم عليكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

ما أحسن أن يقيم الإنسان لهذه الحرمة حقها، وألا ينتقصها، أو يدنسها أو يتسلط عليها ويعتدي فيها، كل يبذل حقه لأخيه، أيا كان ذلكم الأمر.



الحديث السادس والثلاثون.

حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من نفس عن مؤمنٍ كربةً من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة».

- وهذا الحديث أيها الإخوة كالمكمل للحديث الذي قبله في معناه، فذاك في منع ما يعكر صفو الإخوة، وهذا فيه الإحسان إلى الإخوان، والقيام بحقوقهم، ولذلك من نفَّس عن مؤمنة كربةً من كرب الدنيا إذا ضاق بالإنسان الأمر في دينٍ أو في مرضٍ أو في علةٍ أو ذهاب قريبٍ أو في أي أمرٍ من أموره، فإن الله جلَّ وعلَا يعده بأن ينفس عنه كرب يوم القيامة، وهي أعظم ما تكون من الكرب، حين تدنو منهم الشمس، ويعظم عليهم العرق، فمنهم من يكون عرقه إلى عقبيه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، في ذلك الموقف ينتصر الله جلَّ وعلَا ويوفق ذلك الذي كشف كربة أخيه فيكشف الله جلَّ وعلَا كربته.

«ومن يسَّر على معسرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة».

- ما أحوجنا إلى التيسر على المعسرين الذين ضاقت بهم الحيل وأغلقت في وجوههم الأبواب، واشتدت بهم الأمور، ونقصت منهم الأموال، أحوج ما يكون إلى أخيه، في التيسير عليه سواءً كان ذلك بإعانته على قضاء دينه، أو بإنظاره، أو بخفض بعض الدين، أو بتأجيله، أيا كان ذلك التيسير بأي بابٍ من الأبواب، فهو داخلٌ في هذا، ويرجى أن ييسر الله عليه في الدنيا والآخرة.

«ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة»

- والستر كذلك كل منا له عيبةٌ، وكل منا له عورةٌ، وكل ربما انكشفت لأحدٍ، لكن الله جلَّ وعلَا يسترها، فمن ستر عورة أخيه ستره الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة.
- وهنا قال: «في الدنيا والآخرة» مع أن الكرب قال «يوم القيامة» لأن الكرب لا تنزل بكل أحدٍ، لكن ستر العورات والتيسير على المعسرين ونحوهم، لا ينفك عنه أحدٌ في حالٍ من الأحوال، ولذلك جاءت في الحالين.
- والستر على المسلم المقصود به العاصي لو حصل منه العصيان، قال أهل العلم: ويستثنى من ذلك من شهر بالعصيان فالأولى ألا يستر عليه حتى يؤدب ويمنع، وحتى يعذر ويبعد شره عن المسلمين.

«والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

- ينبغي للإنسان أن يسعى في الحوائج، أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأرضاه كان يحلب لنساء القوم، فقالوا لما استُخلف إنه لا يكاد أن يحلب، فحلب واستمر على ذلك، ويذكر أن ابن عمر كان إذا سافر كان يخدم من معه،

وعمر رضي الله تعالى عنه كان يأتي إلى بعض النساء فيدخل عليهن فيكنس قوامتها ويعينها على حوائجها، حتى لما رآه طلحة تتبعه ثم نظر فسأل فإذا هي امرأةٌ مقعدةٌ، فقال: ويح لطلحة يتتبع عمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وهذه أحوالهم وهذا امتثالهم لسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

«ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»

- أسأل الله أن يسهل لكم طريق الجنة، وأن يجعلكم ممن يلتمسون العلم، وسبيل العلم سواء كان سبيلًا حسيًّا، بأن يذهب إلى مدرسته، أو أن ينتقل من بلده، أو غير ذلك، أو كان ذلك في مجالس العلم، يعني في الترقي في مجالسه، وفهم معانيه، والتدرج في مراحله، فإن هذا أيضًا مما يحصل به بإذن الله جلَّ وعلَا أن يحصل للعبد هذا الوعد من الله جلَّ وعلَا.

«وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله جلَّ وعلَا يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده».

- هذا فيمن جلسوا في المساجد ويتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، ويتعرفون على أحكامه، وينظرون في فرائضه وأوامره، هل يدخل في ذلك كل مجالس العلم؟
- ظاهر الحديث أنه ما كان متعلقًا بالقرآن يُتلى فيه ويُشرح، أو يذكر ما يتعلق به من أحكامٍ، لكن لا يبعد أن يدخل في ذلك سائرها، ولذلك جاء عن السلف قالوا: تعلموا الفرائض والعلم بالأحكام، فكأنهم أدخلوا ذلك، ولأنها كلها علمٌ بكتاب الله جلَّ وعلَا وبسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهنا منزلةٌ عظيمةٌ في نزول السكينة وغشيان الرحمة، حفتهم الملائكة يعني أحاطت بهم، أم غشيان الرحمة فهي تداخلهم، ولذلك ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ [الأعراف: 189]، تغشي الزوج لزوجته يعني أن يلتصقان ويجتمعان فكذلك غشيان الرحمة كذلك.

- ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وذكرهم الله فيمن عنده» وهذا معروفٌ كما جاء في الحديث القدسي: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه».

«ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»

- فيه إشارةٌ إلى أن الأمور إنما مناطها الأعمال، فلا تفاخر بالأنساب ولا بالأحساب، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ﴾ [المؤمنون: 101]، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا أغني عنكم من الله شيئًا» لآله وأهل بيته، وبين أن ذلك إنما يكون بالأعمال.

فينبغي للإنسان أن يسرع إلى عمله، وأن يقتنص ساعات عمره، وأن يبذل، فربما يكون في الدنيا رفيعًا ويكون عند الله وضيعًا، نسأل الله السلامة والعافية.

الحديث السابع والثلاثون.

حديث ابن عباس في كتابة الحسنات والسيئات، «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنةٍ فعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، ومن هم بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً كاملةً، فإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسناتٍ إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ».

- من عمل حسنة كتبها الله عزَّوجلّ حسنة وضاعفها إلى عشرة حسناتٍ، كما جاءت به الآيات، وربما تضاعف إلى سبعمائة ضعفٍ، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾[البقرة: 261]، وقد تكون المضاعفة أكثر من ذلك، ومثل هذا ما جاء في حديث «إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به» ، وفي حديث ابن حبان لما قرأ هذه الآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «رب زد أمتي» ، فقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾[البقرة: 245]، قال: «رب زد أمتي»، فأنزل الله جلَّ وعلَا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

ففضل الله عظيمٌ، ودرجاته كثيرةٌ لعبادته، ويتفاضل الناس بحسب ما قر في قلوبهم وما كانوا عليه من الإحسان والإتقان والإخلاص لله سبحانه وتعالى.

«من هم بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله عنده حسنةً»

- والمقصود بالحسنة هنا أن تكتب حسنةً كاملةً، لكنها لا تضاعف كما تضاعف لمن عملها، وما المقصود بذلك؟ قال أهل العلم: من هم بها، عزم على ذلك، كما جاء عن أبي ذر، أنه من عزم على قيام الليل حين أوى إلى فراشه فنام فإن الله جلَّ وعلَا يكتب له ذلك، وجاء هذا في حديث أبي موسى «إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا» باعتبار أنه قاصدٌ لفعل ذلك مريدٌ له.

- وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ومن هم بسيئةٍ فعملها كتبها الله عنده سيئةً واحدةً» نبدأ بهذا، من عمل السيئة فالله جلَّ وعلَا لا يضاعفها عليه، رحمةً منه بعباده، لكن يقول أهل العلم إنها قد تعظم السيئة، فمن فعل سيئةً وهو متلبسٌ بالحج، ليس كمن لم يكن كذلك.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ﴾[البقرة: 197]، مع أن الفسوق لا يكون من المؤمن في سائر أحواله، لكنه أخص في هذا.

والله جلَّ وعلَا قال في الأشهر الحرم: ﴿فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾[التوبة: 36]، وقال في الحرم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾[الحج: 25]، فخصه أن من أراده بظلمٍ فإنه يحاسب على ذلك، ويكون عليه سيئة ذلك.

- قال أهل العلم أيضًا: وربما ضوعفت السيئة في أحوالٍ خاصةٍ، وذلك لشرف المتلبس بها، لأن الله جلَّ وعلَا قال: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾[الإسراء: 74، 75]، فجعل ذلك مضاعفةً عليه لو فعل السيئة لشرفه ولكونه رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه وحاشاه أن يفعل ذلك، ومثل ذلك ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ﴾ [الأحزاب: 30] فحصل عليه المضاعفة مع كونهن أمهات المؤمنين، أما من هم بسيئةٍ فلم يعملها، فإن الله يكتبها حسنةً، ما المقصود بذلك؟ قال أهل العلم: الذي ترك السيئة لأجل الله، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء في بعض الروايات إنما تركها من جرائي، يقابل ذلك من هم بسيئةٍ وأراد العمل، فمنع من ذلك لم يصل إليه قدرًا، فإنه تكون عليه سيئةٌ، ولذلك قال: «القاتل والمقتول في النار» ، قيل: فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»، فهذا فيه عملٌ ليس فيه مجرد همٍّ، أما من هم بسيئةٍ فكانت خاطرةً، فهذا لا تكتب عليه سيئةٌ البتة، لكن من استقر في نفسه ولم يعلمها، فإن كانت تلك من عبادات القلوب، فإنها بمثابة العمل كالشك في نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا عمل القلب، فتكون معصيةً، أما إذا كان من الأعمال ولم يمشِ إليها،

فلأهل العلم فيها كلامٌ، إذا استقرت في نفسه، والأكثر عند الجمهور أنها لا تكتب عليه، وهذا هو الذي جاء عن ابن عباس.

- لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الذي يخلط في ماله، أنه تكتب عليه سيئةٌ ثم الرجل الذي يتمنى ما تمناه هذا في أن يخلط في ماله ويفعل، قال: فهما في الوزر سواءٌ، قال أهل العلم: إن هذا تكلمٌ، أي قال، فإنما كان عليه الإثم من جهة قوله لا من جهة ما استقر في نفسه، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم: **«فإن همَّ بها فعملها، كتبه الله عنده سيئةً واحدةً»** هذا ما يتعلق بحديث كتابة السيئات والحسنات، ولا يهلك على الله إلا هالكٌ، لعظم فضل الله يضاعف الحسنات، ويثيب على الهم والعزم عليها، ويجعل السيئة واحدةً ويقلب السيئة حسنةً عند التوبة، وتكون من همَّ بالسيئة فتركها حسنةً، فأين يكون للعباد عذرًا بعد ذلك في أن يهلكوا ولا يقيموا الصالحات ولا يستقيموا على القربات، نسأل الله أن يعيننا على البر والطاعة.

الحديث الثامن والثلاثين.

حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: قال الله -تعالى: «من عادى لي وليًّا فقد أذنته بالحرب»

- هذا من أعظم الأحاديث وهو حديثٌ عند البخاري في صحيحه، وهو بيان منزلة أولياء الله -جلَّ وعلَا.

الولاية أولًا ما هي؟ الولاية هي النصرة في أصلها، والمقصود بذلك الأتقياء من عباد الله ولم يبلغوا درجة الأنبياء بصلاحهم وإخلاصهم وإقبالهم على الله -جلَّ وعلَا- لكن تلك الولاية ليست دعاية كما يفعل بعض الناس، وليست ممن يحبون الشهرة ولا الظهور ولا التكثر عند الخلق بالجاه ونحو ذلك، فهؤلاء كاذبون في ولايتهم، أهل الولاية أهل خشيةٍ وخضوعٍ وورعٍ، وإعراضٍ عن الخلق وإقبالٍ على الله، ملئ قلوبهم أنهم لا يثقون إلا بربهم، وأنهم يعترفون بتقصيرهم ويظهرون أسفهم على ما يفوت من أحوالهم وما يكون من عدم قيامهم بما يليق بحق الله -جلَّ وعلَا- لعظم ما حصل في قلوبهم من الصلاح، فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم: **«من عادى لي وليًّا فقد أذنته بالحرب»** فأولياء الله هم الذين يدفع عنهم الله، وهم الذين يرحمهم الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38] ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36] من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة، فليمدد بسببٍ إلى السماء ثم ليقطع، فلينظر هل يذهبن كيده وما يغيظ حد الله -جلَّ وعلَا- المشركين إذا كانوا يستطيعون أن يحيلوا بينه وبين رسوله، ومن كان كذلك من أهل ولاية وأهل الاستقامة على دينه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 55]، فهؤلاء يدفع الله عنهم، ومن أذنه الله بالحرب فقد هلك، مهما طال به الزمان أو تقلبت به الأيام، فإنه لا يكون إلا على هلكةٍ وبلاءٍ.

ثم يقول: «وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه»

- كثيرٌ من الناس لا يعرف هذا المعنى، الفرائض أعظم ما يتقرب بها إلى الله -جلَّ وعلَا- لأنها أعظم أجورًا، وبها وعيدٌ فيمن تخلف عنها بالوقوع في عذاب الله -جلَّ وعلَا- ونكاله، ولأجل ذلك ربما تجد أن بعض الناس لا يجتهد في بذل زكاته، لكنه يجتهد في صدقته المستحبة، لا يجتهد في صلاة ظهرٍ أو عصرٍ أو مغربٍ أو عشاءٍ، لكنه أكثر ما يكون خشوعًا في صلاة ليلٍ أو وترٍ ونحوه، وهذا ليس بجيدٍ، بل ينبغي للإنسان أن يكون أحرص ما يكون على تمام فريضته، ثم بعد ذلك ينتقل إلى النافلة والمستحبة، ومن كان من أهل إقامة الفرائض فهم من المقتصدين كما جاءت بذلك آية فاطر، ومن كان من أهل النوافل فإنه يكون من المسابقين.

ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل»

- التقرب إلى الله بالنوافل التي شرعها الله، فلا تقرب إلى الله -جلَّ وعلَا- إلا بما شرع الله، وبما سن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا يزيد العبد ولا ينقص، ثم يكون ذلك سببًا لمحبة الله لعبده، المحبة أيها الإخوة تقدم الكلام عليها، وهو أن الله يحب عبده، وهي محبةٌ تليق بجلال الله -جلَّ وعلَا- إن الله يحب المتقين ويحب المحسنين.

قال: «فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»

- يعني أن الله -جلَّ وعلَا- يتولى عبده بالتوفيق والتسديد والإعانة، فيحمله على الخير وييسر له بابه، ويمنعه عن الشر ويغلق عليه طريقه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5] فالله المستعان وهو الموفق لعباده، ومن تخلى عن ذلك فهو المخلول، والله -جلَّ وعلَا- يوفق الموفقين من عباده المسارعين على طاعته، هذا هو المقصود من هذه الآية، ولذلك يقول بعض الصحابة: إننا لنظن أن الشيطان يهاب عمر أن يوسوس له بالشر، لتوفيق الله له، ولإعانته لعبده -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

ثم قال: «ولئن سألني لأعطينهن، ولئن استعاذني لأعيذنهن».

- هذا توفيقٌ من الله، ولذلك كان لأصحاب رسول الله شيءٌ من ذلك، سعد دعا على ذلك الرجل، فأصابته تلك الدعوة، ومثل ذلك يقال إن الحسن دعا على رجلٍ من الخوارج، فمات في مجلسه ذلك، فهذا شأن أولياء الله، وأهل طاعته «وما ترددتُ في شيءٍ ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» المقصود بالتردد هنا، ليس أن الله -جلَّ وعلَا- يأتي عليه الأمران، هذا وهذا، لكن لما كان الله -جلَّ وعلَا- يدفع عن عبده، والموت مكتوبٌ عليه، فلابد له من حصوله، فكان ذلك يعني أنه يتجاذبه أمران، وهو ما يدفع الله عن عباده ويحميهم من الشر، وما كتب الله -جلَّ وعلَا- كتاباً حاصل على كل عباده ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26، 27].

الحديث التاسع والثلاثون.

حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

- هذا الحديث من الأحاديث العظيمة، وهو أصلٌ من الأصول الكبيرة التي قررها الفقهاء والعلماء في كل المسائل، والمقصود بذلك أن كل من حصل منه الخطأ وهو من قصد شيئًا فحصل له شيءٌ آخر، فإنه معفوٌّ عن فعله من جهة أنه لا يلحقه الإثم، فالمقصود هنا رفع الإثم عنه، ومثل ذلك الناس وهو الذي ذهل عن الشيء حتى لم يشعر به، والمكره سيأتي الكلام عليه، فليس المقصود في ذلك أن العمل صحيحٌ بكل حالٍ أو أن لا، بل من نام عن صلاةٍ أو نسيها فليصلها إذا ذكرها، لكن المقصود رفع الإثم ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286] قال الله -جلَّ وعلَا: «قد فعلتُ»، لكن ما يتعلق بهل يكون نسيانه منهيًا للتبعة عليه، هذا يختلف باختلاف الأفعال، ولذلك فرق فيها أهل العلم، فذكروا أن نسيان الصلاة يوجب فعلها، وأن من نسي الطهارة فإنه يجب عليه إعادته، لكن من غطى رأسه وهو محرمٌ ناسيًا، فإنه لا شيء عليه، فلهم في ذلك تفاصيل فيما يحلق

الإنسان، ومثل ذلك الخطأ أيضًا، فالإنسان مثلًا لو ضرب شخصًا ففقأ عينه خطأً، هنا نقول لا إثم عليه، لكن لا يعفيه ذلك من أن تلحقه الدية، ويجب عليه بذل ما فوت على صاحبه من فقأ عينه.



«وما استكرهوا عليه»

- المكره لا قصد له، ومناط الأعمال إنما هي بالقصود والخطأ والنسيان والإكراه أسقطه معبودنا الرحمن، والإكرام إما أن يكون بالإلجاء، يعني كان يحمل الشخص ثم يضرب به شخصٌ آخر، فهذا لا حيلة للإنسان فيه، فإما أن يهدد، فيقول أهل العلم لابد من التهديد الصادق لموقعٍ به، من عذابٍ شديدٍ كضربٍ أو قتلٍ أو نحوه، والتهديد والإكراه إن كان في الأقوال فلا غضاضة على الإنسان فيها، إلا من أُكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان، أما الإكرام على الأفعال فلهم في ذلك تفصيلٌ، فيقولون لو أُكره على القتل لم يجز له، لأنه يقتل غيره ليستبقي نفسه، فليست نفسه بأولى من غيره، أما ما سوى ذلك فلهم فيها اختلافٌ وتفاصيل مثل من أكره على شرب الخمر من الأفعال، هل يجوز له أو لا يجوز، فأهل العلم مختلفون، ومثل ذلك من أُكره على الزنا.



الحديث الأربعون.

حديث ابن عمر، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيلٍ»

- هذا من الأحاديث العظيمة في حث النفوس على التقنع من هذه الدنيا والتخلص من تبعاتها والإقبال على الآخرة، والرغبة فيها والسعي فيما يكون مقربًا للعبد عند الله -جلّ وعلَا- ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه: 131]، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: 20] كل ذلك وآياتٌ كثيرةٌ من كتاب الله دالة على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، ولذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا كراكبٍ استظل تحت شجرةٍ، ثم ذهب وتركها»، «إنما مثلي كمثل رجلٍ دخل من هذا الباب وخرج من هذا الباب» فالدنيا عابرةٌ، و الآخرة هي دار الحيوان لو كانوا يعلمون، فكان العبد متقللًا في الدنيا، قال أهل العلم: وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أن الغريب الأصل أنه متطلعٌ إلى وطنه، فوطنك هو الآخرة.

فحيٌّ على جنات عدنٍ	فإنها منازلك الأُولى وفيها المخيم المخيم
ولكننا سبى العدو	فهل تري نعود إلى أوطاننا ونسلم

- أو كما جاء في نونية ابن القيم -رحمه الله تعالى-، فإذن العبد إنما ينظر إلى وطنه ولا يعتبر بهذه الدنيا مهما ازدهرت ومهما علت، ومهما كبرت ومهما عظمت، ثم إنه حاله حال المسافر، والمسافر مقبلٌ على زاده، يخشى أن ينقطع، يخشى أن يقل، يخشى أن يضعف، فلا يزال عاملًا، والزاد إلى الآخرة هو ما يقرب إليها من الأعمال الصالحة، وفيما يحول بينك وبين رحمة الله، من الابتعاد عن المعاصي والسيئات، ولأجل ذلك تتابع كلام السلف في ترك الدنيا وعدم الركون إليها.

قبورنا تُبنى وما تُبنا	يا ليتنا تُبنا قبل أن تُبنى
وبني القصور المشخمرات في الهوى	وفي علمنا أنا نموت وتخرب
يسعى الفتى وحمام الموت يدركه	وكل يوم يدني للفتى الأجلا

- إلى غير ذلك مما جاء عن عليٍّ، أن للآخرة والدنيا بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، إلى غير ذلك من الأحاديث العظيمة، أو المقولات والآثار الكريمة، ولأجل ذلك كان ابن عمر يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ لا تنتظر المساء، تقلل من الأمل إنما بلاء الناس من أملهم، ولأجل ذلك لما ذُكر لبعض أهل العلم، قال: إنني لا أنتظر شهرًا، قال إنه لأملٌ كبيرٌ، وقال الآخر إني لآمل إلى أسبوعٍ، فقال إنه لأملٌ كثيرٌ، وقال الثالث وإني لا أؤمل ونفسي بيد غيري، يعني بيد الله -جلَّ وعلَا-، فهذا حال المتقين الذين يتقلون من الدنيا وينظرون إلى الآخرة، فما بين لحظةٍ وأنت تمشي على هذه الدنيا حتى تكون في بطنها، وما أنت وأنت تحرك أعضاءك وتذهب وتجيء، حتى تقف هامدةً خامدةً لا تتحرك ولا تستطيع شيئًا، نسأل الله أن يصلح قلوبنا، وأن يحرك نفوسنا، وأن يحملنا على البر والتقوى، وأن يجعلنا ممن طال عمره وحسن عمله واستقامةً على طاعة الله -جلَّ وعلَا-، فكان من الغرباء في هذه الدنيا المتقللين منها، المتزودين للآخرة، الراجين للقاء الله -جلَّ وعلَا.



الحديث الحادي والأربعين.

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به».

- لما كان أكبر ما يكون من أسباب حصول الضلال على العباد هو الهوى، فلأجل ذلك أمر أهل الإيمان أن يكون هواهم ومحبتهم تابعةٌ لما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- متبعين مقتفين مستنين بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يزيدون ولا ينقصون، ولذلك قال الله -جلَّ وعلَا- في الدلالة على أن الهوى أعظم ما يكون إضلالًا للعباد ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الفرقان: 43] فجعله بمثابة الهوى لكثرة ما يكون به من الضلال ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65] والله -جلَّ وعلَا- يقول: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص: 50] فاتباع الهوى سبب الضلال، ولأجل ذلك جاء في الحديث «إذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوًى متبعًا، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بخاصة نفسك» فهي من أعظم ما يكون به الضلال، ولذلك أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أن يؤطر بالحق وأن يطلب فيه إتباع السنة، وأن يكون تبعًا لما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولأن أصحاب الهوى يعلمون ويعرفون، لكن للهوى في نفوسهم والزيغ الذي في قلوبهم يميلون ويعرضون، فأصل الهوى هو الميل، والغالب أن الهوى ميلٌ عن الحق وإعراضٌ إلى الضلال، ولأجل ذلك قال الله -جلَّ وعلَا: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾، وأكثر الآيات والدلائل تدل على ذم الهوى مما يدل على أنه غالب في الضلال والإضلال.



الحديث الثاني والأربعين.

الحديث القدسي في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- قال الله -تعالى: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أبالي»

- هذا الحديث القدسي حديثٌ عظيمٌ، وهو مناسبٌ لختام هذه الأحاديث، فإنه ذكر أبوابًا مما تغفر به الذنوب، وتكفر به الخطيئات، ويحصل للإنسان به الأجر والثواب عند الله -جلَّ وعلَا-، فأولها دعاء الله -سبحانه وتعالى- أيها الناس أقبلوا على الله وادعوا الله وارجوا الله، فإن الله رحيمٌ بعباده، يعطيهم ويزيدهم ويجزيهم ويتجاوز عنهم ويغفر لهم ويرحمهم، فكم من دعوةٍ صغيرةٍ حصل للإنسان بها خيرٌ كبيرٌ، وكم من كلمةٍ يسيرةٍ فتح الله للإنسان

بها باب الدنيا والآخرة، وكم من دعوةٍ صعدتْ في جوف الليل كان فيها تنفيس كربةٍ أو ذهاب ملمةٍ، سواءً على الشخص في نفسه أو على المجتمع أو على المسلمين أجمعين، والدعاء إنما يكون لله لا لغير الله، لا لنبيّ ولا لملكٍ ولا لقبرٍ ولا لوليّ، الدعاء حق لله، فهذا أعظم ما يكون به إجابة الدعاء، من تأدبٍ بآداب الدعاء استفتح بالحمد والثناء على الله، وتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، وبالعمل الصالح الذي يعمله، وذكر من فاقته وضعفه أمام الله -جلَّ وعلَا-، فإن ذلك أحرى أن يجاب، ومن توسل بالتوسلات الشركية، بجاه فلانٍ أو بالاستشفاع بالمخلوقين، فإن ذلك لا يزيده من الله -جلَّ وعلَا- إلا بعدًا ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، ومن أضل ممن يدعون من دون من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، وللدعاء آدابٌ كثيرةٌ ينبغي للإخوة أن يتعرفوها وأن يتعلموها، لأنها من أعظم الأبواب التي يحصل للعبد بها خيرٌ في الدنيا والآخرة، في نفسه وفي زوجه وفي ولده وفي المسلمين أجمعين، وما يكون من أمر الدنيا والدين، ولذلك يدعو الإنسان حتى لمن سبقه من أهل الإيمان، ومن يأتي بعده، ويسأل الله -جلَّ وعلَا- لهم الخير والبر والإحسان.

ثم يقول: «غفرتُ لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغتْ ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني»

- باب الاستغفار واللهج إلى الله -جلَّ وعلَا- بطلب المغفرة، والمقصود بالاستغفار يعني أن يطلب الإنسان المغفرة بأن يقول أستغفر الله، فهو يطلب من الله -جلَّ وعلَا- أن يغفر ذنبه، ولذلك تقدم معنا حديث الأغر المزني في أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يستغفر الله في اليوم مائة مرةٍ، وفي حديث أبي هريرة يستغفر الله سبعين مرةً، من أعظم ما يكون للإنسان الاستغفار، والاستغفار إن اقترن بالتوبة وهو مشروطٌ بشروطها، فيكون ذلك توبةً ومحققًا لمحو الذنوب وذهابها، وإن كان الاستغفار مجردًا، فهو دعاء وطلب المغفرة، فقد يتحصل للإنسان وقد لا يتحصل، لكن من ألظ على الله -جلَّ وعلَا- وأقبل عليه واستغفر، فإنه يوشك أن يغفر له، وإن الله -جلَّ وعلَا- يقول: **«من يستغفرني فأغفر له»** وكلما كان الإنسان طلبها في وقتٍ أو في زمانٍ أو في حالٍ أو في هيئةٍ، كانت مما يجاب له فإنه حقيق بأن يجيب الله دعاءه، وأن يغفر له ذنوبه، ومن ذلك أن يظهر الفاقة، ولأجل ذلك كان من أعظم الاستغفار سيد الاستغفار، وهو ما فيه من إظهار فاقة العبد **«اللهم أنت ربي وأنا عبدك، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»** حديث شداد بن أوس.
- ومثل ذلك أيضًا ما جاء، اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كبيرًا، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني فإنك أنت الغفور الرحيم، كان ذلك من أعظم ما يستغفر به الله -جلَّ وعلَا.

ثم قال: «يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرةً»

- هذا ختام أحسن ختام ، وهو الختام بتوحيد الله -جلَّ وعلَا- وتحقيق الإيمان به، فإنه أعظم ما يكون به حصول المغفرة والرحمة من الله -سبحانه وتعالى- **«لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرةً»** فضلًا من الله ونعمةً، ورحمةً من الله ومنةً، لأن هذا توحيده وهو حقه، من لقي الله وهو لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله، فينبغي للعبد أن يحرص على تحقيق التوحيد، والتوجه إلى الله وتصفية قلبه، وأن لا يتوجه إلى أحدٍ دون الله -سبحانه وتعالى- لا بفعلٍ ولا بقولٍ، ولا بتوجه قلبٍ، لا ما يكون من الشرك الخفي كالرياء وغيره، ولا من الشرك الأصغر، كشرك الأقوال والحلف بغير الله وغيرها، ولا الشرك الأكبر وإتيان السحرة، ونحوهم، وما يكون من إتيان المشعوذين، وإن كان إتيان المشعوذين قد يكون من الشرك الأصغر وقد يكون من الشرك الأكبر.